الفتح الأنعم

في

براءة عائشة ومريم

تأليف

الشيخ علي أحمد عبد العال الطهطاوي

رئيس جمعية أهل القرآن والسنة

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت لبنان

Title: The purity of Aïsha and Mary

Author: Al-Šayḫ ʿAli Aḥmad ʿAbdul- ʿĀl Al-Ṭahṭāwi

Publisher: Dar Al-kotob Al-Ilmiyah

Pages: 256

Year: 2005

Printed in: Lebanon

Edition: 1st

الكتاب: الفتح الأنعم في براءة عائشه و مريم

المؤلف: الشيخ علي أحمد عبد العال الطهطاوي

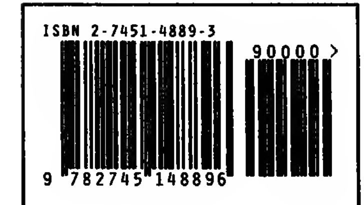
الناشر: دار الكتب العلميـــة ـ بـيروت

عدد الصفحات: 256

سنة الطباعة: 2005 م

بلد الطباعة: لبنـــان

الطبعة: الأولى



ISBN 2-7451-4889-3



الطبعــة الأولى

٢٠٠٥ م ـ ١٤٢٦ هـ

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah**

الإدارة : رمـل الظريف، شـــارع البحتري، بنايــة ملكـارت

Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor

هاتف وفـاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ (١ ٩٦١)

فـــرع عرمـــون، القبـــــة، مبـــــنى دار الكتب العلميـــــة

Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.

هاتف: ١٢ / ١١ / ٨٠٤٨١٠ ٥ ٩٦١+ — ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

فـاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+ — رياض الصلح - بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧

http://www.al-ilmiyah.com

e-mail: sales@al-ilmiyah.com

info@al-ilmiyah.com

baydoun-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

يتناول هذا الكتاب موضوع البراءة التي أنزلها الله تعالى من فوق سبع سموات: في حق السيدة مريم العذراء الصديقة البتول من البهتان الذي رماها به اليهود، وفي حق السيدة عائشة الصديقة الطاهرة أم المؤمنين من البهتان الذي رماها به بعض المنافقين.

وليس الغرض من هذا التناول مجرد الوقوف على الوقائع والأحداث التاريخية، وإنما الغرض منه أن يقف المسلم على الحقيقة الإسلامية المتمثلة في عقيدة التوحيد ومبادئ الحياة الاجتماعية والأحكام والقواعد التي تحفظ المجتمع الإسلامي من نشوء الرذائل والآثام وانتشارها.. والعمل على تداركها

التام إذا نشأت وانتشرت.. ومعرفة مصادر الإصابة التي يمكن أن تنال المجتمع الإسلامي خاصة في مراحل الضعف..

والإسلام يبرئ مريم الصديقة في القرآن المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولعن الله تعالى اليهود بكفرهم وقولهم على مريم بهتانًا عظيمًا.. والقرآن المجيد برأ السيدة عائشة الصديقة في بضع عشرة آية. ولو لم يبرئهما القرآن لكان كل شيء حولهما يدل على براءتهما.. ولذلك فإن المقصود من هذا البهتان في الحقيقة كان هدم العقيدة والإطاحة بالدعوة والرسالة..

فالسيدة مريم فتاة عذراء قديسة طاهرة، وهبتها أمها وهي في بطنها لخدمة المعبد، ولا يعرف عنها أحد إلا الطهر والعفة، ولا يعرف عن أسرتها إلا الطيبة والصلاح من قديم.. كفلها ورباها نبي الله زكريا عليه السلام.. وعندما رماها اليهود بالبغاء بعد أن خرجت إليهم تحمل عيسى ابن مريم طفلاً صغيرًا على صدرها.. جاءت البراءة من دليل الاتهام نفسه، بمعجزة خالدة ثابتة، فقد كلمهم الطفل في المهد ليرد الاتهام ويبرئ أمه ويوضح الحقيقة.. ومع ذلك فقد كانت أهداف اليهود أبعد من مجرد اتهام أو شك تعقبه براءة، ولكن كان مجيء المسيح ابن مريم يعني إعادة الناس إلى العقيدة الصحيحة، عقيدة التوحيد، وكشف الحيل التي يلجأون إليها للتخلص من أحكام شريعة التوراة إذا كانت هذه الأحكام تتعارض مع مصالحهم الخاصة، أو تعوق الكسب الحرام الذي يسعون له.

كما كان مجيء عيسى فيه القضاء على حياة الترف المادي والثراء الذي صار القيمة الوحيدة في المجتمع الذي يعبدها ولذلك لم يعبأ كهنة اليهود بالمعجزة وتكتموا قصة ميلاد عيسى ابن مريم عليه السلام، واستمروا في اتهامهم لمريم العذراء ببهتان عظيم.

والسيدة عائشة الصديقة أم المؤمنين رضي الله عنها، لها دين يعصمها

عاشت في ظله منذ صباها، وهي زوج النبي ﷺ أم المؤمنين تبيت وتصبح في بيت النبوة.. مسلمة نشأت في بيت مسلم وبين أبوين وإخوة مسلمين.. وهي بنت أبي بكر الصديق.. المعروف في شخصه وبيته بالطهارة والنقاء.. رجل ينفق كل ماله في سبيل الله ولا يبالي، وينفر من كل حرام مهما صغر.. ويقطع ليله تهجدًا وقرآنا وتسبيحًا..

كما كان للنبي ﷺ لدى السيدة عائشة رضي الله عنها كرامة، فقد أخذت عنه تعاليم الإسلام.. وأخذت عنه الورع والتقوى والعفة.. ومنه اكتسبت مكانتها واحترامها.. ولو لم يمنعها الإسلام، لمنعتها كرامتها وعراقة أصلها ونبل محتدها.. والجميع يعرف ذلك.. فما هو السبب الحقيقي وراء هذه الفتنة؟!

أعلن النبي ﷺ في أصحابه بعد هزيمة الأحزاب في غزوة الخندق: «**لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم**».

ولم يكن السبب في انتصار المسلمين كثرتهم في العدد لأن المشركين أقبلوا عليهم في كل حرب - من بدر إلى الخندق - وعددهم أضعاف عدد المسلمين.. ولكن السبب الوحيد وراء تفوقهم وتقدمهم وانتصارهم هو التفوق المعنوي الذي كان يشعر به أعداؤهم تمام الشعور، ينظرون إلى حياة النبي ﷺ وأصحابه، وهي أطهر من السحاب في السماء، وتسحر قلوبهم هذه الطهارة والسمو الخلقي، وقد أنشأ هذا في صفوف المسلمين الوحدة والقوة والتآخي والإيثار، بينما كان نظام حياة المشركين واليهود متفككاً ومهترئاً بحيث ألقى بهم في الهزيمة.. في السلم قبل الحرب.. ومن هنا نشأ الحقد في صفوفهم على النبي ﷺ وعلى المسلمين ومجتمعهم النقي الطاهر، وأخذوا يدبرون لرمي هذا المجتمع بما ليس فيه ويدنسوا ذيله ويشوهوا سمعته..

وهذه العقلية الدنسة هي التي حولت مساعي الكفار واليهود في تلك المرحلة من الأعمال الحربية الظاهرة إلى حملات إحداث الفتن في داخل مجتمع

المسلمين.. وكان القيام بهذه المهمة أسهل بالنسبة للمنافقين في داخل المسلمين من الكفار الصرحاء.

وقد ظهرت هذه الخطة أول مرة عندما تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش مطلقة متبناه زيد بن حارثة.. ثم ظهرت في الفتنة التي أثارها رأس النفاق عبد الله بن أبي ابن سلول بين المهاجرين والأنصار؛ وأطلق قولته الخبيثة -في طريق العودة من غزوة بني المصطلق-: أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.. يقصد بذلك رسول الله ﷺ .. وانتهت الفتنة وخمدت، وقال فيها أسيد بن حضير كلمة حق:

«فأنت يا رسول الله، والله، تخرجه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز»... وما كادت تنطفئ جذوة هذه الفتنة حتى أثار عبد الله بن أبي ابن سلول اليهودي المنافق، فتنة أخرى، في تلك الرحلة نفسها، في طريق العودة من غزوة بني المصطلق، وكانت خطورتها شديدة على رسول الله ﷺ وعلى السيدة عائشة وعلى المسلمين وعلى الدعوة الإسلامية.. هذه الفتنة هي حادث الإفك.. الذي كان حلقة فريدة من سلسلة أعمال الإيذاء والمحن التي لقيها رسول الله ﷺ من أعداء الدين..

وتتنـــزل البراءة في القضيتين - لتؤكد أن أمر العقيدة والشريعة (الحلال.. والحرام.. والآداب.. والقيم الخلقية.. والتعاليم من أمر ونهي. والحدود..) ليست بمثابة توصيات، يكون للناس الخيار في شأنها، بل هي مسألة حاسمة وقاطعة لابد من اتباعها وتكييف شؤون حياة الناس الفردية والاجتماعية على حسبها.. ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ وهي واضحة، ليس فيها لبس ولا إبهام، لا يمكن لأحد أن يعتذر عن العمل بها..

هذا.. ولا يزال اليهود إلى الآن، وإلى ما بعد الآن.. يقولون على عيسى ابن مريم إنه عيسى بن يوسف النجار.. وهذا بهتان عظيم.. ولا يزال المنصرون والمستشرقون واليهود والمنافقون الجدد يحاولون أن يرموا السيدة

الطاهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بما رماها به أسلافهم، أعداء رسول الله ﷺ وأعداء الإسلام.. ومن أجل هذا نضع هذا الكتاب [الفتح الأنعم في براءة عائشة ومريم] عليهما السلام ، وجعلناه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: ويشتمل على التمهيد، وفيه بحوث في ألفاظ "القذف" و"البراءة" و"المحصنات" في القرآن الكريم وفي كتب الفقه.

الفصل الثاني: يشمل: كل ما يحتاجه القارئ عن عائشة رضي الله عنها سواء نسبها الطاهر وبراءتها التي ذكرها القرآن الكريم وفضائلها وفضائل أبيها سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

الفصل الثالث: ويشمل: ذكر مريم عليها السلام في القرآن ويشمل أيضًا :

ذكر سيدنا عيسى عليه السلام وذكر براءة مريم وأن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله.

اقرأ وتدبر ولله الحمد والمنة.

الشيخ/ **علي أحمد عبد العال الطهطاوي**

رئيس جمعية أهل القرآن والسنة.



الفصل الأول

التمهيد

- القذف في القرآن الكريم.
- بحث في لفظ براءة.
- بحث في قذف المحصنات.

التمهيد

ذكر القذف في القرآن الكريم

﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾ [الأحزاب: ٢٦].

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [سبأ: ٤٨].

﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ ﴾ [سبأ: ٥٣].

﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ ﴾ [طه: ٢٠].

﴿ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [سبأ: ٥٣].

بحث في لفظ براءة[١]

برأ: الباريءُ: من أسماء الله عزَّ وجلَّ، واللَّهُ الباريءُ الذَّاريءُ. وفي التنزيلِ العزيز: ﴿ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ﴾ [الحشر: ٢٤]، وقال تَعالى: ﴿ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ ﴾ [البقرة: ٥٤]، قال: الباريءُ: هو الذي خَلَقَ الخَلْقَ لا عن مِثال. قالَ ولهذه اللفْظَة من الاختِصاصِ بخَلْقِ الحَيوانِ ما ليس لها بغَيره من المخْلوقات، وقَلّما تُسْتَعْمَلُ في غير الحيوانِ، فيُقال: بَرأَ اللَّهُ النَّسَمَة وخَلَقَ السَّموات والأَرضَ.

قال ابنُ سِيده: برَأَ اللَّهُ الخلق يَبْرُؤُهمَ بَرءاً وبُرُوءاً: خَلَقَهُم، يكونُ ذلكَ في الجَواهِرِ والأَعْراضِ. وفي التنـــزيل:﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ﴾ [الحديد: ٢٢] وفي التَّهْذيب: والبَرِيَّةُ أَيضاً الخَلْق، بلا هَمْز. قالَ الفَرَّاءُ: هيَ مِنْ بَرَأَ اللَّهُ الخَلْقَ أي خَلَقَهُم والبَرِيَّةُ: الخَلْقُ، وأَصْلُها الهمْزُ، وقد تركَت العَرَبُ هَمْزها ونظيرُهُ: النبيُّ والذُّرِّيَّةُ. وأهلُ مَكَّةَ يخالفُونَ غيرَهُم منَ العَرَب، يَهْمزُونَ البريئةَ والنَّبيءَ والذّرِّيئةَ، مِنْ ذَرَأَ اللَّهُ الخَلْقَ، وذلكَ قليلٌ. قال الفرَّاءُ: وإذا أُخذَت البَرِيَّةُ من البرَى، وهو التُّراب، فأصلها غير الهمْز. وقالَ اللحياني: أَجمَعَت العَرَبُ على ترْك هَمْز هذه الثلاثة، ولم يَستثنِ أَهلَ مكةَ. وبَرِئْتُ من المَرَضِ، وبَرَأَ المريضُ يَبْرأُ ويَبْرُؤُ بَرْءاً وبُرُوءاً، وأهلُ العَالِيَة يقولون: بَرَأْتُ أَبْرأُ بَرْءاً وبُروءاً، وأهلُ الحجازِ يقولون: بَرَأْتُ من المَرَضِ برءاً، بالفتحِ، وسائرُ العَرَبِ يقولون: بَرِئتُ مِنَ المرَضِ. وأَصْبَحَ بارِئاً مِنْ مَرَضِه وبَرِيئاً مِنْ قومِ بِراءٍ، كقولكَ صحيحاً وصِحاحاً، فذلكَ ذلك. غير أنه إنما ذهَبَ في بِراء إلى أنه جَمْعُ بَرِيءٍ. قال وقدْ يجوزُ أنْ يَكون بِراءٌ أيضاً جمْع بارِيءٍ، كَجائعٍ وجِياعٍ وصاحِبٍ وصِحاب. وقدْ أَبرأَهُ اللَّهُ مِنْ مَرَضِه إِبراءً. قال ابنُ بَرِّيّ: لم يَذكُر الجوهَري بَرَأْتُ أَبْرؤُ، بالضمِّ في المستقبل. قال: وقدْ ذكَرهُ سِيبويهِ وأَبو عثمانَ المازني

(١) لسان العرب.

وغيرُهُما مِنَ البصريين. قالَ وإنما ذكَرْتُ هذا لأنَّ بَعْضَهُم لَحَّنَ بَشار بن بُرْد في قوله:

نَـفَـرَ الحَيُّ مِنْ مَـكـانِي فقالوا: فُـزْ بصَـبْرٍ، لعَـلَّ عَيْنَكَ تبْرُو
مَسَّـهُ، مِـنْ صُـدودِ عَبْدَةَ، ضُرٌّ فـبَنَـاتُ الفُـؤَادِ مـا تستَقِرُّ

وفي حديث مَرَضِ النبيِّ قالَ العباسُ لِعَليٍّ رضِيَ اللَّهُ عنهما: كيفَ أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّه؟ قالَ: أَصْبَحَ بحَمْدِ اللَّه بارِئاً، أي معافىً، يقالُ: بَرَأْتُ مِنَ المَرَضِ أَبرَأُ بَرْءاً، بالفتح، فأنا بارِىءٌ؛ وأَبرَأَني اللَّهُ مِنَ المَرَضِ. وغيرُ أهلِ الحجازِ يقولون: برِئت، بالكسرِ؛ بُرْءاً، بالضم. ومِنْهُ قولُ عبد الرحمن بن عَوْف لأَبي بكر رضي الله عنهما: أراكَ بارئاً. وفي حديث الشُّرْب: فإنهُ أرْوَى وأبْرى؛ أي يُبرِئهُ مِنْ أَلَمِ العَطَشِ، أو أرادَ أنهُ لا يكونُ مِنْهُ مَرَضٌ، لأَنه قدْ جاءَ في حديث آخر: فإنهُ يُورِثُ الكُبادَ. قال: وهكذا يروى في الحديث أبْرى، غيرَ مَهْمُوزةٍ، لأَجلِ أرْوَى. والبَرَاءُ في المَديد: الجُزْءُ السَّالمُ مِنْ زِحَافِ المُعاقَبة. وكلُّ جزءٍ يمكن أنْ يَدْخُله الزِّحافُ كالمعاقَبة، فيَسْلَمُ منهُ، فهو بَريءٌ. الأَزهري: وأَما قولهم بَرِئْتُ من الدَّين، والرَّجُل يَبْرَأُ بَراءَةً، وبَرِئتُ إليْكَ مِنْ فلانٍ أَبْرَأُ بَرَاءَةً، فليس فيها غير هذه اللغَة. قال الأَزهري: وقد رووا بَرُأْتُ مِنَ المَرَضِ أَبْرُؤُ بُرْءاً.

قال: ولم نجدْ فيما لامه هَمْزةٌ فَعَلْتُ أَفْعُلُ. قال: وقد استقصى العلماءُ باللغةَ هذا، فلم يجدُوهُ إلا في هذا الحرْف، ثم ذكرَ قَرَأْتُ أَقْرُؤُ وهَنَأْتُ البعيرَ أهْنُؤُه. وقولهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ [التوبة: ١]، قال: في رَفعِ بَرَاءَةٌ قولان: أَحدهُما على خَبرِ الابتداء، المعنى: هذه الآياتُ براءة من الله ورسوله ، والثاني بَرَاءَةٌ ابتداءٌ والخبرُ إلى الذينَ عاهَدْتُمْ. قال: وكلا القَوْلَيْنِ حَسَنٌ. وأبرأْتُه ممَّا لي عليْه وبَرَّأْتُهُ تَبْرِئةً، وبَرِىءَ مِنَ الأَمْرِ يَبْرأُ ويَبْرُؤُ، والأخير نادرٌ، بَراءَةً، وبَراءً، الأَخيرة على اللحياني؛ قالَ وكذلكَ في الدَّينِ والعُيوبِ بَرِىءَ إليكَ مِنْ حَقِّكَ بَرَاءَةً وبَراءً وبُروءاً وتبرُّؤاً، وأَبرَأَكَ منهُ وبَرَّأَكَ. وفي التنـزيلِ العزيز: ﴿ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ﴾ [الأحزاب: ٦٩]، وأنا بَرِيءٌ

مِنْ ذلِكَ وبَراءٌ، والجمْعُ بِراءٌ مثل كَرِيمٍ وكِرامٍ، وبُرَآءُ مِثلِ فقيه وفُقَهاء، وأبراء، مثل شريف وأشراف، وأبرِياءُ، مثل نَصيب وأنْصباء، وبَرِيئون وبَراء. وقال الفارسي: البُراءُ جمعُ بَرِيء. وهو مِنْ بابِ رَخْلٍ ورُخالٍ.

وحكى الفرَّاءُ في جَمْعه: بُراء غير مصروف على حذف إحدى الهمزَتينِ. وقالَ اللحياني: أهلُ الحجاز يقولون: أنا منكَ بَراء. قال: وفي التنـــزيل العزيز: ﴿ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦]، وتَبَرَّأْتُ من كذا وأنا بَراءٌ منهُ وخَلاءٌ، لا يُثنَّى ولا يجمَع، لأنه مصدَرٌ في الأَصْل، مثل سَمِعَ سَمَاعاً، فإذا قلت: أنا بَرِيءٌ منهُ وخَلِيٌّ منه ثنَّيت وجَمَعْت وأَنَّثْت. ولغةُ تميمٍ وغيرهم مِنِ العَرَب: أنا بَرِيءٌ. وفي غيرِ موضعٍ من القرآن: إني بَرِيءٌ، والأُنثى: بَرِيئَةٌ، ولا يُقال: بَرَاءَةٌ، وهُما بَرِيئتانِ، والجمعُ بَرِيئات، وحكى اللحياني: بَرِيَّاتٌ وبَرايا كخَطايا، وأَنا البرَاءُ مِنهُ، وكذلكَ الاثنان والجمعُ المؤنث.

وفي التنـــزيل العزيز: ﴿ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦]، الأَزهري: والعَربُ تقول: نحنُ منكَ البَراءُ والخَلاءُ، والواحِد والاثنان والجْمعُ مِنَ المذكرَّ والمؤَنث يُقال: بَراءٌ لأَنهُ مصْدَر. ولو قال: بَرِيء، لقيلَ في الاثنين: بَريئانِ: وفي الجمع: بَرِيئونَ وبَراء. وقال أبو إسحاق: المعنى في البَراءِ أي ذو البَراءِ منكم، ونحنُ ذَوُو البَراءِ منكم. وزادَ الأَصمعي: نحنُ بُرَآء على فُعَلاء؛ وبراء على فِعالٍ، وأَبْرِياء؛ وفي المؤَنث: إنني بَرِيئةٌ وبَرِيئتانِ، وفي الجمْعِ بَرِيئاتٌ وبَرايا. الجوهري: رجلٌ بَرِيءٌ وبُراءٌ مثلُ عَجيبٍ وعُجابٍ. وقال ابن بَرِّي: المعروفُ في بُراءِ أنه جمعٌ لا واحِدٌ، وعليه قولُ الشاعر:

رأيتُ الحَرْبَ يجْنُبها رِجالٌ ويَصْلى، حَرَّها، قَوْمٌ براءُ

قال ومثله لزُهير:

إليْكُم إنّنا قَوْمٌ بُراءُ

ونصّ ابن جني على كونِه جَمْعاً، فقال: يجمَعُ بَرِيءٌ على أَرْبَعَةِ مِن الجُموع: بَرِيءٌ وبِراءٌ، مثل ظريفٍ وظرافٍ، وبَرِيءٌ وبُرآء، مثل شَريفٍ

وشُرَفاء، وبَرِيءٌ وأَبْرِياءُ، مثل صَديقٍ وأصدقاء، وبَرِيءٌ وبُراءٌ، مثل ما جاء مِنَ الجُموعِ على فُعالٍ نحو تُؤامٍ ورُباءٍ في جمعِ تَوْأم ورُبَّى.

ابنُ الأعرابي: بَرِئَ إذا تَخَلَّصَ، وبَرِئَ إذا تَنَزَّهَ وتباعَدَ، وبَرِئَ، إذا أَعْذَرَ وأَنْذَرَ؛ ومنه قولهُ تعالى: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ ﴾ [التوبة: ١]، أي إعْذارٌ وإنذارٌ.

وفي حديث أبي هُرَيرة ﷺ لما دعاهُ عُمَرُ إلى العَملِ فأبى، فقال عُمر: إنّ يُوسُفَ قد سأَلَ العَمَلَ. فقال: إنَّ يُوسُفَ منّي بَرِيءٌ وأنا منْه بَراء أي بَريءٌ عن مُساواتِه في الحُكْمِ وأنْ أُقاسَ به؛ ولم يُرِدْ بَراءَةَ الولايةِ والمَحَبَّة، لأنه مأمورٌ بالإيمان به، والبَراءُ والبَرِيءُ سَواءٌ. وليلةُ البَراء ليلةَ يَتَبرَّأُ القمرُ مِنَ الشمسِ، وهي أَوَّلُ ليلة من الشهر. التهذيب: البَراءُ أَوَّلُ يومٍ منَ الشهرِ، وقد أَبْرأ: إذا دخلَ في البَراءِ، وهو أَوَّلُ الشهرِ. وفي الصحاحِ البَراءُ، بالفتح: أَوَّلُ ليلة من الشهر، ولم يقل ليلةُ البَراءِ، قال:

يا عَيْنُ بَكّي مالكاً وعَبْسا، يَوْماً إذا كانَ البَراءُ نَحْسا

أي إذا لم يكن فيه مَطَرٌ، وهم يَسْتَحِبُّونَ المطرَ في آخِرِ الشهرِ؛ وجمعهُ أَبْرِئةٌ، حكي ذلك عن ثعلبٍ. قال القتيبي: آخرُ ليلة من الشهر تسمى بَراء لتَبَرُّؤِ القمر فيه من الشمس. ابن الأعرابي: يقال لآخر يوم من الشهر البَراء لأنه بَرِئَ من هذا الشهر. وابنُ البَراء: أَوَّل يوم من الشهر. ابن الأعرابي: البَراءُ من الأيامِ يَوْمُ سَعْد يُتَبَّركُ بكل ما يَحدُث فيه، وأنشد:

كان البَراءُ لَهُمْ نَحْساً فَفَرَّقَهُم ولم يَكُنْ ذاك نَحْساً مُذ سَرَى القَمَر

وقال آخر:

إنّ عَبيداً لا يَكُونُ غُسَّا كما البَراءُ لا يَكُونُ نَحْسا

أبو عمرو الشيباني: أَبْرَأَ الرَّجُل: إذا صادَف بَرِيئاً، وهو قَصَبُ السكر. قال أبو منصور: أَحْسَبُ هذا غير صحيح؛ قال: والذي أعرفه أَبْرَتْ: إذا صادَفْتَ بَرِيًّا، وهو سُكَّر الطَّبَرْزَذِ. وبارَأْتُ الرَّجل: بَرِئْتُ إليه وبَرِئَ إلَيَّ.

وبارَأْتُ شَرِيكي: إذا فارقْتَه. وبارأ المرأةَ والكَرِيَّ مُبارأةً وبراءً: صالَحَهما على الفِراق. والاستبراءُ: أن يَشْتَرِيَ الرَّجلُ جارِيةً، فلا يَطَؤُها حتى تَحِيضَ عنده حَيْضَةً ثم تَطْهُرَ؛ وكذلك إذا سَباها لَمْ يَطَأْها حتى يَسْتَبْرِئَها بحَيْضَة، ومعناهُ: طَلَبُ بَراءَتِها من الحَمْل. واسْتَبْرأْتُ ما عندك: غيرهُ. اسْتَبْرَأَ المرأَةَ: إذا لم يَطَأْها حتى تَحِيضَ؛ وكذلك اسْتَبْرَأَ الرَّحِمَ. وفي الحديث في اسْتِبْراء الجارية: لا يَمَسُّها حتى تَبْرَأَ رَحِمُها ويَتَبَيَّنَ حالها هل هي حامِلٌ أم لا. وكذلك الاسْتِبْراءُ الذي يُذْكَر مع الاسْتِنْجاء في الطَّهارة، وهو أن يَسْتَفْرِغَ بَقِيَّةَ البول، ويُنَقِّي مَوْضِعَه ومَجْراه، حتى يُبْرِئَهما منه أي يُبِينَه عنهما، كما يَبْرَأُ من الدَّين، والمَرَض. والاسْتِبْراءُ: اسْتِنقاء الذَّكَر عن البول. واسْتَبْرأ الذَّكَرَ: طَلَبَ بَراءَتَه مِن بَقيَّةِ بول فيه بتحريكه ونَتْرِه وما أَشبه ذلك، حتى يَعْلَم أنه لَمْ يَبْقَ فيه شيء. ابن الأعرابي: البَرِيءُ: المُتَفصِّي من القَبائح، المُتَنَحِّي عن الباطل والكَذِبِ، البعيدُ مِن التُّهم، النَّقيُّ القَلْبِ من الشِّرك. والبَرِيءُ الصحيحُ الجسمِ والعقلِ. والبُرْأَةُ، بالضمِّ: قُتْرةُ الصائد التي يَكْمُن فيها، والجمع بُرَأٌ. قال الأَعشى يصف الحمير:

فأَوْرَدَها عَيْناً، مِنَ السِّيف رَيَّةً، ... بها بُرَأٌ مِثْلُ الفَسِيلِ المُكَمَّمِ

قذف المحصنات [1]

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٣ - ٢٤].

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٤].

بين الله تعالى في الآية أن من قذف امرأة محصنة حرة عفيفة عن الزنا والفاحشة أنه ملعون في الدنيا والآخرة وله عذاب عظيم، وعليه في الدنيا الحد ثمانون جلدة وتسقط شهادته وإن كان عدلاً.

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»، فذكر منها قذف المحصنات الغافلات المؤمنات. والقذف أن يقول لامرأة أجنبية حرة عفيفة مسلمة: يا زانية، أو يا باغية، أو يا قحبة، أو يقول لزوجها: يا زوج القحبة، أو يقول لولدها: يا ولد الزانية أو يا ابن القحبة. أو يقول لبنتها يا بنت الزانية أو يا بنت القحبة. فإن القحبة عبارة عن الزانية، فإذا قال ذلك أحد من رجل أو امرأة لرجل أو لامرأة كمن قال لرجل: يا زاني، أو قال لصبي حر: يا علق، أو منكوح، وجب عليه الحد ثمانون جلدة، إلا أن يقيم بينة بذلك.

والبينة كما قال الله: ﴿ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ يشهدون على صدق فيما قذف به تلك المرأة أو ذلك الرجل، فإن لم يقم بينة جلد إذا طالبته بذلك التي قذفها أو إذا طالبه بذلك الذي قذفه، وكذلك إذا قذف مملوكه أو جاريته بأن قال لمملوكه: يا زاني أو لجاريته يا زانية أو يا بغيّة أو يا قحبة.

---

(١) الكبائر للإمام الذهبي -رحمه الله تعالى-.

لما ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من قذف مملوكه بالزنا يقام عليه الحد يوم القيامة إلا أن يكون كما قال**» (١).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**».

وكثير من الجهال واقعون في هذا الكلام الفاحش الذي عليهم فيه العقوبة في الدنيا والآخرة ولهذا ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب**» (٢).

فقال له معاذ بن جبل: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم لمعاذ: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم؟**» (٣).

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وفي الحديث: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»(٤).

وقال الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨].

وقال عقبة بن عامر: يا رسول الله ما النجاة؟ قال: «**أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك، وإن أبعد الناس إلى الله القلب القاسي**»(٥).

---

(١) صحيح البخاري (ح٦٨٥٨)، وصحيح مسلم (ح ١٦٦٠).
(٢) صحيح البخاري (ح٦٤٧٧)، وصحيح مسلم (ح٢٩٨٨).
(٣) حسنه الألباني –رحمه الله– في إرواء الغليل (ح٤١٣).
(٤) صحيح البخاري (ح٦٠١٨)، وصحيح مسلم (ح٤٧).
(٥) السلسلة الصحيحة للألباني –رحمه الله– (ح٨٩٠، ٨٩١).

وقال ﷺ : «**إن الله يبغض الفاحش البذيء**»[١] الذي يتكلم بالفحش ورديء الكلام، وقانا الله شر ألسنتنا بمنه وكرمه إنه جواد كريم.

عقاب الذين يرمون المحصنات [٢]

١ - قول الحافظ ابن كثير رحمه الله:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور: ٢٣-٢٥][٣].

---

(١) السلسلة الصحيحة للألباني -رحمه الله- (ح٨٧٦).

(٢) تفسير الحافظ ابن كثير -رحمه الله- تعالى.

(٣)هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات خرج مخرج الغالب فأمهات المؤمنين أولى بالدخول في هذا من كل محصنة ولاسيما التي كانت سبب النزول وهي عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما. وقد أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية فإنه كافر لأنه معاند للقرآن، وفي بقية أمهات المؤمنين قولان: أصحهما أنهن كهي والله أعلم، وقوله تعالى ﴿ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ﴾ . الآية كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ الآية. وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة رضي الله عنها فقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا عبد الله بن حراش عن العوام عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في الآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ قال نزلت في عائشة خاصة وكذا قال سعيد بن جبير ومقاتل ابن حيان وقد ذكره ابن جرير عن عائشة فقال حدثنا أحمد بن عبدة الضبي حدثنا أبو عوانة عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت: «رميت بما رميت به وأنا غافلة فبلغني بعد ذلك، قالت فبينا رسول الله ﷺ جالس عندي إذ أوحى إليه قالت: وكان إذا أوحى إليه أخذه كهيئة السبات وإنه أوحى إليه وهو جالس عندي ثم استوى جالسًا يمسح على وجهه وقال:**يا عائشة أبشري**، قالت فقلت بحمد الله لا بحمدك فقرأ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ

أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ هكذا أورده وليس فيه أن الحكم خاص بها وإنما فيه أنها سبب النزول دون غيرها وإن كان الحكم يعمها كغيرها ولعله مراد ابن عباس ومن قال كقوله والله أعلم.

وقال الضحاك وأبو الجوزاء وسلمة بن نشيط: المراد بها أزواج النبي خاصة دون غيرهن من النساء، وقال العوفي عن ابن عباس في الآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ الآية يعني أزواج النبي ﷺ رماهن أهل النفاق فأوجب الله لهم اللعنة والغضب وباءوا بسخط من الله فكان ذلك في أزواج النبي ﷺ ثم نزل بعد ذلك ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فأنزل الله الجلد والتوبة فالتوبة تقبل والشهادة ترد. وقال ابن جرير: حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنا هشيم أخبرنا العوام بن حوشب عن شيخ من بني أسد عن ابن عباس قال فسر سورة النور فلما أتى على هذه الآية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ الآية قال في شأن عائشة وأزواج النبي ﷺ وهي مهمة وليست لهم توبة ثم قرأ ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ ﴾ الآية قال فجعل لهؤلاء توبة و لم يجعل لمن قذف أولئك توبة قال فهمَّ بعض القوم أن يقوم إليه فيقبل رأسه من حسن ما فسر به سورة النور، فقوله وهي مبهمة أي عامة في تحريم قذف كل محصنة ولعنته في الدنيا والآخرة وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم هذا في عائشة ومن صنع مثل هذا أيضًا اليوم في المسلمات فله ما قال الله تعالى ولكن عائشة كانت أمًّا في ذلك. وقد اختار ابن جرير عمومها وهو الصحيح ويعضد العموم ما رواه ابن أبي حاتم حدثنا أحمد بن عبد الرحمن ابن أخي ابن وهب حدثني عمي حدثنا سليمان بن بلال عن ثور بن زيد عن أبي الغيث عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «**اجتنبوا السبع الموبقات – قيل وما هن يا رسول الله؟ قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**» أخرجاه في الصحيحين من حديث سليمان بن بلال به، وقال

الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا محمد بن عمر أبي خالد الطائي الحربي ح وحدثنا أبو شعيب الحراني حدثنا جدي أحمد بن أبي شعيب حدثني موسى بن أعين عن ليث عن أبي إسحاق عن صلة بن زفر عن حذيفة عن النبي ﷺ قال: «**قذف المحصنة يهدم عمل مائة سنة**» وقوله تعالى ﴿ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ قال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو يحيى الرازي عن عمرو ابن أبي قيس عن مطرف عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: إنهم يعني المشركين إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة قالوا تعالوا حتى نجحد فيجحدون فيختم على أفواههم وتشهد أيديهم وأرجلهم ولا يكتمون الله حديثًا وروى ابن أبي حاتم وابن جرير أيضًا حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرني عمرو بن الحارث عن دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «**إذا كان يوم القيامة عرف الكافر بعمله فيجحد ويخاصم فيقال هؤلاء جيرانك يشهدون عليك فيقول كذبوا فيقول أهلك وعشيرتك فيقول كذبوا فيقال احلفوا فيحلفون ثم يصمهم الله فتشهد عليهم أيديهم وألسنتهم ثم يدخلهم النار**» وقال ابن أبي حاتم أيضًا حدثنا أبو شيبة إبراهيم عن عبد الله بن أبي شيبة الكوفي حدثنا منجاب بن الحارث التيمي حدثنا أبو عامر الأسدي حدثنا سفيان بن عبيد المكتب عن فضيل بن عمرو عن الشعبي عن أنس بن مالك قال كنا عند النبي ﷺ فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال: «**أتدرون مم أضحك؟**» قلنا الله ورسوله أعلم قال «**من مجادلة العبد لربه يقول يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول بلى فيقول لا أجيز على إلا شاهدًا من نفسي فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيدًا وبالكرام عليك شهودًا فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقي فتنطق بعمله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول بعدًا لكن وسحقًا فعنكن كنت أناضل**» وقد رواه مسلم والنسائي جميعًا عن أبي بكر بن أبي النضر عن أبيه عن عبد الله الأشجعي عن سفيان الثوري به ثم قال النسائي لا أعلم أحدًا روى هذا الحديث عن سفيان الثوري غير الأشجعي وهو حديث غريب والله أعلم هكذا قال وقال قتادة بن آدم: والله إن عليك لشهودًا غير متهمة من بدنك فراقبهم واتق الله في سرك وعلانيتك فإنه لا يخفى عليه خافية، والظلمة عنده ضوء والسر عنده علانية فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن فليفعل ولا قوة إلا بالله. وقوله تعالى ﴿ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ ﴾ قال ابن عباس ﴿ دِينَهُمۡ ﴾ أي حسابهم وكل ما في القرآن دينهم أي حسابهم، وكذا قال غير واحد ثم إن قراءة الجمهور بنصب الحق على أنه صفة لدينهم، وقرأ مجاهد بالرفع على أنه نعت الجلالة،

قول الإمام القرطبي في الذين يرمون المحصنات

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[النور: ٢٣].

فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: ﴿ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ﴾ تقدم في «النساء»، وأجمع العلماء على أن حكم المحصنين في القذف كحكم المحصنات قياسا واستدلالا، وقد بيناه أول السورة والحمد لله.

واختلف فيمن المراد بهذه الآية، فقال سعيد بن جبير: هي في رماة عائشة رضوان الله عليها خاصة.

وقال قوم: هي في عائشة وسائر أزواج النبي ﷺ، قاله ابن عباس والضحاك وغيرهما. ولا تنفع التوبة. ومن قذف غيرهن من المحصنات فقد جعل الله له توبة، لأنه قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ۝٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ ﴾ فجعل الله لهؤلاء توبة، ولم يجعل لأولئك توبة؛ قاله الضحاك. وقيل: هذا الوعيد لمن أصر على القذف ولم يتب. وقيل: نزلت في عائشة، إلا أنه يراد بها كل من اتصف بهذه الصفة. وقيل: إنه عام لجميع الناس القذفة من ذكر وأنثى، ويكون التقدير: إن الذين يرمون الأنفس المحصنات؛ فدخل في هذا المذكر والمؤنث، واختاره النحاس.

وقيل: نزلت في مشركي مكة، لأنهم يقولون للمرأة إذا هاجرت إنما خرجت لتفجر.

=

وقرأها بعض السلف في مصحف أبي بن كعب: يومئذ يوفيهم الله الحق دينهم. وقوله ﴿ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴾ أي وعده ووعيده وحسابه هو العدل الذي لا جور فيه.

الثانية: ﴿ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ قال العلماء: إن كان المراد بهذه الآية المؤمنين من القذفة فالمراد باللعنة الإبعاد وضرب الحد واستيحاش المؤمنين منهم وهجرهم لهم، وزوالهم عن رتبة العدالة والبعد عن الثناء الحسن على ألسنة المؤمنين، وعلى قول من قال: هي خاص لعائشة تترتب هذه الشدائد في جانب عبد الله بن أبيٍّ وأشباهه. وعلى قول من قال: نزلت في مشركي مكة فلا كلام، فإنهم مبعدون، ولهم في الآخرة عذاب عظيم؛ ومن أسلم فالإسلام يجبُّ ما قبله.

وقال أبو جعفر النحاس: من أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية إنه عام لجميع الناس القذفة من ذكر وأنثى؛ ويكون التقدير: إن الذين يرمون الأنفس المحصنات، فدخل في هذا المذكر والمؤنث، وكذا في الذين يرمون؛ إلا أنه غلب المذكر على المؤنث.

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤].

قراءة العامة بالتاء، واختاره أبو حاتم. وقرأ الأعمش ويحيى وحمزة والكسائي وخلف «يشهد» بالياء، واختاره أبو عبيد، لأن الجار والمجرور قد حال بين الاسم والفعل، والمعنى: يوم تشهد ألسنة بعضهم على بعض بما كانوا يعملون من القذف والبهتان. وقيل: تشهد عليهم ألسنتهم ذلك اليوم بما تكلموا به. ﴿ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم ﴾ أي وتتكلم الجوارح بما عملوا في الدنيا.

قوله تعالى:﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور: ٢٥].

أي حسابهم وجزاؤهم. وقرأ مجاهد «يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق» برفع «الحق» على أنه نعت لله عز وجل. قال أبو عبيد: ولولا كراهة خلاف الناس لكان الوجه الرفع ليكون نعتا لله عز وجل، وتكون موافقة لقراءة أبي، وذلك أن جرير بن حازم قال: رأيت في مصحف أبي «يوفيهم الله الحق دينهم». قال

النحاس: وهذا الكلام من أبي عبيد غير مرضي؛ لأنه احتج بما هو مخالف للسواد الأعظم، ولا حجة أيضًا فيه لأنه لو صح هذا أنه في مصحف أبي كذا جاز أن تكون القراءة: يومئذ يوفيهم الله الحق دينهم، يكون «دينهم» بدلا من «الحق» وعلى قراءة العامة «دينهم الحق» يكون «الحق» نعتا لدينهم، والمعنى حسن؛ لأن الله عز وجل ذكر المسيئين وأعلم أنه يجازيهم بالحق؛ كما قال الله عز وجل: ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سبأ: ١٧]؛ لأنّ مجازاة الله عز وجل للكافر والمسيء بالحق والعدل، ومجازاته للمحسن الإحسان والفضل. (ويعلمون أن الله هو الحق المبين) اسمان من أسمائه سبحانه. وقد ذكرناهما في غير موضع، وخاصة في الكتاب الأسنى.

الفصل الثاني

ذِكرُ عائشة رضي الله عنها

- التعريف بأم المؤمنين السيدة عائشة عليها السلام.
- التعريف بالصديق أبي بكر الصديق عليه السلام.
- أقوال علماء التفسير في حديث الإفك.
- براءة أم المؤمنين رضي الله عنها.



السيدة عائشة أم المؤمنين عليها السلام [1]

نسبها:

عائشة بنت أبي بكر (عبد الله) بن أبي قحافة (عثمان) بن عامر بن عمرو ابن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي، فاجتمعت معه ﷺ في «**مُرة**» [2].

وقد تزوج أبو بكر أربعًا من النساء.

الأولى: قتيلة بنت عبد العزى: تزوجها صدر شبابه، فولدت له عبد الله وأسماء، وطلقها في الجاهلية.

الثانية: أم رومان: واسمها «زينب» وقيل «دعد» بنت عامر بن عويمر بن عبد شمس من بني مالك بن كنانة. أسلمت وبايعت وهاجرت، وتوفيت في عهد النبي ﷺ بالمدينة في الحجة سنة ست من الهجرة، وولدت له عبد الرحمن وعائشة أم المؤمنين [3].

الثالثة: أسماء بنت عميس: أسلمت قديمًا، وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب وقدمت معه المدينة، فلما استشهد في غزوة مؤتة تزوجها أبو بكر، فولدت له محمد بن أبي بكر يوم خروج الرسول ﷺ لحجة الوداع [4].

الرابعة: حبيبة: ابنة خارجة بن زيد من بني الحارث من الخزرج، وهو الذي آخى النبي ﷺ بين أبي بكر وبينه، تزوجها في أخريات حياته، ومات عنها وهي حامل، فولدت له بعد موته «أم كلثوم».

لقد أنفق أبو بكر في سبيل الدعوة نحو أربعين ألف درهم بمكة وهي جل ما وفره من ربح تجارته، وحمل معه إلى المدينة، وعمل هو وأولاده في الزراعة في

---

(١) كتاب أزواج النبي ﷺ للدكتور/ موسى شاهين لاشين وكتابنا البشير النذير.
(٢) الزرقاني جـ٣ ص٢٢٩.
(٣) الطبقات الكبرى: مجلد ٨ ص ٢٧٦.
(٤) الطبقات الكبرى: مجلد ٨ ص ٢٨٢.

أراضي الأنصار مزارعة.

وبقيت مكانته من رسول الله ﷺ مكانة الصاحب الوفي والصديق والوزير؛ روى البخاري قول رسول الله ﷺ **«لو كنت متخذًا خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلا، ولكن أخوة الإسلام ومودته»** [(١)].

سن عائشة عند الزواج:

من أجل هذه الصلة القوية، ورغبة في توثيقها، ووفاء للمعروف لم يتردد رسول الله ﷺ في قبول عائشة زوجا حين عرضتها عليه خولة بنت حكيم.

كان يعرفها جيدًا، فقد روي عنها قولها: ما عقلت أبوي إلا وهما يدينان الدين، وما مر علينا يوم قط إلا ورسول الله ﷺ يأتينا فيه بكرة وعشيا[(٢)]. لقد كان سنها يوم عرضت عليه لم تتجاوز السابعة، فقد ذكر ابن حجر في الإصابة أنها ولدت بعد المبعث بأربع سنين أو خمس، وتزوجها ﷺ وهي بنت ست، وقيل: بنت سبع. ويجمع بينهما بأنها كانت أكملت السادسة ودخلت في السابعة، ودخل بها وهي بنت تسع سنين[(٣)]. ففي الصحيح عنها: تزوجني رسول الله ﷺ وأنا بنت ست سنين، وبنى بي وأنا بنت تسع سنين، وقبض وأنا بنت ثمان عشرة سنة. ا هـــ.

وهذا الحديث قد رواه الشيخان، ويكاد العلماء يجمعون على أنه عقد عليها و لم تتجاوز السابعة والخلاف بينهم في كونه تم في السادسة أو في السابعة، والجمهور على أنه ﷺ بنى بها بعد الهجرة بسبعة أشهر أو ثمانية، وضعفوا القول بأنه بنى بها في شوال سنة اثنتين من الهجرة على رأس ثمانية عشر شهرًا، فإنه يؤدي إلى أنها كانت بنت عشر سنين ونصف سنة يوم دخل عليها ﷺ .

قال الزرقاني في شرحه للمواهب: وهذا القول يخالف ما ثبت من أنه دخل

---

(١) فتح الباري، جـــ٧، ص١٠.

(٢) رواه البخاري وذكره في فتح الباري، جـــ٤ ص٣١٨.

(٣) الإصابة، جـــ٨ ص١٣٩.

بها بعد خديجة بثلاث سنين[1].

في هذا العرض نرى شبه إجماع على صغر سنها، ولهذا أطال بعض المستشرقين القول فيما وصفوه بأنه الجمع الغريب بين الزوج الكهل والطفلة الغريرة العذراء.

وحاول بعض الكتاب - مشكورين - أن يدافعوا عن هذا الزواج، فقالوا: هذا الزواج شغل بعض المؤرخين لمحمد ﷺ ينظرون إليه من وجهة نظر المجتمع العصري الذي يعيشون فيه، فلم يقدروا أن زواجًا مثل ذلك كان ولا يزال عادة آسيوية، ولم يفكروا في أن هذه العادة ما زالت قائمة في شرق أوربا، وكانت طبيعية في أسبانيا والبرتغال إلى سنين قليلة، وأنها ليست غير عادية اليوم في بعض المناطق الجبلية البعيدة بالولايات المتحدة (بودلي صحيفة ١٢٩).

وتقول بنت الشاطئ: فهل ينكرون أن يكون زواج بين صبية في سنها وبين رجل اكتهل وبلغ الثالثة والخمسين؟ وأي عجب في مثل هذا؟ لقد تزوج «عبد المطلب» الشيخ من «هالة بنت عم آمنة في اليوم الذي تزوج فيه أصغر أبنائه من ترب هالة» «آمنة بنت وهب» وتزوج عمر بن الخطاب من بنت علي ابن أبي طالب وهو في سن جدها، وعرض «عمر» على «أبي بكر» أن يتزوج ابنته الشابة «حفصة» وبينهما من فارق السن مثل الذي بين رسول الله ﷺ وعائشة[2].

وينكر الأستاذ العقاد هذه السن رأسًا فيقول: أقرب الأقوال إلى الصدق وأحراها بالقبول أنها ولدت في السنة الحادية عشرة، أو الثانية عشرة قبل الهجرة فتكون قد بلغت الرابعة عشرة من عمرها، أو قاربتها يوم بنى بها الرسول عليه الصلاة السلام ثم يقول: والأرجح عندنا أن السيدة عائشة كانت لا تقل عند زفافها إلى النبي ﷺ عن الثانية عشرة، ولا تتجاوز الخامسة عشرة بكثير، فقد

---

(١) الزرقاني، جـ٣ ص٢٣٠.
(٢) نساء النبي ﷺ، ص٦٠، ٦٢.

جاء في بعض المواضع في طبقات ابن سعد أنها خطبت وهي في التاسعة أو السابعة، ولم يتم الزفاف - كما هو معلوم - إلا بعد فترة بلغت خمس سنوات في أشهر الأقوال، ويؤيد هذا الترجيح أن السيدة خولة بنت حكيم اقترحتها وهي في السن المناسبة للزواج على أقرب التقديرات إلى القبول، إذ لا يعقل أنها تشفق من حالة الوحدة التي دعتها إلى اقتراح الزواج على النبي ﷺ وهي تريد له أن يبقى في تلك الحالة أربع سنوات، أو خمس سنوات أخرى، ويؤيد هذا الترجيح من غير هذا الجانب أن السيدة عائشة كانت مخطوبة قبل خطبتها إلى النبي ﷺ ، وأن الخطبة التي كانت في نحو السنة العاشرة للدعوة، قال فإما أن تكون قد خطبت لجبير بن مطعم لأنها بلغت سن الخطبة وهي قرابة التاسعة أو العاشرة - وبعيد جدًا أن تنعقد الخطبة على هذا التقدير مع افتراق الدين بين الأسرتين - وإما أن تكون قد وعدت لخطبتها وهي وليدة صغيرة كما يتفق أحيانًا بين الأسر المتآلفة، وحينئذ يكون أبو بكر مسلمًا عند ذلك، ويستبعد جدًا أن يعد بها فتى على دين الجاهلية قبل أن تتفق الأسرتان على الإسلام، فإذا كان أبو بكر ﷺ قد وعد بها ذلك الموعد قبل إسلامه فمعنى ذلك أنها ولدت قبيل الدعوة، وكانت تناهز العاشرة يوم جرى حديث زواجها وخطبها النبي عليه الصلاة والسلام.

ولهذا نرجح أنها كانت بين الثانية عشرة والخامسة عشرة يوم زفت إليه، وأنها هي رضي الله عنها ما كانت تسع تقديرات سنها ممن كان حولها، لأنها لم تقرأ بداهة في وثيقة مكتوبة، فكان يعجبها -على سنة الأنوثة الخالدة - أن تأخذ بأصغرها وكانت هي كثيرًا ما تدل بالصغر بين أترابها، فلا تنسى إذا اقتضى الحديث ذلك أن تقول: «وكنت يومئذ جارية حديثة السن، أو كنت يومئذ صغيرة لا أحفظ شيئًا من القرآن»، إلى أشباه ذلك من أحاديثها في هذا المعنى.

ذلك هو التقدير الراجح الذي ينفي ما تقوّله المستشرقون على النبي ﷺ بصدد زواجه بعائشة في سن الطفولة الباكرة، وكل تقدير غير ذلك فهو تقدير

مرجوح. انتهى بالنص من كتاب «الصديقة بنت الصديق للأستاذ عباس محمود العقاد»[1]، والأستاذ العقاد تجنى على الحقائق العلمية من حيث الدفاع عنها من عدة وجوه.

أولاً: قوله: أقرب الأقوال إلى الصدق «يوهم أن القول الذي ذكره».

ثانيًا: قوله «ولم يتم الزفاف – كما هو معلوم – إلا بعد فترة بلغت خمس سنوات في أشهر الأقوال»، ينافي ما سبق بيانه من أن الثابت أنه ﷺ دخل بعائشة بعد خديجة بثلاث سنين.

ثالثًا: رتب على ذلك استبعاد أن تريد خولة بقاءه ﷺ وحيدًا فترة الخطبة الطويلة التي امتدت خمس سنوات، مع أن ما سماه أشهر الأقوال لم يوجد ولا في أضعف الأقوال.

رابعًا: تردد بين أن تكون خطبتها لجبير بن مطعم بعد بلوغها سن الخطبة وهي التاسعة أو العاشرة، وبين أن تكون قد وعدت لخطيبها وليدة صغيرة، واستبعد جدًا على الأول أن تنعقد الخطبة مع افتراق الدين بين الأسرتين، ومع أننا لا نقول إطلاقًا بهذا الاحتمال، فإن ما استبعده ليس ببعيد، لأن اختلاف الدين لم يكن مانعًا من الخطبة والنكاح وقتذاك.

والشيء الثاني: وهو كونها وعدت لجبير، وهي وليدة صغيرة – فقال: إن كان أبو بكر قد وعد بها قبل إسلامه فمعنى ذلك أنها ولدت قبيل الدعوة، وكانت تناهز العاشرة يوم جرى حديث زواجها، وخطبها النبي ﷺ ، ومعلوم أننا لا نقول بهذا الاحتمال، ولا بما يترتب عليه، لأنه لا سند له.

واستبعد جدًا أن يعد بها – وهي صغيرة – فتى على دين الجاهلية قبل أن تتفق الأسرتان على الإسلام، ولا يخفى على الأستاذ العقاد أن تحريم نكاح المشركات وإنكاح المشركين لم يكن بمكة، فقوله تعالى:﴿ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ ﴾ [الممتحنة: ١٠] وقوله ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ

(١) الصديقة بنت الصديق، ص٦٤.

مُؤۡمِنَةٌ خَيۡرٌ مِّن مُّشۡرِكَةٍ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٌ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٌ مِّن مُّشۡرِكٍ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢] نزل ذلك بالمدينة بلا خلاف بين المفسرين.

ولو أن الإسلام منع إنكاح المشركين، والنكاح منهم منذ نشأته لوضع أهله في حصار اجتماعي رهيب، لكنه غزا الكفار في عقر دارهم، ودخل عليهم مع الأزواج والزوجات، فعرفوا فطرته عن كثب، وأحسوا صفاءه عن قرب، فدخلوا في دين الله جماعات ووحدانا.

ثم ماذا يقول الأستاذ العقاد في «أم كلثوم» بنت رسول الله ﷺ ، وقد ولدت قبل النبوة بست سنين، وقيل: بخمس، ومع ذلك زوجها رسول الله ﷺ عتيبة بن أبي لهب رأس المشركين.

خامسًا: والأستاذ العقاد: يعتمد على الاستبعاد العرفي ويهدر فروق العصر والإقليم ويضرب بالأحاديث الصحيحة عرض الحائط، مع أن هذه الأمور موردها النقل، والمعول عليه فيها الإسناد والرواية.

وسأذكر من الأحاديث الصحيحة في هذا الفصل ما يعجز الأستاذ العقاد عن ردها ولو راجع الطبقات الكبرى المجلد الثامن صحيفة ٥٨، ٥٩، ٦٠، ٦١، لوجد اثنتي عشرة رواية وكلها تجمع على السن التي ذكرتها.

والرواية التي يقول عنها، جاء في بعض المواضع في طبقات ابن سعد أنها خطبت وهي في التاسعة أو السابعة وجدتها في صحيفة ٦١ المجلد الثامن بلفظ «نكح» لا بلفظ «خطب» ولا يخفى على الأستاذ العقاد الفرق الكبير بين اللفظين وهو بعد هذا يتهم السيدة عائشة بأنها كانت تسمع تقديرات سنها ممن كان حولها، فتأخذ بأصغرها، جريًا على سنة الأنوثة الخالدة، التي تدل بالصغر.

فليحدثنا عن التقديرات التي سمعتها، وممن سمعتها؟ إن الأحاديث التي اتفقت على سنها المذكور، قد رويت ببعض من أبيها وأهلها، وممن يعلم حقيقة سنها من الصحابة، وهم لا تخدعهم سنة الأنوثة، ولا يخافون في الله لومة لائم

فلو كان الأمر كما يدعي، لكذبوها وصححوا لها فهمها.

ولا يفوتني أن أنبه إلى أنه لم يرد في أي من الروايات المتعددة قول عائشة «وكنت يومئذ صغيرة لا أحفظ شيئًا من القرآن»، كما ذكر الأستاذ العقاد، فإنها منذ عقلت تحفظ كثيرًا من القرآن، وإنما الذي ورد في حديث الإفك أنها لم تكن تحفظ سورة يوسف، أو أنها التمست اسم يعقوب أبي يوسف فلم تقدر عليه.

سادسًا وأخيرًا: ناقض الأستاذ العقاد نفسه إذ قال في كتابه «عبقرية محمد» ما نصه: فعائشة البكر التي لم يتزوج النبي ﷺ بكرًا غيرها قد مات عنها عليه السلام وهي دون العشرين، وهي سن قد تبلغها المرأة ولا تلد وإن كانت ولودا. ا هـ [1].

فلو أنه ﷺ تزوجها في السنة الأولى للهجرة ولها من العمر كما يقول- أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة، فكيف تكون عند وفاته ﷺ دون العشرين؟

«أما بعد» فمع تقديري لدفاع الكاتبين عن هذا الزواج فإني لا أجد باعثًا لخوض المستشرقين فيه. إن كان فارق السن فما أكثر حدوثه في هذه الأيام حتى بين المستشرقين أنفسهم، وإن كان صغر سن الزوجة إلى هذا الحد فلولا القانون المدني الذي حدد سن الزوجة في هذا العصر لرأيناه شائعًا بيننا، بل مع قيام القانون نجده واقعًا من الذين يتحايلون على القوانين.

إن هدف القانون من وراء حماية الصحة والنسل والمنع من الإضرار، فهل شكت «عائشة» من ضرر لحقها من وراء ذلك؟ أم كانت تعتز وتفتخر هي به؟

وهل شكى أبوها من التغرير بابنته، أم هو الذي دفع رسول الله ﷺ إلى الدخول عليها بقوله: ما يمنعك اليوم من البناء بأهلك يا رسول الله؟ بل وأقرضه مهر ابنته.

---

(١) عبقرية محمد، ص١٦٢.

إن المستشرقين يستنكرون هذا السن لأنها شجى في حلوقهم، لأنها تبعد أن يكون مثل هذا الزواج شهوانيًا، وهم يرمون الرسول بالجري وراء الملذات، لأنها تجعل هدف هذا الزواج إنسانيًا مثاليًا ساميًا وهم يريدون وصمه بالدناءة والانحطاط. حاش لله ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [الصف: ٨١].

خطبتها رضي الله عنها وزواجها:

روى الإمام أحمد والطبراني برجال ثقات عن عائشة «أن خولة بنت حكيم جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: ألا تتزوج؟ قال: **من؟** قالت: إن شئت بكرًا وإن شئت ثيبًا. أما البكر فابنة أحب الخلق إليك عائشة، وأما الثيب فسودة بنت زمعة قد آمنت بك. قال: **اذهبي فاذكريهما علي**» [١].

وروى البخاري عن عروة أن النبي ﷺ خطب عائشة إلى أبي بكر. فقال له أبو بكر: إنما أنا أخوك، فقال: أنت أخي في دين الله وكتابه، وهي حلال لي[٢] - يشير أبو بكر إلى تحريم نكاح بنت الأخ، ورد الرسول يشير إلى قوله تعالى: (إنما المؤمنون إخوة).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ : «**أريتك في المنام مرتين. إذا رجل يحملك في سرقة من حرير** - أي شقة من حرير - **فيقول: هذه امرأتك، فأكشفها فإذا هي أنت، فأقول: إن يكن هذا من عند الله يمضه**». أخرجه الشيخان والترمذي[٣].

وكانت: عائشة «قبل خطبة الرسول لها مذكورة على جبير بن مطعم بن عدي[٤]، ولم يكن الرسول يعلم ذلك، وما كان أبو بكر ليخلف وعده قط،

---

(١) فتح الباري، جـ٧ ص١٦٠.
(٢) فتح الباري جـ٩ ص٩٧.
(٣) فتح الباري، جـ٧ ص ١٥٩.
(٤) الطبقات الكبرى، مجلد ٨ ص ٥٨.

لكن شاء الله أن يدخل أبو بكر على مطعم، وعنده امرأته «أم جبير» وكانت مشركة، فقالت: يا ابن أبي قحافة. لعلنا إن زوجنا ابننا ابنتك أن تصبه وتدخله في دينك الذي أنت عليه فلم يرد عليها أبو بكر، ونظر إلى زوجها «المطعم» فقال: ما تقول هذه؟ فأجاب، إنها تقول الذي سمعت. فخرج أبو بكر وقد شعر بارتياح لما أحله الله من وعده، ودعا رسول الله ﷺ ، فزوجه عائشة»(١).

ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة خلف بناته وخلف أولاد أبي بكر فلما وصل المدينة بعث إليهم زيد بن حارثة، وبعث معه أبا رافع مولاه، وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم، أخذها رسول الله ﷺ من أبي بكر يشتريان بها ما يحتاجان إليه من المظهر، وبعث أبو بكر معهما عبد الله بن أريقط ببعيرين أو ثلاثة، وكتب إلى عبد الله بن أبي بكر يأمره أن يحمل أهله، «أم رومان وعائشة وأختها أسماء امرأة الزبير، فخرجوا مصطحبين، فلما انتهوا إلى قديد اشترى زيد بن حارثة بتلك الخمسمائة ثلاثة أبعرة، ثم رحلوا من مكة جميعًا، وصادفوا طلحة بن عبد الله يريد الهجرة بآل أبي بكر، فخرجوا جميعًا وخرج زيد بن حارثة وأبو رافع بفاطمة وأم كلثوم وسودة بنت زمعة، وحمل «زيد» أم أيمن وأسامة بن يزيد. تقول عائشة: حتى إذا كنا بالبيض من منى نفر بعيري وأنا في محفة معي فيها أمي فجعلت أمي تقول: وابنتاه، واعروساه، فسلم الله عز وجل، ثم إنا قدمنا المدينة، فنـــزلت مع عيال أبي بكر».

وكان أبو بكر قد نزل بالسنح في عوالي المدينة، ونزل أولاده دارًا له بالمدينة بجوار المسجد. ومكثت عائشة في منـــزل أبي بكر حتى بنى رسول الله ﷺ مسجده وبيتين بجواره، تقول عائشة: ثم قال أبو بكر: يا رسول الله، ما يمنعك من أن تبني بأهلك؟ قال رسول الله ﷺ : **الصداق** . فأعطاه أبو بكر الصداق اثنتي عشرة أوقية ونصفا، فبعث بها رسول الله ﷺ إلينا (٢).

---

(١) السيرة الحلبية، جـــ ١ ص٤٦٤.
(٢) الطبقات الكبرى، مجلد ٨ ص ٦٢.

وتصف عائشة بناء الرسول ﷺ بها فتقول «قدمنا المدينة فنــزلنا في بني حارث بن الخزرج فوعكت (أي حميت) فتمزق شعري (أي نشف) ثم نصلت من الحمى فتربى الشعر (فوقي) وكثر فأتتني أم رومان وإني لفي أرجوحة (وهي المرجيحة المعروفة التي يلعب بها الصغار) ومعي صواحب لي، فصرخت بي فأتيتها، لا أدري ما تريد بي، فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار وإني لأنهج حتى سكن بعض نفسي، ثم أخذت شيئًا من ماء فمسحت به وجهي ورأسي، ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار في البيت فقلن على الخير والبركة، وعلى خير طائر فأسلمتني إليهن، فأصلحن من شأني، فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ ضحى، فأسلمتني إليه، وأنا يومئذ بنت تسع سنين». رواه الشيخان[١].

وفي رواية لأحمد عن عائشة «وبنى بي رسول الله ﷺ في بيتنا، لا والله ما نحرت علي جزور، ولا ذبحت من شاة، ولكن جفنة كان يبعث بها سعد بن عبادة إليه ﷺ »[٢].

وعند أحمد أيضًا عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: كنت صاحبة عائشة التي هيأتها وأدخلتها عليه ﷺ ، فو الله ما وجدنا عنده قرى إلا قدحا من لبن، فشرب ثم ناوله عائشة، فاستحيت، فقلت: لا تردي يد رسول الله ﷺ . خذي منه، فأخذته على حياء فشربت، ثم قال: **ناولي صواحبك**. فقلن لا نشتهيه، فقال: **لا تجمعن جوعًا وكذبًا**، فقلت: يا رسول الله. إنا إذا قلنا لشيء، نشتهيه، لا نشتهيه، يعد ذلك كذبًا؟ قال: إن الكذب يكتب كذبا حتى تكتب الكذيبة كذبا»[٣].

وانتقلت عائشة إلى بيتها الجديد الذي أعده لها رسول الله ﷺ بجوار

---

(١) فتح الباري، جـ٧ ص١٥٩.
(٢) الزرقاني، جـ٣ ص٢٣١.
(٣) الزرقاني، جـ٣ ص٢٣٢.

المسجد وهو البيت الذي توفي ودفن فيه ﷺ، وتركها الرسول الكريم على سجيتها تلعب بالعرائس في بيت زوجها كما كانت تلعب بهن في بيت أبيها وأمها فقد روى مسلم أنها رضي الله عنها زفت إليه وهي بنت تسع سنين، ولعبتها معها.

وروى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت ألعب بالبنات عند رسول الله ﷺ ، وكانت تأتيني صواحبي، فيتقمعن - أي يستترن - من رسول الله ﷺ وكان يسربهن - أي يردهن إلي - فيلعبن معي - قال الحافظ ابن حجر: البنات هي التماثيل التي تلعب بها البنات الصغيرات. ا هـ.

وكم كانت تدعو لداتها ليلعبن معها في غيبة الرسول ﷺ ، فيضربن الدفوف، ويجتمعن للغناء، فإذا فاجأهن ﷺ أمسكن حياء منه وخوفًا، فيضحك لهن، ويصرف وجهه عنهن.

روى البخاري عن عائشة قالت: «دخل علي رسول الله ﷺ ، وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث، فاضطجع على الفراش، وحول وجهه، وجاء أبو بكر فانتهرني، وقال: مزمارة الشيطان في بيت رسول الله ﷺ ؟ فقال: **دعهما**، فلما غفل غمزتهما فخرجتا، قالت: وكان يوم عيد».

وأخرج الشيخان عنها قالت: «كان يوم عيد، يلعب فيه السودان بالدرق والحراب، فإما سألت رسول الله ﷺ ، وإما قال: **أتشتهين تنظرين؟** قلت: نعم: فأقامني وراءه، خدي على خده، حتى إذا مللت قال: **حسبك؟** قلت: نعم، قال: **فاذهبي**»[1].

كان يحدث مثل هذا في بواكير زواجها، وما كانت لتبقى في لهو الحداثة وهي في عشرة الرسول ووقاره، وفي بيت النبوة والهدى، فأخذت تشتغل بالحق والقرآن والدين.

---

(١) فتح الباري، جـ٦ ص٣٥٦.

وصفها رضي الله عنها:

جملة ما يفهم من أوصافها أنها كانت بيضاء، لأن الرسول ﷺ كان يلقبها بالحميراء، وكانت أقرب إلى الطول، لأنها كانت تعيب القصر وكانت في صباها نحيلة أو أقرب إلى النحول حتى كان الذين يحملون هودجها خاليًا يحسبونها فيه ثم مالت بعد سنوات إلى شيء من السمنة جاء في كلامها«خرجت مع النبي ﷺ في بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم فقال ﷺ للناس: **تقدموا**. فتقدموا، ثم قال: تعالي حتى أسابقك، فسابقه فسبقته، فسكت، حتى إذا حملت اللحم وكنا في سفرة أخرى قال ﷺ للناس: **تقدموا**، فتقدموا، ثم قال: **تعالي أسابقك**، فسابقته فسبقني، فجعل ﷺ يضحك ويقول: **هذه بتلك**»، رواه أبو داود والنسائي. أما بنت الشاطئ: فتتخيل وصفها بوحي من أنوثتها فتقول: كانت عائشة عروسًا حلوة ذات عينين واسعتين وشعر جعد ووجه مشرق مشرب بحمرة. ا هـ.

حب الرسول ﷺ لها:

وأيًا ما كان وصفها وجمالها فإنه لم يكن السبب في حب الرسول ﷺ لها، فقد كانت زينب بنت جحش جميلة في سن الثلاثين، ولم تحظ بهذا الحب، وكانت «جويرية» جميلة في سن العشرين، ومع ذلك لم تنل كثيرًا من حظوة الرسول ﷺ .

لكن حب عائشة كان كبيرًا وقويًا في نفس النبي ﷺ حتى إنه كان إذا خرج لسفر أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج معها، فكان إذا خرج سهم غير عائشة عرف فيه الكراهية، وحتى إن الصحابة عرفوا ذلك الحب فتحروا بهداياهم يوم عائشة، وحتى وهبت سودة ليلتها لعائشة تبتغي بذلك مرضاة رسول الله ﷺ ، وحتى أخذ يسأل في مرضه الذي مات فيه:«**أين أنا غدًا؟ أين أنا غدًا**[1]؟» يتشوف إلى يوم عائشة، وعرف أزواجه رغبته، فأذن له أن يكون حيث شاء، فكان في بيتها حتى مات عندها.

---

(١) فتح الباري، جـ٩ ص٢٥٥.

حياتها في عهد أبي بكر:

اجتمع نساء النبي ﷺ عند عائشة بعد وفاته، وأردن أن يبعثن عثمان إلى أبي بكر ﷺ يسألنه ميراثهن، فقالت عائشة: أليس قال رسول الله ﷺ: **«لا نورث ما تركنا صدقة؟»**

ووهب أبو بكر عائشة أرضًا بالعالية كان النبي ﷺ أعطاه إياها، فأصلحها وغرس فيها، ثم جعلها لابنته أم المؤمنين، وعاشت عائشة كما كانت مع الرسول ﷺ زاهدة فيما تحت يدها من مال، فكانت تأمر بإنفاقه في سبيل الله، ولا تأنف ترقيع ثوبها وأكل الخشن من الطعام.

وفرض عمر لأمهات المؤمنين عشرة آلاف، وزاد عائشة ألفين، وقال إنها حبيبة رسول الله ﷺ [١].

وطلب أزواج الرسول ﷺ من عمر أن يحججن، فمنعهن الحج والعمرة حتى إذا كان آخر عام لعمر أذن لهن، وبعث معهن عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف وكان عثمان يسير أمامهن وينادي: ألا لا يدنو أحد منهن، ولا ينظر إليهن وهن في الهوادج على الإبل، فإذا نزلن أنزلهن بصدر الشعب (أوله ومقدمته) فلم يصعد إليهن أحد [٢].

وكان عمر أحب خليفة إلى عائشة رضي الله عنها، سرت صداقة الأبوين أبي بكر وعمر إلى بنتيهما، فكانت عائشة وحفصة أصدق صديقتين، تتفقان وتتكاشفان كلما وقع الخصام في بيت النبي ﷺ، وحفظت له أجمل الشكر لموقفه من حديث الإفك، وتم هذا الشكر حتى ولي الخلافة فرعى لها المكانة الأولى بين أزواج النبي ﷺ ، وقابلت هذا الجميل بالجميل، فحينما استأذنها في الدفن مع صاحبيه في حجرتها، قالت: كنت أريد هذا المكان لنفسي فلأوثرن عمر اليوم على نفسي، وأذنت له رضي الله عنها وعنه وعن الصحابة أجمعين..

---

(١) الطبقات الكبرى: مجلد ٨ ص ٦٧.
(٢) الطبقات الكبرى مجلد ٨ ص ٢٠٩.

موقفها من عثمان رضي الله عنهما:

ولما توفي عمر، وولي عثمان سار مع أمهات المؤمنين بسيرة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فقد اجتمعت عائشة وأم سلمة وميمونة وأم حبيبة، فأرسلن إلى عثمان يستأذنه في الحج، فقال: فقد كان عمر بن الخطاب فعل ما رأيتن، وأنا أحج بكن كما فعل عمر، فمن أراد منكن الحج فأنا أحج بها، قالت عائشة، فحج بنا «عثمان» جميعًا إلا امرأتين منا، زينب توفيت في خلافة عمر، ولم يحج بها عمر وسودة بنت زمعة لم تخرج من بيتها بعد النبي ﷺ [١].

وحدث ما عكر الصفو بين الخليفة وعائشة أم المؤمنين، فقد شاع النقد والسخط من ولاة عثمان وحواشيه، ولجأ الناس إلى عائشة، كما لجأوا إلى كبار الصحابة يشكون ولم تتعود عائشة أن تكون غفلاً في بيتها، وإنما تعودت أن يؤبه لها، وأن تبدي رأيها وأن يقدر لها قدرها، فطلبت من عثمان أن ينصفهم، وطلب كبار الصحابة من الخليفة أن يعزل عبد الله بن أبي السرح، وأن يولي مكانه محمد بن أبي بكر، ووافق الخليفة على ذلك.

ووقعت الطامة الكبرى، إذ عثر في طريق مصر على غلام يحمل كتابًا في أنبوبة من رصاص، وفيه من عثمان بن عفان خليفة المسلمين إلى عبد الله بن أبي السرح، سلام عليك، أما بعد: فإنه إذا أتاك محمد بن أبي بكر ومن معه، فاحتل في قتلهم، وأبطل كتابه، وقر على عملك حتى يأتيك رأيي في ذلك إن شاء الله.

ومن المحقق أن الخليفة نفسه بريء من هذه الدسيسة التي يتورع عنها مثله في بره وتقواه، فإن الرجل الذي تورع عن إراقة قطرة دم في سبيل الدفاع عن حياته والخطر محدق به من جميع جهاته لن يأمر بسفك دم ابن صديقه الصديق، ولا ذنب له إلا أن الشاكين ندبوه للولاية حين سألهم عمن يختارونه.

والرأي الراجح: أن هذا العمل الخبيث كان من تدبير بعض أفراد الحاشية

---

(١) الطبقات الكبرى مجلد ٨ ص٢٠٩.

على غير علم من عثمان.

لقد أثر هذا الكتاب في نفوس الصحابة، وفي نفس عائشة، وفي نفوس الوفود المجتمعة من الأمصار، فماذا كان من أم المؤمنين «عائشة» رضي الله عنها؟ نسب إليها أنها رفعت نعل الرسول ﷺ، وقالت لعثمان: تركت سنة رسول الله صاحب هذا النعل، وتسامع الناس، فجاءوا حتى ملأوا المسجد، فمن قائل: أحسنت، ومن قائل: ما للنساء وهذا؟ حتى تحاصبوا وتضاربوا، ونسب إليها أنها تربصت بعثمان حتى أقبل يخطب الناس، فدلت قميص رسول الله ﷺ، ونادت: يا معشر المسلمين، جلباب رسول الله ﷺ لم يبل، وقد أبلى عثمان سنته، ونسب إليها أنها قالت: اقتلوا نعثلاً فقد فجر.

وينبغي الشك في كثير من النصوص التي نسبت إلى عائشة بصدد هذه الفتنة؛ لأن بني أمية مثلوا بأخيها محمد بن أبي بكر عند دخولهم مصر أبشع تمثيل فقتلوه، ظمآن، ووضعوه في جوف حمار ميت ثم شووه، بعد أن جروه من رجله في أسواق مصر.

فلما تسامع المسلمون بأنباء هذه المثلة الشنعاء غضبوا للسيدة عائشة، وخاف الأمويون من جرائرها، واحتاجوا إلى المبالغة في تشويه نصيب عائشة من هذه الفتنة، فأضافوا بألسنتهم وألسنة أتباعهم أقاويل وأباطيل.

وقد التقى عند تكبير نصيب عائشة من التحريض على عثمان مصدران متناقضان: هما أصحاب سيدنا معاوية الذين أرادوا تخفيف وزرهم في المثلة بأخيها، وأصحاب سيدنا «علي» الذين أرادوا أن يبطلوا موقفها من المطالبة بدم عثمان.

وخليق بنا أن نزداد حذرًا من الأحاديث التي تدين عائشة، أو التي تدين عليًا أو عثمان في هذه الفتنة رضي الله عنهم أجمعين.

ومما يعد تحريضها للثائرين على عثمان أنها لما علمت بكتاب التآمر على قتل أخيها رغبت في الحج، لتهدئ من أعصابها، ولتروح عن نفسها، ولتفر من

جو الفتنة المظلم، ولو كانت محرضة لبقيت في المدينة، لتحمي الثائرين أو توجههم، ولكنها لما رأت الغوغاء قد كثروا بالمدينة، ولما رأت ما حصل لأم المؤمنين، إذ توجهت أم حبيبة رضي الله عنها نحو عثمان وهو محاصر، تركب بغلتها وتشتمل على إداوة فيها ماء، فقابلها الثائرون، وقالوا: أم المؤمنين أم حبيبة؟ وضربوا وجه بغلتها، فقالت: يا بني، وصايا بني أمية إلى هذا الرجل، وأحب أن ألقاه وأسأله عن ذلك، كيلا تهلك أموال أيتام وأرامل، فقالوا: كاذبة وأهووا إليها، فقطعوا حبل البغلة بالسيف، فندت بأم حبيبة، فتلقاها الناس وقد مالت رحالتها، فتعلقوا بها، فأخذوها - وقد كادت تهلك - فذهبوا بها إلى بيتها.

لما رأت عائشة ذلك أجمعت أمرها للخروج إلى مكة، وطلبت من أخيها، محمد أن يكون معها، ولكنه رفض وآثر البقاء في المدينة، وجاءها مروان بن الحكم، فقال: يا أم المؤمنين: لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا هذا الرجل؟ قالت: أتريد أن يصنع بي كما صنع بأم حبيبة ثم لا أجد من يمنعني؟ ثم خرجت إلى مكة.

أم المؤمنين بمكة:

قصدت عائشة وأمهات المؤمنين مكة للحج في الوقت الذي كان البغاة قد حاصروا أمير المؤمنين عثمان، وقطعوا عنه الماء.

ولما انتهت من الحج قفلت تريد المدينة فلما قاربت «سرف» على بضعة أميال من مكة بلغها قتل عثمان وتولية علي، فعادت إلى مكة، وقصدت الحجر، فتسترت فيه فاجتمع الناس حولها، فقالت: أيها الناس، إن الغوغاء من أهل الأمصار، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلمًا، فسفكوا الدم الحرام، واستحلوا البلد الحرام، والشهر الحرام، وأخذوا المال الحرام، والله لأصبع من عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم، فقال عبد الله بن عامر الحضرمي- وكان عامل عثمان على مكة-: ها أنا أول طالب وأول مجيب،

وتبعه بنو أمية على ذلك، وكانوا قد هربوا من المدينة إلى مكة بعد قتل عثمان، واستأذن طلحة والزبير عليًا أن يعتمرا، فأذن لهما، فلقيا عائشة بمكة، وانصرف عن اليمن عامل عثمان، بعد أن أخذ ما في بيت المال، فأعطى عائشة وطلحة والزبير أربعمائة ألف درهم، وكراعًا وسلاحًا.

وما لبثت عائشة بمكة قليلاً حتى تجمع فيها كل ناقم على علي بن أبي طالب من أعدائه ومنافسيه، فقضت أيامها بمكة بين العثمانيين والأمويين، وطلحة والزبير ومروان بن الحكم، واتفقوا جميعًا على المطالبة بدم عثمان.

ودعوا ابن عمر ليسير معهم فأبى، ودعت حفصة - وكانت معها بمكة - لتخرج معها إلى البصرة، فأجابتها، فمنعها أخوها عبد الله بن عمر.

وجاءت عائشة أم سلمة تطلب إليها الخروج معها إلى البصرة - وكانت بمكة- فاعتذرت لها، ونصحتها بعدم الخروج، فقالت لها عائشة: ما أقبلني لوعظك، وأسمعني لقولك، فإن أخرج ففي غير حرج، وإن أقعد ففي غير بأس[1].

فأمرت رسولها فخرج فنادى في الناس: من أراد الخروج فإن أم المؤمنين غير خارجة، فدخل عليها طلحة والزبير وابنه عبد الله، فأخذوا يقنعونها بالخروج، ويذكرون لها قول الله تعالى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [البقرة: ١١٤]، وأن رسول الله ﷺ خرج في الصلح وأرسل فيه[2]، فخرج رسولها ينادي: من أراد أن يسير فإن أم المؤمنين خارجة.

قال ابن الأثير: ونادى مناديها: أن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون إلى البصرة فمن أراد إعزاز الإسلام، والطلب بثأر عثمان، وليس له مركب جهاز فليأت، فحملوا ستمائة على ستمائة بعير، وساروا في ستمائة إلى البصرة، ولحقهم الناس فكانوا في ثلاثة آلاف رجل، ومعهم ابنا عثمان، ومروان بن

---

(١) أعيان الشيعة: جـ ٣ ص٢٥٢.
(٢) أعيان الشيعة: جـ٣ ص٢٥٤.

الحكم، وكثير من بني أمية [1].

قال الألوسي:

وعائشة رضي الله عنها إنما خرجت من بيتها إلى مكة للحج، لكنها لما سمعت بقتل عثمان ﷺ، وانحياز قتلته إلى «علي» ﷺ، حزنت حزنًا شديدًا واستشعرت اختلال أمر المسلمين، وحصول الفساد والفتنة بينهم، وبينما هي كذلك جاءها طلحة والزبير ونعمان بن بشير في آخرين من الصحابة ﷺ هاربين من المدينة، خائفين من قتلة عثمان ﷺ، لما أنهم أظهروا المباهاة بفعلهم القبيح، وأعلنوا سب عثمان، فضاقت قلوب أولئك الكرام، وجعلوا يستقبحون ما وقع ويشنعون على أولئك السفلة، ويلومونهم على ذلك الفعل الشنيع، فصح عندهم عزمهم على إلحاقهم بعثمان ﷺ، فخرجوا إلى مكة، ولاذوا بأم المؤمنين، وأخبروها الخبر، فقالت لهم: أرى الصلاح أن لا ترجعوا إلى المدينة ما دام أولئك السفلة فيها، محيطين بمجلس الأمير، علي «ﷺ»، وهو غير قادر على القصاص منهم، أو طردهم عنه، فارتضوا ذلك واستحسنوه، فاختاروا البصرة، لما أنها كانت إذ ذاك مجمعًا لجنود المسلمين، وألحوا على أم المؤمنين رضي الله عنها أن تكون معهم إلى أن ترفع الفتنة، ويحصل الأمن، وتنتظم أمور الخلافة، وأرادوا بذلك زيادة احترامهم، وقوة أمنيتهم، لما أنها كانت أمّ المؤمنين والزوج المحترمة غاية الاحترام لرسول الله ﷺ، وأنها كانت أحب أزواجه إليه، وأكثرهن قبولاً عنده، وبنت خليفته الأول ﷺ، فسارت معهم بقصد الإصلاح.

ثم قال الألوسي: وما زعمته الشيعة من أنها رضي الله عنها هي التي كانت تحرض الناس على قتل عثمان، وتقول: اقتلوا نعثلاً فقد فجر، تشبهه بيهودي يدعى نعثلاً، حتى إذا قتل وبايع الناس عليًا قالت: ما أبالي أن تقع السماء على الأرض، قتل والله مظلومًا، وأنا طالبة بدمه، فذكرها عبيد بما كانت تقول، فقالت: قد والله قلت وقال الناس، فأنشد:

---

(١) العواصم من القواصم .

فمنك البداء ومنك الغير...

إلخ الأبيات، فهذا كذب لا أصل له، وهو من مفتريات ابن قتيبة، وابن أعثم الكوفي والسمساطي، وكانوا مشهورين بالكذب والافتراء، ومثل ذلك في الكذب منهم – أنها رضي الله عنها – ما خرجت وسارت إلى البصرة إلا لبغض علي رضي الله عنه فإنها لم تزل تروي مناقبه وفضائله، وعلي رضي الله عنه أحسن مثواها، وبالغ في احترامها، وردها إلى المدينة عزيزة كريمة [(١)].

خروجها إلى البصرة رضي الله عنها:

«توجهت أم المؤمنين عائشة معهم إلى البصرة بعد أن أهلت السنة[(٢)]،فانتهوا في الليل إلى ماء يعرف بالحوأب، فلما علمت قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون وأبت أن تتحول عن مكانها، وقالت: إني سمعت رسول الله ﷺ ، يقول وعنده نساؤه: – **أيتكن تنبحها كلاب الحوأب؟**– ردوني إلى حرم رسول الله ﷺ ، فحلف لها ابن الزبير وطلحة والزبير أن ذلك ليس بالحوأب، وشهد معه خمسون رجلاً ممن كان معهم حتى خامرها الشك في كلام الدليل، وسارت معهم».

والألوسي: لا ينفي واقعة الحوأب بل أثبتها، وأثبت أنه وقع تشاجر بينها وبين معارضي عودتها حتى شهد مروان بن الحكم مع نحو ثمانين رجلاً من دهاقين تلك الناحية بأنه ليس ماء الحوأب[(٣)]، وابن حجر في فتح الباري يثبت الحديث ويقول: أخرجه أحمد وأبو يعلى والبزار وصححه ابن حبان والحاكم، وسنده على شرط الصحيح[(٤)].

أما أبو بكر ابن العربي في كتابه العواصم من القواصم فإنه يقول: إن النبي ﷺ لم يقل هذا الحديث، ولا جرى ذلك الكلام، ولا شهد أحد بشهادتهم، وقد رأينا خبره عند الطبري، فرأيناه يرويه عن إسماعيل بن موسى الفزاري، وهو

---

(١) الألوسي جـ٢٢ ص٩، ١١.
(٢) فتح الباري جـ١٣ ص ٤٤.
(٣) الألوسي : جـ٢٢ ص١١.
(٤) فتح الباري جـ١٣ ص٤٢.

رجل قال فيه ابن عدي: أنكروا منه الغلو في التشيع، ويرويه هذا الشيعي عن علي بن عابس الأزرق، وقد قال عنه النسائي: ضعيف، وهو يرويه عن ابن الخطاب الهجري، وقد قال عنه الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب: مجهول، وهذا الهجري المجهول يرويه عن صفوان بن قبيصة، وقد قال عنه الحافظ الذهبي في ميزان الاعتدال: مجهول. هذا خبر الحوأب، وقد ركبوا هذه الحكاية السخيفة ليقولوا: إن طلحة والزبير المشهود لهما بالجنة ممن لا ينطق عن الهوى قد شهدا الزور، ولو كنا نستجيز نقل الأخبار الواهية لنقلنا في معارضة هذا الخبر خبرًا آخر. ا هـ

وظاهر أن الرواية التي نفاها ابن العربي غير الرواية التي أثبتها ابن حجر وأن حديث الحوأب ثابت وهو من أعلام النبوة، والذي ينبغي نفيه هو شهادة طلحة والزبير الزور، إذ لم ترد في طريق صحيح.

وبلغ عثمان بن حنيف أمير البصرة، من قبل «علي» قرب وصولهم، فأرسلوا إليها عمران بن حصين وأبا الأسود الدؤلي، فانتهيا إليها، فأذنت لهما، فدخلا وسلما، وسألاها عن مسيرها، فقالت: ما مثلي يغطي لبنيه الخبر، إن الغوغاء ونزاع القبائل غزوا حرم رسول الله ﷺ، وأحدثوا فيه، وآووا المحدثين فاستوجبوا لعنة الله ولعنة رسوله مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر فسفكوا الدم الحرام، وانتهبوا المال الحرام، وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام، فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء، وما الناس فيه وراءنا وما ينبغي لهم من إصلاح هذه القضية، وقرأت (لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة) إلى آخر الآية فهذا شأننا، إلى معروف نأمركم به، وهذا منكر ننهاكم عنه [1].

هذا أمر عائشة ومن معها، أما أمير المؤمنين علي رضي الله عنه فإنه لما بلغه خبر توجههم إلى البصرة استشار الناس، فأشار عليه القتلة أن يخرج إليهم ويعاقبهم، وأشار عليه الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم بعدم

---

(١) أعيان الشيعة جـ٣ ص٢٦١.

الخروج واللبث إلى أن يتضح الحال، فأبى ﷺ؛ ليقضي الله أمرًا كان مفعولا، فخرج كرم الله وجهه ومعه أولئك الأشرار أهل الفتنة [١]، وكاتب «علي» أبا موسى الأشعري ليستنفر الناس بالكوفة فثبطهم أبو موسى وقال: إنما هي فتنة، فنمى ذلك إلى «علي» فولى على الكوفة قرظة بن كعب الأنصاري.

وأرسل إلى الكوفة ابنه الحسن وعمار بن ياسر ليستنفروا الناس، فصعدوا المنبر فكان الحسن بن علي فوق المنبر في أعلاه، وقام عمار أسفل من الحسن، فقال عمار: إن عائشة قد سارت إلى البصرة، ووالله إنها لزوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة ولكن الله تبارك وتعالى ابتلاكم ليعلم إياه تطيعون أم هي؟ وقال الحسن: إن عليًا يقول لكم: إني أذكر الله رجلاً وعى لله حقًا إلا نفر، فإن كنت مظلومًا أعانني، وان كنت ظالمًا خذلني، فخرج إليه اثنا عشر ألف رجل من أهل الكوفة [٢].

وفي رواية للمدائني أن رجلاً جاء إلى علي كرم الله وجهه وهو بالزاوية فقال: علام نقاتل هؤلاء؟ قال: على الحق قال: فإنهم يقولون إنهم على الحق قال: أقاتلهم على الخروج من الجماعة ونكث البيعة [٣].

وأخرج الطبري عن عاصم بن كليب الجرمي عن أبيه قال: كنت في غزوة فبلغنا قتل عثمان، فلما رجعنا من غزاتنا وانتهينا إلى البصرة قيل لنا، هذا طلحة والزبير وعائشة، فتعجب الناس، وسألوهم عن سبب سيرهم، فذكروا أنهم خرجوا غضبًا لعثمان، وتوبة مما صنعوا من خذلانه، وقالت عائشة: غضبنا لكم على عثمان في ثلاث: إمارة الفتى، وضرب السوط، والعصا، فما أنصفناه إن لم نغضب له في ثلاث: حرمة الدم والشهر والبلد. قال: فسرت أنا ورجلان من قومي إلى «علي» فسلمنا عليه، وسألناه، فقال: عدا الناس على هذا الرجل

---

(١) أعيان الشيعة جـ٣ ص٢٦١.
(٢) الألوسي، جـ٢٢ ص١٠.
(٣) فتح الباري، جـ١٣ ص٤٤.

فقتلوه، وأنا معتزل عنهم، ثم ولوني، ولولا الخشية على الدين لم أجمعهم، ثم استأذنني الزبير وطلحة في العمرة، فأخذت عليهما العهود، وأذنت لهما فعرضا أم المؤمنين لما لا يصلح لها، فبلغني أمرهم، فخشيت أن ينفتق في الإسلام فتق فاتبعتهم فقال أصحابه: والله ما نريد قتالهم إلا أن يقاتلوا، وما خرجنا إلا للإصلاح [(١)].

وخرج الفريقان: والتقوا عند موضع قصر عبيد الله بن زياد، وأقاموا ليس بينهم قتال، وأرسل علي رسوله القعقاع إلى أم المؤمنين عائشة، فقال: يا أماه. ما أشخصك وأقدمك هذه البلدة؟ فقالت: أي بني: الإصلاح بين الناس، ثم بعثت إلى طلحة والزبير، فقال القعقاع: أخبراني بوجه الإصلاح، قالا: إقامة الحد على قتلة عثمان، وتطييب قلوب أوليائه، فيكون ذلك سببًا لأمننا، وعبرة لمن بعدهم، فقال القعقاع: هذا لا يكون إلا بعد اتفاق الكلمة وسكون الفتنة، فعليكما بالمسالمة في هذه الساعة، فقالا: أصبت وأحسنت، فرجع إلى الأمير علي ﷺ، فأخبره بذلك، فسر به واستبشر، وأشرف القوم على الرجوع، ولبثوا ثلاثة أيام لا يشكون في الصلح، فلما غشيتهم ليلة اليوم الرابع، وقررت الرسل والوسائط في البين أن يظهروا المصالحة صبيحة هذه الليلة، ويلاقي الأمير كرم الله وجهه طلحة والزبير رضي الله عنهما، وأولئك القتلة ليسوا حاضرين معه، وتحققوا ذلك ثقل عليهم واضطربوا، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، فتشاوروا فيما بينهم أن يغيروا على من كان مع عائشة من المسلمين، فيظنوا الغدر من الأمير ﷺ، فيهجموا على عسكره، فيظن أنهم هم الذين غدروا، فينشب القتال، ففعلوا ذلك، فهجم من كان مع عائشة على عسكر الأمير، وخرج أولئك القتلة بالغدر، فالتحم القتال وركب الأمير متعجبًا، فرأى الوطيس قد حمي، والرجال قد سبحت في الدماء فلم يسعه ﷺ إلا الاشتغال بالحرب والطعن والضرب [(٢)].

---

(١) فتح الباري، جـ١٣ ص٤٤.

(٢) الألوسي جـ٢٢ ص١٠.

وكان عسكر عائشة ثلاثين ألفًا، وعسكر «علي» عشرين ألفًا، فلما تراءى الجمعان خرج الزبير وطلحة وخرج إليهما «علي» فدنا منهما حتى اختلفت أعناق دوابهم فقال علي: لعمري لقد أعددتما سلاحًا وخيلاً ورجالاً، إن كنتما أعددتما عند الله عذرًا فاتقيا الله سبحانه، ولا تكونا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا ألم أكن أخاكما في دينكما، تحرمان دمي وأحرم دماءكما؟ فهل من حدث أحل لكما دمي؟ قال طلحة: ألبت الناس على عثمان، قال علي: (ويعلمون أن الله هو الحق المبين)[النور: ٢٥]، يا طلحة: تطلب بدم عثمان فلعن الله قتلة عثمان، يا طلحة: جئت بعرس رسول الله ﷺ تقاتل بها وخبأت عرسك [١]؟

وأقبل كعب بن سور على عائشة رضي الله عنها فقال: أدركي، فقد أبى القوم إلا القتال لعل الله يصلح بك فركبت، وألبسوا هودجها المسوح وجلود البقر وجعلوا دونه البسط، وقد غشي على ذلك بالدروع، ثم بعثوا جملها، فلما برزت من البيوت وكانت بحيث تسمع الغوغاء [٢]. سألت ما هذا؟ قالوا: ضجة العسكر. قالت: بخير أو بشر؟ قالوا: بشر، وكان القتال قد نشب بين الفريقين من تصارع الغوغاء [٣].

ولم تستطع عائشة رضي الله عنها إخماد النار التي امتد لهيبها، ولم يسمع لها صوت بين صليل السيوف وتصايح الناس، كما لم يستطع «علي» رضي الله عنه أن يملك زمام الأمر، وقد اشتد القتال، وحمي الوطيس، حتى قضى الله أمره، وقتل حول الجمل نحو عشرة آلاف، نصفهم من أصحاب علي، ونصفهم من أصحاب عائشة، وحتى عقر الجمل وسقط لجنبه، وفر من حوله، ونادى منادي «علي»: ألا تتبعوا مدبرًا، ولا تجهزوا على جريح ولا تدخلوا الدور.

---

(١) الكامل لابن الأثير جـ٣ ص١٢٢.
(٢) تاريخ الطبري جـ٣ ص٣٨٦.
(٣) الكامل لابن الأثير جـ٣ ص١٢٤.

وأمر علي محمد بن أبي بكر أن يضرب على عائشة قبة، وقال له: انظر هل وصل إليها شيء؟ فأدخل رأسه، فقالت من أنت ويلك؟ فقال لها أنا أخوك، قالت: ابن الخثعمية؟ قال: نعم. قالت: بأبي أنت وأمي، الحمد لله الذي عافاك، قال: يقول لك أمير المؤمنين هل أصابك شيء؟ قالت: لا، والحمد لله.

فجاء «علي» حتى وقف عليها، فقال: كيف أنت يا أمه؟ قالت: بخير. قال يغفر الله لك. قالت: ولك (١).

فلما كان الليل أدخلها البصرة فأنزلها في أعظم داريها، ثم جهزها بكل شيء ينبغي لها من مركب أو زاد أو متاع، واختار لها أربعين امرأة من نساء أهل البصرة المعروفات، وأرسل معها أخاها محمدًا.

وفي إثبات الوصية للمسعودي: وكان بها نساء ملثمات، أركبهن الخيل وفي تذكرة الخواص: ألبسهن العمائم، وقلدهن السيوف، وقال لا تعلمنها أنكن نسوة، وتلثمن، ولا يقرب منها رجل.

وخرجت يوم السبت أول رجب سنة ست وثلاثين من الهجرة، فلما وصلت المدينة ألقى النساء عمائمهن، وقلن لها: نحن نسوة، ويروى أنه ﷺ سار في ركابها أميالاً، وودعها أكرم توديع (٢).

ثم جمع الناس في البصرة وبايعهم، واستعمل ابن عباس عليها، ورجع إلى الكوفة، أما الزبير فقد ترك المعركة وانصرف قبل الهزيمة، فاغتاله في طريقه ابن جرموز، وأما طلحة فقد مات من جرح أصابه في المعركة (٣).

تحليل الموقف:

هذه هي أشهر روايات المحدثين والمؤرخين من المعارضين والأنصار سقتها ليسهل علينا تحليل الموقف، ورد أباطيل المتعصبين.

---

(١) تاريخ الطبري جـ٣ ص٢٨٨، وابن الأثير جـ٣ ص١٣٠.
(٢) الكامل لابن الأثير جـ٣ ص١٣٢.
(٣) أعيان الشيعة جـ٣ ص٢٨٥.

فالشيعة الذين يدينون عائشة رضي الله عنها، وتصل ببعضهم المغالاة إلى الحكم بكفرها [١]، أو عصيانها، أو إخراجها من أمومة المؤمنين استندوا إلى أنها:

١- خالفت قول الله تعالى لنساء نبيه ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ [الأحزاب: ٣٢] وهذا أمر حقيقي خوطب به أزواج النبي ﷺ لملازمتهن البيوت، فخالفته وخرجت، وهي نفسها شعرت بكبر هذه المخالفة، فكانت إذا قرأت هذه الآية بكت حتى يبتل خمارها، لأنها أخطأت في فهم معناها، أو أنها نسيتها يوم خرجت وفي ذلك يقول كاظم الأزدي البغدادي:

حفظت أربعين ألف حديث ومن الذكر آية تنساها[٢]

٢- وخالفت قول رسول الله ﷺ لنسائه عام حجة الوداع «**هذه ثم ظهور الحصر**» أي هذه الحجة ثم الزمن البيوت.

٣- وألبت الناس على عثمان، ثم خرجت تدعي أنها تطالب بدمه، وتغضب له.

٤- وهذا الخروج لم يكن إلا لبغضها عليًا ﷺ، وما سارت إلا لتؤلب الناس وتحضهم على الخروج على إمام المسلمين.

٥- وتسببت في إراقة الدماء المسلمة البريئة.

٦- وأن النبي ﷺ كان قد وكل «عليًا» قبل وفاته أن يطلق من شاء من نسائه، فطلقها «علي» يوم الجمل فأخرجت بذلك من أمهات المؤمنين.

أما أهل السنة: فإنهم يرون براءة ساحتها رضي الله عنها من كل ما نسبه الشيعة إليها:

١- لأن قوله تعالى ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ وإن كان أمرًا صريحًا موجهًا إلى أمهات المؤمنين، فان المقصود منه طلب الاستقرار الذي يحصل به وقارهن وامتيازهن على سائر النساء، بأن يلازمن البيوت في أغلب الأوقات، وليس

(١) الألوسي: جـ١٨ ص١٣٢.
(٢) الألوسي، جـ٨ ص١٣٢.

القصد النهي عن الخروج مطلقًا، وإلا لما أخرجهن ﷺ بعد نزول الآية للحج والعمرة ولما ذهب بهن في الغزوات، ولما رخص لهن في زيارة الوالدين، وعيادة المرضى وتعزية الأقارب، وقد وقع كل ذلك كما تشهد الأخبار الصحيحة [١].

٢- وأن قوله ﷺ لنسائه عام حجة الوداع: «**هذه ثم ظهور الحصر**» إنما كان إشارة نبوية إلى أنه ﷺ ينعي لهن نفسه، وأن هذه آخر حجة له ﷺ، وليس فيه أمر منه بأن لا يزايلن الحصر إلى حج أو مصلحة أو إصلاح بين الناس.

وقد صح أنهن حججن مع عمر ﷺ في آخر حجة حجها، ولم ينكر عليهن أحد من الصحابة ﷺ، ومنهم «علي» ﷺ، وقد خرجت عائشة إلى مكة وأم المؤمنين أم سلمة وهي مقبولة عند الشيعة [٢] فالخروج للمصلحة جائز لأمهات المؤمنين.

٣- وأما أنها ألبت الناس على عثمان، فلما علمت بتولية «علي» قامت تطلب بدمه فقيل لها فمنك البداء ومنك الغير ..إلخ، فقد سبق رد الألوسي عليه بأنه كذب لا أصل له، على أنه قد ينتقد الإنسان فعلاً من الأفعال، ويلوم صاحبه عليه ويدينه ويخطئه ويهاجره، ولكنه لا يرضى له القتل بحال من الأحوال يشهد لذلك ما ذكره كتاب أعيان الشيعة نفسه صحيفة ٢٦٥ الجزء الثالث من قولها لأبي الأسود الدؤلي: أنغضب لكم من سوط عثمان، ولا نغضب لعثمان من سيوفكم؟ فهي رضي الله عنها محقة في الموقفين.

٤- وأما أنها ما خرجت إلا لبغضها عليًا ﷺ فإنها دعوة في حاجة إلى دليل، لأن البغض أمر نفسي خفي، لا يعلمه إلا الله ولا يشعر به إلا صاحبه، فإن كانت قد ظهر منها في وقت من الأوقات بعض مظاهر البغض، فقد ظهر منها في البعض الآخر ما يدل على الرضا والقبول، فإنها لم تزل تروي مناقبه وفضائله [٣].

---

(١) الألوسي جـ٢٢ ص٩.
(٢) الألوسي جـ٢٢ ص٩.
(٣) الألوسي جـ٢٢ ص١١.

ثم الدوافع أمور داخلية خفية لا يعلمها إلا الله، ولا يشعر بها إلا صاحبها وقد يوجد البغض فعلا ولا يكون هو الدافع لتصرف من التصرفات، ولم يرو عنها أنصارها ولا أعداؤها أن بغضها «عليًا» كان الدافع لها إلى هذا الخروج.

وأما أنها سارت لتؤلب على «علي» فإن طلباتها وخطبها التي ذكرها خصومها لم تشر إلى الخروج عن الطاعة، ولم ترد كلمة واحدة في «علي» ولا في التأليب عليه، وإنما كانت كل طلباتها الضرب على أيدي القتلة، وإرضاء أولياء دم عثمان بل أكثر من هذا أنها كانت تدعو الناس إلى لزوم «علي» فقد أخرج ابن أبي شيبة بسند جيد عن عبد الرحمن بن أبزى قال: انتهى عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي إلى عائشة يوم الجمل وهي في الهودج، فقال: يا أم المؤمنين. أتعلمين أني أتيتك عندما قتل عثمان، فقلت: ما تأمرينني؟ فقلت: الزم عليًا؟ فسكتت [1].

٥- وأما أنها تسببت في إراقة الدماء المسلمة البريئة فإن كل ما ترتب على سفرها وخروجها لم يكن في حسابها [2]، ولو علمت قبل خروجها أن شيئًا من ذلك سيكون ما خرجت، ولو حاسبناها على هذه النتيجة لحسابنا «عليًا» رضي الله عنه نفس الحساب، فإنه كذلك لو علم أن خروجه سيترتب عليه قتل عشرة آلاف من المسلمين ما أقدم على القتال، ولذلك نرى كلاً منهما يندم غاية الندم بعد وقوع المقدور، فقد روي أنها كانت كلما تذكرت يوم الجمل تبكي حتى يبتل معجرها أي ثوبها الذي تلتف به - .

وروي أنها رضي الله عنها كانت إذا قرأت ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ بكت حتى يبتل خمارها، وما ذاك إلا لأن قراءتها تذكرها الواقعة التي قتل فيها كثير من المسلمين، وهذا كما أن الأمير عليًا رضي الله عنه أحزنه ذلك حزنًا شديدًا، فقد صح أنه

---

(١) فتح الباري جـ١٣ ص٤٤.
(٢) الألوسي جـ٢٢ ص١١.

ﷺ لما وقع الانهزام على من مع أم المؤمنين، وقتل من قتل من الجمعين طاف في مقتل القتلى، فكان يضرب على فخذيه ويقول: يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا [١].

٦- وأما أن الرسول ﷺ كان قد وكل عليًا في طلاق من شاء من نسائه فطلقها ﷺ هراء سخيف لا تتصوره العقول وعنه يقول الألوسي ولعمري إن هذا مما يكاد يضحك الثكلى [٢].

ويرده من أساسه، تكريمه لها، واعزازه واحترامه لها بعد الموقعة، كما نطقت بذلك كتب الشيعة أنفسهم، كما يرده ما رواه البخاري من قول عمار ابن ياسر في أهل الكوفة «والله إني لأعلم أنها زوجة نبيكم ﷺ في الدنيا والآخرة».

أ- فإن أخذ عليها رضي الله عنها رجوعها من «سرف» إلى مكة، وعدم ذهابها إلى المدينة لمطالبة الإمام بالأخذ على أيدي القتلة، وإرضاء أولياء الدم، وإشاعة الأمن في البلاد، فإن عذرها أنها علمت أن هؤلاء القتلة بعد أن فعلوا فعلتهم وعاثوا في المدينة الفساد أحاطوا بمجلس الأمير ﷺ ، يشيرون عليه ويديرون دفة الأمور، لأنهم الذين قتلوا، وهم الذين ولوا، فخشيتهم عائشة رضي الله عنها، إيمانًا بأنهم لا يرعون حرمة أمهات المؤمنين، وقد قطعوا حبل بغلة أم حبيبة ونفروها حتى كادت تلقى حتفها، خصوصًا بعد أن قويت شوكتهم بقتل عثمان، وسيطروا على المدينة بالإرهاب.

فرأت رضي الله عنها القيام بهذا الواجب في مكان آمن، وأن تستعين على تحقيقه بولاة عثمان في مكة واليمن وبمن يؤيدها في ذلك من أهل مكة والبصرة.

ب - وإن أخذ عليها عدم التروي في الأمر، وتمكين الإمام من السيطرة على الموقف أولاً، ثم مطالبته بالقصاص، فعذرها أنها رضي الله عنها وقعت في

---

(١) الألوسي جـ٢٢ ص١١.

(٢) الألوسي جـ١٨ ص١٣٢.

مكة تحت تأثير بيئة ساخطة على قتلة عثمان (مروان بن الحكم ومعه ابنا عثمان، وولاة عثمان بمكة وأتباعهم، وطلحة والزبير، والفارين من الثوار بالمدينة)، كل هؤلاء يثيرون ثائرتها، ويهولون لها أعمال الثوار وقسوتهم، ويدفعونها في تيار جارف لم تستطع مقاومته، ومع ذلك ترددت في الخروج بعد سماعها نصيحة أم سلمة، حتى نادى مناديها: من أراد الخروج فإن أم المؤمنين غير خارجة، فدخل عليها عبد الله بن الزبير فأحماها حتى خرج رسولها ينادي مرة أخرى: من أراد أن يسير فإن أم المؤمنين خارجة. ذكر ذلك التردد صاحب كتاب أعيان الشيعة نفسه في صحيفة ٥٠٠ جـ٣.

جـ - وإن أخذ عليها عدم التثبت من الأخبار فعذرها أن صلتها القوية بطلحة والزبير جعلتها تثق في قولهما، وتستجيب لرغبتهما، فطلحة من بني عمومتها، والزبير زوج أختها أسماء، وابنه عبد الله ابنها الذي اختارته لكنيتها، وقد شاهدا بأعينهما ما فعل الثوار مما لا يرضى به مسلم غيور كان في يوم من الأيام مرشحًا لخلافة المسلمين.

ولست مع الأستاذ العقاد حين رأى أنهما قاما للمطالبة بالخلافة، وأنها رضي الله عنها كانت تحارب خلافة «علي» وترشح للخلافة أحد الرجلين إذ قال في كتابه الصديقة بنت الصديق ما نصه: «وما من أحد يجهل الشعور الذي تقابل به النساء نصيحة مثل تلك النصيحة (يشير إلى نصيحة علي في الإفك) فأقل ما يقال: إنه شعور لا غرابة فيه، ثم ها هي ذي مسألة الخلافة والترشيح لها من بين عظماء الصحابة الذين بقوا على قيد الحياة بعد موت أبي بكر وعمر وعثمان ومن هؤلاء الصحابة علي وطلحة والزبير، وكلهم قد ندبوا للاجتماع في بيت عائشة لاختيار واحد منهم للخلافة، وقال لهم عمر يومئذ: إني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم، وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض، وإني لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم، ولكن ما أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم، فيختلف الناس، فانهضوا إلى

حجرة عائشة، فتشاوروا واختاروا رجلاً منكم، وكان جائزًا أن يقع الاختيار في بيت عائشة على طلحة أو الزبير فمع من يكون شعور عائشة وقد تجددت المسألة؟ إن طلحة والزبير مرشحان للخلافة منذ اثنتي عشرة سنة، وقد تكرر اختيار الخليفة من غير بني هاشم حتى أصبح في رأي بعضهم كالعرف الذي يجري عليه التقليد، وليس لعلي سند قاطع من القرآن أو السنة يبطل ذلك العرف ويسقط حجية طلحة والزبير [١].

وقال في موضع آخر من نفس الكتاب: لقد كانت حملة الجمل حملة تهويل وسعي إلى المقاسمة في الأمر على وجه من الوجوه، فيتولى بعضهم العراق، وبعضهم اليمن، ويصبح الأمر شركة بينهم وبين الخليفة [٢].

وقال في موضع آخر من نفس الكتاب: فإنها تلقت خلافة «علي» من بدايتها بالسخط والمقاومة، وأذنت لبعض الطامحين إلى الخلافة أن يتوسلوا بجاهها، ويشركوها معهم في خصوماتها [٣].

وقال في موضع آخر من نفس الكتاب: كانت في طريقها إلى مكة يوم لقيت ابن عباس موفدًا من قبل عثمان ليتلو على الحجاج كتابه، ويطلب النصفة بينه وبين الثائرين عليه، فاقترحت أن يخذل الناس عن عثمان، وأن يشككهم فيه، ورشحت للخلافة طلحة بن عبد الله، لأنه اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح، فإن يل الخلافة يسير بسيرة ابن عمه أبي بكر ﷺ [٤].

وقال في كتابه عبقرية الإمام علي بعد أن ذكر موقعة الجمل، وإكرام «علي» لعائشة ما نصه: «كانت السيدة عائشة تؤثر على أن تؤول الخلافة إلى واحد من هذين طلحة أو الزبير أو إلى عبد الله بن الزبير؛ لأن طلحة من قبيلة تيم، والزبير

---

(١) الصديقة بنت الصديق ص١٧٠.
(٢) الصديقة بنت الصديق ص١٣٢.
(٣) الصديقة بنت الصديق ص١٢٥.
(٤) الصديقة بنت الصديق ص١٥٠.

زوج أختها أسماء، وفي تأييد السيدة عائشة لواحد منهم مدعاة أمـل كبير في النجاح» [١].

إنني أخالف الأستاذ العقاد في هذا الاعتقاد، فقد نقل الحافظ ابن حجر عن كتاب أخبار البصرة لعمر بن شبة قول المهلب: إن أحدا لم ينقل أن عائشة ومن معها نازعوا عليًا في الخلافة، ولا دعوا إلى أحد منهم ليولوه الخلافة، وهذا هو ما ذهب إليه الحافظ ابن حجر[٢] وهو الذي أرتضيه.

أما الإمام «علي» ﷺ فإنه وقف من قتلة عثمان موقفًا حكيمًا؛ إنهم عند البيعة له كانوا هم المسؤولين عن زمام الأمر في المدينة، وفي حالة الإرهاب التي كانت سائدة يومئذ لم يكن في استطاعة «علي» ولا في استطاعة غيره أن يقف منهم موقف القصاص، ولما انتقل «علي» إلى العراق ليكون على مقربة من الشام انتقل معه قتلة عثمان، ولاسيما أهل البصرة منهم والكوفة، فلما صاروا في بصرتهم وكوفتهم صاروا في معقل قوتهم، وعنجهية قبائلهم، لقد جاء في نهج البلاغة أنه قال للأمير «علي» بعض أصحابه: لو عاقبت قومًا أجلبوا على عثمان؟ فقال: يا إخوتاه إني لست أجهل ما تعملون، ولكن كيف لي بهم؟ والمجلبون على شوكتهم، يملكوننا ولا نملكهم، وها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم، والتفت إليهم أعرابهم، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا [٣].

ومع ذلك فقد أعلن «علي» ﷺ البراءة منهم، وأراد أن يتفق مع أصحاب الجمل على ما يمكن الاتفاق عليه بشأنهم، فما كان ﷺ ليأويهم أو يشجعهم وإنما كان قصده الاجتماع على الطاعة، وتماسك الجماعة، وإخماد الفتنة، ثم القصاص ممن يستحق القصاص.

ولما وقعت الحرب بتدبير يعلمه الله، وانتصر، أظهر كل معاني المروءة

---

(١) عبقرية الإمام علي ص١٧/٨.
(٢) فتح الباري جـ١٣ ص٤٣.
(٣) نقله الألوسي جـ٢٢ ص١٠ عن نهج البلاغة.

والنجدة، فأكرم أم المؤمنين وأنزلها المنـــزل اللائق بها، وشيعها إلى المدينة بأسمى معاني التجلة والاحترام.

هذا تحليل موقف الطرفين، نرى كل موقف سليمًا من وجهة نظر صاحبه، وإن كانت نتيجة الموقفين صدع الإسلام، وقتل الكثرة من أهله، وفرقة المسلمين.

ولقد سئلت: أليست هذه الفتن التي أمر الرسول ﷺ أصحابه بالهروب منها؟ والتي قال عنها: «**ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه، فمن وجد فيها ملجأ أو معاذا فليعذْ به**».

وفي رواية لمسلم «**فإذا نزلت، فمن كان له إبل فليلحق بإبله،** قال رجل يا رسول الله، أرأيت من لم يكن له؟ قال: **يعمد إلى سيفه، فيدق على حده بحجر ثم لينج إن استطاع**».

إذا كان الرسول ﷺ قد حذر من الدخول في الفتن، فكيف خاضها سيدنا علي والسيدة عائشة وكبار الصحابة والتابعين؟

فقلت: إن الفتنة أصلها الابتلاء والاختبار، وإذا أراد الله أمرًا مكروهًا عمى وجه الصواب على المشرفين عليه و لم يلهم القائمين به ما سيترتب عليه من آثاره وقد قالوا: عند القضاء يعمى البصر.

والفتنة التي تبدأ بثورة نفسية تحول غالبًا دون تعمق التكفير، وتدفع إلى سرعة العمل وعدم التريث، والثورة لا عقل لها، كما يقولون، ولا تبعة ولا مؤاخذة إذا كان كل من الفريقين قد بذل قصارى جهده، وتحرى قدر طاقته الصواب، لكني وجدت خيرًا من هذا الجواب؛ وجدت الطبري يقول: لو كان الواجب مع كل اختلاف يقع بين المسلمين الهرب منه بلزوم المنازل، وكسر السيوف، لما أقيم حد، ولا أبطل باطل، ولوجد أهل الفسوق سبيلا إلى ارتكاب المحرمات من أخذ الأموال وسفك الدماء، وسبي الحريم، بأن يحاربهم ويكف

المسلمين أيديهم، بأن يقولوا: هذه فتنة، ونهينا عن القتال فيها، وهذا مخالف للأمر بالأخذ على أيدي السفهاء، ويقول: وإنكار المنكر واجب على كل من قدر عليه، فمن أعان المحق أصاب، ومن أعان المخطئ أخطأ، وإن أشكل الأمر فهي الحالة التي ورد النهي عن القتال فيها.

ويقول الحافظ ابن حجر: ذهب جمهور الصحابة والتابعين إلى وجوب نصر الحق، وقتال الباغين، وحمل الأحاديث الواردة في ذلك على من ضعف عن القتال أو قصر نظره على معرفة صاحب الحق.

ويقول: ومن ثم كان الذين توقفوا عن القتال في الجمل وصفين أقل عددا من الذين قاتلوا وكلهم متأول مأجور.

ويقول: واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك، ولو عرف المحق منهم، لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد، وقد عفا الله تعالى عن المخطئ في الاجتهاد، بل ثبت أنه يؤجر أجرًا واحدًا، وأن المصيب يؤجر أجرين[1].اهـ.

فرضي الله عن الجميع، ووقانا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منا خاصة إنه غفور رحيم.

علمها رضي الله عنها:

روي لها عن رسول الله ﷺ أكثر من ألف حديث، اتفق منها الشيخان على مائة وأربعة وسبعين حديثًا، وانفرد البخاري بأربعة وخمسين، ومسلم بثمانية وستين.

وعن أبي موسى قال: ما أشكل علينا أصحاب رسول الله ﷺ حديث قط، فسألنا عنه عائشة رضي الله عنها إلا وجدنا عندها منه علمًا.

وعن الزهري قال: لو جمع علم عائشة رضي الله عنها، وعلم جميع أزواج النبي ﷺ وجميع النساء كان علم عائشة رضي الله عنها أكثر.

---

(١) فتح الباري جـ ١٣ ص٢٣ و ٢٤.

وعن مسروق، كان يحلف بالله: لقد رأيت الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يسألون عائشة رضي الله عنها عن الفرائض [(١)].

وعن عروة قال: سألت عائشة رضي الله عنها عن قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [البقرة:١٥٨]، وقلت: والله ما على أحد جناح إلا يطوف بين الصفا والمروة، قالت: بئس ما قلت يا ابن أختي، لو كانت هذه كما أولتها كانت: لا جناح عليه ألا يطوف بهما، ولكنها أنزلت في الأنصار، كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها، وكان من أهل بها يتحرج أن يطوف بين الصفا والمروة، فلما أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، فقالوا يا رسول الله: إنا كنا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة، فأنزل الله عز وجل ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ الآية قالت عائشة رضي الله عنها: وقد سن رسول الله ﷺ الطواف بينهما، ليس لأحد أن يترك الطواف بينهما [(٢)].

وعن عروة قال: ما رأيت أحدًا أعلم بالقرآن، ولا بقراءته ولا بفرائضه، ولا بحلال ولا بحرام ولا بشعر ولا بحديث العرب ولا بنسب من عائشة رضي الله عنها.

وعنه رضي الله عنه أنه كان يقول لعائشة رضي الله عنها: يا أمتاه، لا أعجب من فقهك أقول: زوجة رسول الله ﷺ، وابنة أبي بكر رضي الله عنه، وكان من أعلم الناس، ولكن أعجب من علمك بالطب، كيف هو؟ ومن أين هو؟ فضربت على منكبه وقالت: إن رسول الله ﷺ كان يقسم عند آخر عمره، وكانت تقدم وفود العرب من كل وجه، فتنعت له الأنعات، وكنت أعالجها، فمن ثم [(٣)].

---

(١) الزرقاني جـ٣ ص٢٣٤.

(٢) فتح الباري جـ٨ ص٣٧٥.

(٣) الزرقاني جـ٣ ص٢٣٤.

كرمها رضي الله عنها:

عاشت أم المؤمنين رضي الله عنها أيام رسول الله ﷺ عيشة الزهد والتقشف، من حيث المتاع ومن حيث الطعام والشراب، فكان فراشها حصيرًا يحتجره ﷺ بالليل - أي يتخذه حجرة لصلاته وعلامة تمنع الغير - فيصلي عليه ويبسطه بالنهار فيجلس عليه، وكانت عائشة تنام في الليل على هذا الحصير تعترض بينه وبين القبلة كاعتراض الجنازة، فإذا أراد أن يوتر أيقظها فأوترت.

ودخلت امرأة من الأنصار على عائشة، فرأت فراش النبي ﷺ عباءة مثنية، فانطلقت فبعثت بفراش حشوه الصوف، فدخل رسول الله ﷺ على عائشة فقال: **ما هذا يا عائشة؟** قالت: فقلت: يا رسول الله فلانة الأنصارية دخلت علي فرأت فراشك، فذهبت فبعثت إلي بهذا. قال: **رديه يا عائشة**، قالت: فلم أرده، وأعجبني أن يكون في بيتي، حتى قال رسول الله ﷺ ذلك ثلاث مرات، فقال: **رديه يا عائشة، فو الله لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة** (١).

وعنها رضي الله عنها أنها قالت لعروة: ابن أختي. إن كنا لننتظر إلى الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار، فقال عروة: يا خالة، ما كان يعينكم؟ قالت الأسودان التمر والماء، إلا أنه قد كان رسول الله ﷺ جيران من الأنصار كانت لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانهم فيسقينا (٢).

ومع هذا الجهد والضيق كانت رضي الله عنها تجود بالتمرة الواحدة التي تملكها كما مر في المرأة التي شقت تمرة عائشة لابنتيها.

ولم يغير الغنى وتدفق الأموال عليها بعد الرسول ﷺ من زهدها وتقشفها وكرمها، بل صار الزهد تعففًا، وأصبح الكرم سخاءً، وكان

---

(١) السمط الثمين ص٥٩.
(٢) فتح الباري جـ٥ ص١٢٥.

معاشها من بيت المال، ومن الأرض التي وقفها عبد الرحمن بن عوف على أمهات المؤمنين لا تمسك منه إلا الكفاف وتتصدق بالباقي.

واشترى معاوية من عائشة منزلها بمائة وثمانين ألف درهم، وشرط لها سكناها حياتها، وحمل إلى عائشة المال، فما قامت من مجلسها حتى قسمته[(١)].

وبعث إليها ابن الزبير بغرارتين فيهما ثمانون ومائة ألف، فدعت بطبق، وأمرت خادمتها أن توزع حتى أتت على المال كله، فقالت لها جاريتها: ألا أبقيت لنا شيئًا نشتري به لحمًا لفطورك؟ - وكانت صائمة- فقالت: لو أذكرتني لفعلت [(٢)].

وأخيرًا قالت في وصيتها: إذا كفنت وحنطت ثم دلاني ذكوان في حفرتي وسواها فهو حر [(٣)].

وفاتها رضي الله عنها:

واستأذن ابن عباس قبل موت عائشة للدخول- وهي مريضة - ودخل عليها مولاها ذكوان يستأذنها، فقالت: أخشى أن يثني علي. قال لها ابن أخيها عبد الله بن عبد الرحمن: يا أمتاه: إن ابن عباس من صالح بيتك، يسلم عليك ويودعك، قالت: ائذن له إن شئت، فقال: كيف تجدينك؟ قالت: بخير إن اتقيت. قال: أبشري. قالت: وأيضًا.

قال: ما بينك وبين أن تلقي محمدًا والأحبة إلا أن تخرج الروح من الجسد، أنت بخير إن شاء الله تعالى: زوجة رسول الله ﷺ، ولم ينكح بكرًا غيرك، ونزل عذرك من السماء. قالت لابن عباس ردًا على ثنائه: وددت أني كنت نسيًا منسيًا [(٤)].

---

(١) الطبقات الكبرى مجلد ٨ ص ١٦٥.

(٢) الطبقات الكبرى مجلد ٨ ص٦٧.

(٣) الطبقات الكبرى مجلد ٨ ص ٧٦.

(٤) الطبقات الكبرى مجلد ٨ ص ٧٥.

وأوصت عبد الله بن الزبير فقالت له: ادفني مع صواحبي في البقيع، ولا تدفني مع النبي ﷺ في البيت فإني أكره أن أزكى.

وماتت رضي الله عنها لسبع عشرة من رمضان سنة ثمان وخمسين وهي يومئذ بنت ست وستين سنة، دخلت عليه ﷺ وهي بنت تسع سنين، وقضت معه نحو تسع سنين، وعاشت بعده نحو ثمان وأربعين، ودفنت بالبقيع ليلا، وحمل معها الجريد الذي ألقوا عليه الخرق وغمسوها في الزيت وأشعلوا فيها النار فحملوها معها [(١)].

وصلى عليها أبو هريرة ﷺ ، وكان يومئذ خليفة مروان بن الحكم أمير المدينة حينئذ من جهة معاوية لأنه حج فاستخلف أبا هريرة، ونزل غيرها أربعة: عبد الله وعروة ابنا الزبير، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر، فرضي الله عنها وعنهم وعن الصحابة أجمعين[(٢)].

مناقب أبي بكر عبد الله بن أبي قحافة التيمي ﷺ[(٣)]

باب مَنَاقِبِ الْمُهَاجِرِينَ وَفَضْلِهِمْ

مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي قُحَافَةَ التَّيْمِيُّ ﷺ وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحشر: ٨] وَقَالَ اللَّهُ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة: ٤٠] إِلَى قَوْلِهِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ قَالَتْ عَائِشَةُ وَأَبُو سَعِيدٍ وَابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ مَعَ النَّبِي ﷺ فِي الْغَارِ.

الشرح:

قوله: (باب مناقب المهاجرين وفضلهم) سقط لفظ " باب " من رواية

---

(١) الطبقات الكبرى مجلد ٨ ص ٧٧.

(٢) الزرقاني جـ٣ ص٢٣٦.

(٣) فتح الباري (٢/١٠، ٤٧).

أبي ذر، والمراد بالمهاجرين من عدا الأنصار ومن أسلم يوم الفتح وهلم جرا، فالصحابة من هذه الحيثية ثلاثة أصناف، والأنصار هم الأوس والخزرج وحلفاؤهم ومواليهم.

قوله: (منهم أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة التيمي) هكذا جزم بأن اسم أبي بكر عبد الله وهو المشهور، ويقال كان اسمه قبل الإسلام عبد الكعبة وكان يسمى أيضا عتيقا، واختلف هل هو اسم له أصلي؟ أو قيل له ذلك لأنه ليس في نسبه ما يعاب به أو لقدمه في الخير وسبقه إلى الإسلام أو قيل له ذلك لحسنه أو لأن أمه كان لا يعيش لها ولد فلما ولد استقبلت به البيت فقالت اللهم هذا عتيقك من الموت أو لأن النبي ﷺ بشره بأن الله أعتقه من النار؟ وقد ورد في هذا الأخير حديث عن عائشة عند الترمذي، وآخر عن عبد الله ابن الزبير عند البزار، وصححه ابن حبان وزاد فيه " وكان اسمه قبل ذلك عبد الله بن عثمان " وعثمان اسم أبي قحافة لم يختلف في ذلك كما لم يختلف في كنية الصديق ولقب الصديق لسبقه إلى تصديق النبي ﷺ وقيل: كان ابتداء تسميته بذلك صبيحة الإسراء.

وروى الطبراني من حديث علي " أنه كان يحلف أن الله أنزل اسم أبي بكر من السماء الصديق " رجاله ثقات.

وأما نسبه فهو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد ابن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب، يجتمع مع النبي صلى الله عليه وسلم في مرة بن كعب، وعدد آبائهما إلى مرة سواء، وأم أبي بكر سلمى وتكنى أم الخير بنت صخر بن مالك بن عامر بن عمرو المذكور، أسلمت وهاجرت، وذلك معدود من مناقبه، لأنه انتظم إسلام أبويه وجميع أولاده.

قوله: (وقول الله عز وجل: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ﴾ [الحشر: ٨]الآية)، ساقها الأصيلي وكريمة إلى قوله: ﴿ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴾ وأشار المصنف بهذه الآية إلى ثبوت فضل المهاجرين لما اشتملت عليه من أوصافهم الجميلة

وشهادة الله تعالى لهم بالصدق.

قوله: (وقال الله تعالى﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة: ٤٠] الآية)، ساق في رواية الأصيلي وكريمة إلى قوله:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ وأشار المصنف بها إلى ثبوت فضل الأنصار فإنهم امتثلوا الأمر في نصره، وكان نصر الله له في حال التوجه إلى المدينة بحفظه من أذى المشركين الذين اتبعوه ليردوه عن مقصده.

وفي الآية أيضا فضل أبي بكر الصديق لأنه انفرد بهذه المنقبة حيث صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم في تلك السفرة ووقاه بنفسه كما سيأتي، وشهد الله له فيها بأنه صاحب نبيه.

قوله: (وقالت عائشة وأبو سعيد وابن عباس: كان أبو بكر مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار) أي لما خرجا من مكة إلى المدينة، حديث عائشة سيأتي مطولا في " باب الهجرة إلى المدينة " وفيه " ثم لحق رسول ﷺ وأبو بكر بغار في جبل ثور " الحديث.

وحديث أبي سعيد أخرجه ابن حبان من طريق أبي عوانة عن الأعمش عن أبي صالح عنه في قصة بعث أبي بكر إلى الحج، وفيه " فقال له ﷺ : أنت أخي وصاحبي في الغار " الحديث.

وحديث ابن عباس في تفسير براءة في قصة ابن عباس مع ابن الزبير، وفيها قول ابن عباس " وأما جده فصاحب الغار " يريد أبا بكر، ولابن عباس حديث آخر لعله أمسّ بالمراد، أخرجه أحمد والحاكم من طريق عمرو بن ميمون عنه قال: " كان المشركون يرمون عليا وهم يظنون أنه النبي ﷺ ، فجاء أبو بكر فقال: أين رسول الله، فقال له علي: إنه انطلق نحو بئر ميمون فأدركه، قال فانطلق أبو بكر فدخل معه الغار " الحديث، وأصله في الترمذي والنسائي دون المقصود منه هنا.

وروى الحاكم من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى

﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ ﴾ [التوبة: ٤٠]، قال: " على أبي بكر " وروى عبد الله بن أحمد في " زيادات المسند " من وجه آخر عن ابن عباس قال: قال رسول ﷺ: " أبو بكر صاحبي ومؤنسي في الغار " الحديث، ورجاله ثقات.

الحديث

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَجَاءٍ حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ اشْتَرَى أَبُو بَكْرٍ ﵁ مِنْ عَازِبٍ رَحْلا بِثَلَاثَةَ عَشَرَ دِرْهَمًا فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعَازِبٍ مُرِ الْبَرَاءَ فَلْيَحْمِلْ إِلَيَّ رَحْلِي فَقَالَ عَازِبٌ لا حَتَّى تُحَدِّثَنَا كَيْفَ صَنَعْتَ أَنْتَ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ خَرَجْتُمَا مِنْ مَكَّةَ وَالْمُشْرِكُونَ يَطْلُبُونَكُمْ قَالَ ارْتَحَلْنَا مِنْ مَكَّةَ فَأَحْيَيْنَا أَوْ سَرَيْنَا لَيْلَتَنَا وَيَوْمَنَا حَتَّى أَظْهَرْنَا وَقَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ فَرَمَيْتُ بِبَصَرِي هَلْ أَرَى مِنْ ظِلٍّ فَآوِيَ إِلَيْهِ فَإِذَا صَخْرَةٌ أَتَيْتُهَا فَنَظَرْتُ بَقِيَّةَ ظِلٍّ لَهَا فَسَوَّيْتُهُ ثُمَّ فَرَشْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِيهِ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ اضْطَجِعْ يَا نَبِيَّ اللَّهِ فَاضْطَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ ثُمَّ انْطَلَقْتُ أَنْظُرُ مَا حَوْلِي هَلْ أَرَى مِنَ الطَّلَبِ أَحَدًا فَإِذَا أَنَا بِرَاعِي غَنَمٍ يَسُوقُ غَنَمَهُ إِلَى الصَّخْرَةِ يُرِيدُ مِنْهَا الَّذِي أَرَدْنَا فَسَأَلْتُهُ فَقُلْتُ لَهُ لِمَنْ أَنْتَ يَا غُلامُ قَالَ لِرَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ سَمَّاهُ فَعَرَفْتُهُ فَقُلْتُ هَلْ فِي غَنَمِكَ مِنْ لَبَنٍ قَالَ نَعَمْ قُلْتُ فَهَلْ أَنْتَ حَالِبٌ لَنَا قَالَ نَعَمْ فَأَمَرْتُهُ فَاعْتَقَلَ شَاةً مِنْ غَنَمِهِ ثُمَّ أَمَرْتُهُ أَنْ يَنْفُضَ ضَرْعَهَا مِنَ الْغُبَارِ ثُمَّ أَمَرْتُهُ أَنْ يَنْفُضَ كَفَّيْهِ فَقَالَ هَكَذَا ضَرَبَ إِحْدَى كَفَّيْهِ بِالأُخْرَى فَحَلَبَ لِي كُثْبَةً مِنْ لَبَنٍ وَقَدْ جَعَلْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِدَاوَةً عَلَى فَمِهَا خِرْقَةٌ فَصَبَبْتُ عَلَى اللَّبَنِ حَتَّى بَرَدَ أَسْفَلُهُ فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَافَقْتُهُ قَد اسْتَيْقَظَ فَقُلْتُ اشْرَبْ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيتُ ثُمَّ قُلْتُ قَدْ آنَ الرَّحِيلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ بَلَى فَارْتَحَلْنَا وَالْقَوْمُ يَطْلُبُونَنَا فَلَمْ يُدْرِكْنَا أَحَدٌ مِنْهُمْ غَيْرُ سُرَاقَةَ بْنِ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ عَلَى فَرَسٍ لَهُ فَقُلْتُ هَذَا الطَّلَبُ قَدْ لَحِقَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا.

الشرح:

قوله: (حدثنا عبد الله بن رجاء) هو الغداني بضم المعجمة وتخفيف الدال المهملة وبعد الألف نون بصري ثقة، وكذا بقية رجال الإسناد.

قوله: (فقال عازب: لا حتى تحدثنا) كذا وقع في رواية إسرائيل عن أبي إسحاق، وقد تقدم في " علامات النبوة " من رواية زهير عن أبي إسحاق بلفظ " فقال لعازب: ابعث ابنك يحمله معي، قال: فحملته معه وخرج أبي ينتقد ثمنه، فقال له أبي: يا أبا بكر حدثني " وظاهرهما التخالف، فإن مقتضى رواية إسرائيل أن عازبا امتنع من إرسال ولده مع أبي بكر حتى يحدثهم، ومقتضى رواية زهير أنه لم يعلق التحديث على شرط، ويمكن الجمع بين الروايتين بأن عازبا اشترط أولا وأجابه أبو بكر إلى سؤاله، فلما شرعوا في التوجه استنجز عازب منه ما وعده به من التحديث ففعل، قال الخطابي: تمسك بهذا الحديث من استجاز أخذ الأجرة على التحديث؛ وهو تمسك باطل، لأن هؤلاء اتخذوا التحديث بضاعة، وأما الذي وقع بين عازب وأبي بكر فإنما هو على مقتضى العادة الجارية بين التجار بأن أتباعهم يحملون السلعة مع المشتري سواء أعطاهم أجرة أم لا، كذا قال، ولا ريب أن في الاستدلال للجواز بذلك بعدا، لتوقفه على أن عازبا لو استمر على الامتناع من إرسال ابنه لاستمر أبو بكر على الامتناع من التحديث، والله أعلم.

قوله: (فإذا أنا براع) لم أقف على تسميته ولا على تسمية صاحب الغنم، إلا أنه جاء في حديث عبد الله بن مسعود شيء تمسك به من زعم أنه الراعي، وذلك فيما أخرجه أحمد وابن حبان من طريق عاصم، عن زر عن ابن مسعود قال: "كنت أرعى غنما لعقبة بن أبي معيط، فمر بي رسول الله ﷺ وأبو بكر فقال: يا غلام هل من لبن؟ قلت: نعم، ولكني مؤتمن " الحديث وهذا لا يصلح أن يفسر به الراعي في حديث البراء لأن ذاك قيل له: " هل أنت حالب؟ فقال: نعم " وهذا أشار بأنه غير حالب، وذاك حلب من شاة حافل وهذا من شاة لم تطرق ولم تحمل، ثم إن في بقية هذا الحديث ما يدل على أن قصته كانت قبل الهجرة لقوله فيه: " ثم أتيته بعد هذا فقلت: يا رسول الله علمني من هذا القول " فإن هذا يشعر بأنها كانت قبل إسلام ابن مسعود، وإسلام ابن مسعود كان قديما قبل

الهجرة بزمان، فبطل أن يكون هو صاحب القصة في الهجرة، والله أعلم.

قوله: (فشرب حتى رضيت) وقع في رواية أوس عن خديج عن أبي إسحاق " قال أبو إسحاق فتكلم بكلمة والله ما سمعتها من غيره " كأنه يعني قوله: " حتى رضيت " فإنها مشعرة بأنه أمعن في الشرب، وعادته المألوفة كانت عدم الإمعان.

قوله: (قد آن الرحيل يا رسول الله) أي دخل وقته، وتقدم في علامات النبوة " فقال رسول الله ﷺ، ألم يأن للرحيل؟ قلت: بلى " فيجمع بينهما بأن يكون النبي ﷺ بدأ فسأل، فقال له أبو بكر بلى، ثم أعاد عليه بقوله " قد آن الرحيل " قال المهلب بن أبي صفرة: إنما شرب النبي ﷺ من لبن تلك الغنم لأنه كان حينئذ في زمن المكارمة، ولا يعارضه حديثه " **لا يحلبن أحد ماشية أحد إلا بإذنه** " لأن ذلك وقع في زمن التشاح، أو الثاني محمول على التسور والاختلاس والأول لم يقع فيه ذلك بل قدم أبو بكر سؤال الراعي هل أنت حالب؟ فقال: نعم، كأنه سأله هل أذن لك صاحب الغنم في حلبها لمن يرد عليك؟ فقال: نعم أو جرى على العادة المألوفة للعرب في إباحة ذلك والإذن في الحلب على المار ولابن السبيل، فكان كل راع مأذونا له في ذلك.

وقال الداودي: إنما شرب من ذلك على أنه ابن سبيل وله شرب ذلك إذا احتاج، ولا سيما النبي ﷺ وأبعد من قال: إنما استجازه لأنه مال الحربي، لأن القتال لم يكن فرض بعد ولا أبيحت الغنائم.

وقد تقدم شيء من هذه المباحث في هذه المسألة في آخر اللقطة، وفيها الكلام على إباحة ذلك للمسافر مطلقا.

وفي الحديث من الفوائد غير ما تقدم: خدمة التابع الحر للمتبوع في يقظته والذب عنه عند نومه، وشدة محبة أبي بكر للنبي ﷺ وأدبه معه وإيثاره له على نفسه، وفيه أدب الأكل والشرب واستحباب التنظيف لما يؤكل ويشرب، وفيه استصحاب آلة السفر كالإداوة والسفرة ولا يقدح ذلك في

التوكل، وستأتي قصة سراقة في الهجرة مستوفاة إن شاء الله تعالى، وأوردها هنا مختصرة جدا وفي علامات النبوة أتم .

(تنبيه) : أورد الإسماعيلي هذا الحديث عن أبي خليفة عن عبد الله بن رجاء شيخ البخاري فيه فزاد في آخره " ومضى رسول الله ﷺ وأنا معه حتى أتينا المدينة ليلا، فتنازعه القوم أيهم ينزل عليه " فذكر القصة مطولة، وسأذكر ما فيها من الفوائد في " باب الهجرة " إن شاء الله تعالى.

قوله: (تريحون بالعشي، وتسرحون بالغداة) هو تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [النحل: ٦]، وهو تفسير أبي عبيدة في " المجاز " وثبت هذا في رواية الكشميهني وحده، والصواب أن يثبت في حديث عائشة في قصة الهجرة فإن فيه " ويرعى عليها عامر بن فهيرة ويريحهما عليهما " فهذا هو محل شرح هذه اللفظة بخلاف حديث البراء فلم يجر فيه لهذه اللفظة ذكر، والله تعالى أعلم.

الحديث

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سِنَانٍ حَدَّثَنَا هَمَّامٌ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ ﷺ قَالَ قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا فِي الْغَارِ: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا فَقَالَ مَا ظَنُّكَ يَا أَبَا بَكْرٍ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا.

الشرح:

قوله: (عن ثابت) في رواية حبان بن هلال في التفسير عن همام " حدثنا ثابت".

قوله: (عن أنس عن أبي بكر) في رواية حبان المذكورة " حدثنا أنس حدثني أبو بكر".

قوله: (قلت للنبي ﷺ وأنا في الغار) زاد في رواية حبان المذكورة "فرأيت آثار المشركين " وفي رواية موسى بن إسماعيل عن همام في الهجرة "فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم".

قوله: (لو أن أحدهم نظر تحت قدميه) فيه مجيء " لو " الشرطية للاستقبال خلافا للأكثر واستدل من جوزه بمجيء الفعل المضارع بعدها كقوله تعالى: ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ [الحجرات: ٧]، وعلى هذا فيكون قاله حالة وقوفهم على الغار، وعلى القول الأكثر يكون قاله بعد مضيهم شكرا لله تعالى على صيانتهما منهم.

قوله: " لو أن أحدهم نظر تحت قدميه " في رواية موسى " لو أن بعضهم طأطأ بصره " وفي رواية حبان " رفع قدميه " ووقع مثله في حديث حبشي بن جنادة أخرجه ابن عساكر، وهي مشكلة فإن ظاهرها أن باب الغار استتر بأقدامهم، وليس كذلك إلا أن يحمل على أن المراد أنه استتر بثيابهم، وقد أخرجه مسلم من رواية حبان المذكورة بلفظ " لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه " وكذا أخرجه أحمد عن عفان عن همام، ووقع في مغازي عروة بن الزبير في قصة الهجرة قال: " وأتى المشركون على الجبل الذي فيه الغار الذي فيه النبي ﷺ حتى طلعوا فوقه، وسمع أبو بكر أصواهم فأقبل عليه الهم والخوف، فعند ذلك يقول له النبي ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠]ودعا رسول الله ﷺ فنزلت عليه السكينة، وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠] الآية، وهذا يقوي أنه قال: ما في حديث الباب حينئذ، ولذلك أجابه بقوله: ﴿ لَا تَحْزَنْ ﴾ ،

قوله: (ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما) في رواية موسى " **فقال اسكت يا أبا بكر، اثنان الله ثالثهما** " وقوله اثنان خبر مبتدأ محذوف تقديره نحن اثنان، ومعنى ثالثهما ناصرهما ومعينهما، وإلا فالله ثالث كل اثنين بعلمه، وستأتي الإشارة إلى ذلك في تفسير براءة.

وفي الحديث منقبة ظاهرة لأبي بكر، وفيه أن باب الغار كان منخفضا إلا أنه كان ضيقا، فقد جاء في " السير للواقدي " أن رجلا كشف عن فرجه وجلس يبول فقال أبو بكر " **قد رآنا يا رسول الله، قال: لو رآنا لم يكشف**

عن فرجه " وسيأتي مزيد لذلك في قصة الهجرة إن شاء الله تعالى.

(تنبيه) : اشتهر أن حديث الباب تفرد به همام عن ثابت، وممن صرح بذلك الترمذي والبزار، وقد أخرجه ابن شاهين في " الأفراد " من طريق جعفر بن سليمان عن ثابت بمتابعة همام، وقد قدمت له شاهدا من حديث حبشي بن جنادة، ووجدت له آخر عن ابن عباس أخرجه الحاكم في "الإكليل".

بَاب قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ سُدُّوا الأَبْوَابَ إِلاَّ بَابَ أَبِي بَكْرٍ

قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ عَنَ النَّبِيِّ ﷺ.

الشرح:

قوله: (باب قول النبي ﷺ سدوا الأبواب، إلا باب أبي بكر، قاله ابن عباس عن النبي ﷺ) وصله المصنف في الصلاة بلفظ " **سدوا عني كل خوخة** " فكأنه ذكره بالمعنى.

الحديث

حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ حَدَّثَنَا أَبُو عَامِرٍ حَدَّثَنَا فُلَيْحٌ قَالَ: حَدَّثَنِي سَالِمٌ أَبُو النَّضْرِ عَنْ بُسْرِ بْنِ سَعِيدٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ: خَطَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّاسَ وَقَالَ إِنَّ اللَّهَ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ ذَلِكَ الْعَبْدُ مَا عِنْدَ اللَّهِ قَالَ فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ فَعَجِبْنَا لِبُكَائِهِ أَنْ يُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ عَبْدٍ خُيِّرَ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: هُوَ الْمُخَيَّرَ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً غَيْرَ رَبِّي لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ لا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلاَّ سُدَّ إِلاَّ بَابَ أَبِي بَكْرٍ.

الشرح:

قوله: **(حدثنا أبو عامر)** هو العقدي و(فليح) هو ابن سليمان، وهو ومن فوقه مدنيون.

قوله: (عن عبيد بن حنين) [1] تقدم بيان الاختلاف في إسناده في "باب الخوخة في المسجد " في أوائل الصلاة.

قوله: (خطب رسول الله ﷺ) في رواية مالك عن أبي النضر الآتية في الهجرة إلى المدينة " جلس على المنبر فقال " وفي حديث ابن عباس الماضي تلو حديث أبي سعيد في " باب الخوخة " من أوائل الصلاة " في مرضه الذي مات فيه " ولمسلم من حديث جندب " سمعت النبي ﷺ يقول قبل أن يموت بخمس ليال " وفي حديث أبي بن كعب الذي سأنبه عليه قريبا " إن أحدث عهدي بنبيكم قبل وفاته بثلاث " فذكر الحديث في خطبة أبي بكر، وهو طرف من هذا، وكأن أبا بكر ﷺ فهم الرمز الذي أشار به النبي ﷺ من قرينة ذكره ذلك في مرض موته، فاستشعر منه أنه أراد نفسه فلذلك بكى.

قوله: (بين الدنيا وبين ما عنده) في رواية مالك المذكورة " بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده".

قوله: (فعجبنا لبكائه) وقع في رواية محمد بن سنان في "باب الخوخة" المذكورة " فقلت في نفسي " وفي رواية مالك " فقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله ﷺ عن عبد، وهو يقول فديناك " ويجمع بأن أبا سعيد حدث نفسه بذلك فوافق تحديث غيره بذلك فنقل جميع ذلك.

قوله: (وكان أبو بكر أعلمنا) في رواية مالك " وكان أبو بكر هو أعلمنا به " أي بالنبي ﷺ، أو بالمراد من الكلام المذكور، زاد في رواية محمد ابن سنان " **فقال: يا أبا بكر، لا تبك**".

قوله: (إن أمن الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر) في رواية مالك كذلك.

وفي رواية محمد بن سنان " **إن من أمن الناس علي** " بزيادة من.

---

(١) في هامش طبعة بولاق: كذا في النسخ التي بأيدينا وهو غير مذكور في سند الصحيح الذي بأيدينا.

وقال فيها " أبا بكر " بالنصب للأكثر، ولبعضهم " أبو بكر " بالرفع، وقد قيل: إن الرفع خطأ والصواب النصب لأنه اسم إن، ووجه الرفع بتقدير ضمير الشأن أي إنه، والجار والمجرور بعده خبر مقدم وأبو بكر مبتدأ مؤخر، أو على أن مجموع الكنية اسم فلا يعرب ما وقع فيها من الأداة أو " إن " بمعنى نعم أو إن " من " زائدة على رأي الكسائي.

وقال ابن بري: يجوز الرفع إذا جعلت من صفة لشيء محذوف تقديره إن رجلا أو إنسانا من أمن الناس فيكون اسم إن محذوفا والجار والمجرور في موضع الصفة، وقوله: " أبو بكر " الخبر، وقوله "أمن " أفعل تفضيل من المن بمعنى العطاء والبذل، بمعنى إن أبذل الناس لنفسه وماله، لا من المنة التي تفسد الصنيعة، وقد تقدم تقرير ذلك في " باب الخوخة " وأغرب الداودي فشرحه على أنه من المنة وقال: تقديره لو كان يتوجه لأحد الامتنان على نبي الله ﷺ لتوجه له، والأول أولى.

وقوله: " أمن الناس " في رواية الباب ما يوافق حديث ابن عباس بلفظ **" ليس أحد من الناس أمن علي في نفسه وماله من أبي بكر "** وأما الرواية التي فيها " من " فإن قلنا زائدة فلا تخالف، وإلا فتحمل على أن المراد أن لغيره مشاركة ما في الأفضلية إلا أنه مقدم في ذلك بدليل ما تقدم من السياق وما تأخر، ويؤيده ما رواه الترمذي من حديث أبي هريرة بلفظ **" ما لأحد له عندنا يد إلا كافأناه عليها؛ ما خلا أبا بكر فإن له عندنا يدا يكافئه الله بها يوم القيامة "** فإن ذلك يدل على ثبوت يد لغيره، إلا أن لأبي بكر رجحانا.

فالحاصل أنه حيث أطلق أراد أنه أرجحهم في ذلك، وحيث لم يطلق أراد الإشارة إلى من شاركه في شيء من ذلك، ووقع بيان ذلك في حديث آخر لابن عباس رفعه نحو حديث الترمذي وزاد **"منة أعتق بلالا ومنة هاجر بنبيه"** أخرجه الطبراني، وعنه في طريق أخرى **"ما أحد أعظم عندي يدا من أبي بكر: واساني بنفسه وماله، وأنكحني ابنته"** أخرجه الطبراني، وفي حديث

مالك بن دينار عن أنس رفعه " **إن أعظم الناس علينا منا أبو بكر، زوجني ابنته، وواساني بنفسه.**

وإن خير المسلمين مالا أبو بكر، أعتق منه بلالا، وحملني إلى دار الهجرة " أخرجه ابن عساكر.

وأخرج من رواية ابن حبان التيمي عن أبيه عن علي نحوه، وجاء عن عائشة مقدار المال الذي أنفقه أبو بكر، فروى ابن حبان من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت " أنفق أبو بكر على النبي ﷺ أربعين ألف درهم " وروى الزبير بن بكار عن عروة عن عائشة " أنه لما مات ما ترك دينارا ولا درهما".

قوله: (لو كنت متخذا خليلا) يأتي الكلام عليه بعد باب، قال الداودي: لا ينافي هذا قول أبي هريرة وأبي ذر وغيرهما " أخبرني خليلي ﷺ»، لأن ذلك جائز لهم، ولا يجوز للواحد منهم أن يقول أنا خليل النبي ﷺ ولهذا يقال: إبراهيم خليل الله ولا يقال: الله خليل إبراهيم.

قلت: ولا يخفى ما فيه.

قوله: (ولكن أخوة الإسلام ومودته) أي حاصلة، ووقع في حديث ابن عباس الآتي بعد باب " أفضل " وكذا أخرجه الطبراني من طريق عبيد الله ابن تمام عن خالد الحذاء بلفظ " **ولكن أخوة الإيمان والإسلام أفضل** " وأخرجه أبو يعلى من طريق يعلى بن حكيم عن عكرمة بلفظ " **ولكن خلة الإسلام أفضل** " وفيه إشكال، فإن الخلة أفضل من أخوة الإسلام لأنها تستلزم ذلك وزيادة، فقيل المراد أن مودة الإسلام مع النبي ﷺ أفضل من مودته مع غيره، وقيل: أفضل بمعنى فاضل، ولا يعكر على ذلك اشتراك جميع الصحابة في هذه الفضيلة لأن رجحان أبي بكر عرف من غير ذلك، وأخوة الإسلام ومودته متفاوتة بين المسلمين في نصر الدين وإعلاء كلمة الحق وتحصيل كثرة الثواب، ولأبي بكر من ذلك أعظمه وأكثره، والله أعلم.

ووقع في بعض الروايات " ولكن خوة الإسلام " بغير ألف فقال ابن بطال: لا أعرف معنى هذه الكلمة و لم أجد خوة بمعنى خلة في كلام العرب، وقد وجدت في بعض الروايات " **ولكن خلة الإسلام** " وهو الصواب. وقال ابن التين: لعل الألف سقطت من الرواية فإنها ثابتة في سائر الروايات، ووجه ابن مالك بأنه نقلت حركة الهمزة إلى النون فحذف الألف، وجوز مع حذفها ضم نون لكن وسكونها، قال: ولا يجوز مع إثبات الهمزة إلا سكون النون فقط.

وفي قوله: " **ولو كنت متخذا خليلا إلخ** " منقبة عظيمة لأبي بكر لم يشاركه فيها أحد.

ونقل ابن التين عن بعضهم أن معنى قوله: " **ولو كنت متخذا خليلا** " لو كنت أخص أحدا بشيء من أمر الدين لخصصت أبا بكر، قال: وفيه دلالة على كذب الشيعة في دعواهم أن النبي ﷺ كان خص عليًّا بأشياء من القرآن وأمور الدين لم يخص بها غيره.

قلت: والاستدلال بذلك متوقف على صحة التأويل المذكور وما بعدها.

قوله: (لا يبقين) بفتح أوله وبنون التأكيد، وفي إضافة النهي إلى الباب تجوز لأن عدم بقائه لازم للنهي عن إبقائه، فكأنه قال: لا تبقوه حتى لا يبقى. وقد رواه بعضهم بضم أوله وهو واضح.

قوله: (إلا سد) بضم المهملة.

وفي رواية مالك " خوخة " بدل " باب " والخوخة طاقة في الجدار تفتح لأجل الضوء ولا يشترط علوها، وحيث تكون سفلى يمكن الاستطراق منها لاستقراب الوصول إلى مكان مطلوب، وهو المقصود هنا، ولهذا أطلق عليها باب، وقيل: لا يطلق عليها باب إلا إذا كانت تغلق.

قوله: (إلا باب أبي بكر) هو استثناء مفرغ، والمعنى لا تبقوا بابا غير

مسدود إلا باب أبي بكر فاتركوه بغير سد، قال الخطابي وابن بطال وغيرهما: في هذا الحديث اختصاص ظاهر لأبي بكر، وفيه إشارة قوية إلى استحقاقه للخلافة، ولا سيما وقد ثبت أن ذلك كان في آخر حياة النبي ﷺ في الوقت الذي أمرهم فيه أن لا يؤمهم إلا أبو بكر.

وقد ادعى بعضهم أن الباب كناية عن الخلافة والأمر بالسد كناية عن طلبها كأنه قال: لا يطلبن أحد الخلافة إلا أبا بكر فإنه لا حرج عليه في طلبها، وإلى هذا جنح ابن حبان فقال بعد أن أخرج هذا الحديث: في هذا دليل على أنه الخليفة بعد النبي ﷺ، لأنه حسم بقوله: " **سدوا عني كل خوخة في المسجد** " أطماع الناس كلهم عن أن يكونوا خلفاء بعده.

وقوى بعضهم ذلك بأن منزل أبي بكر كان بالسنح من عوالي المدينة كما سيأتي قريبا بعد باب فلا يكون له خوخة إلى المسجد، وهذا الإسناد ضعيف لأنه لا يلزم من كون منزله كان بالسنح أن لا يكون له دار مجاورة للمسجد، ومنزله الذي كان بالسنح هو منزل أصهاره من الأنصار، وقد كان له إذ ذاك زوجة أخرى وهي أسماء بنت عميس بالاتفاق وأم رومان على القول بأنها كانت باقية يومئذ.

وقد تعقب المحب الطبري كلام ابن حبان فقال: وقد ذكر عمر بن شبة في " أخبار المدينة " أن دار أبي بكر التي أذن له في إبقاء الخوخة منها إلى المسجد كانت ملاصقة للمسجد ولم تزل بيد أبي بكر حتى احتاج إلى شيء يعطيه لبعض من وفد عليه فباعها فاشترتها منه حفصة أم المؤمنين بأربعة آلاف درهم فلم تزل بيدها إلى أن أرادوا توسيع المسجد في خلافة عثمان فطلبوها منها ليوسعوا بها المسجد فامتنعت وقالت: كيف بطريقي إلى المسجد؟ فقيل لها نعطيك دارا أوسع منها ونجعل لك طريقا مثلها، فسلمت ورضيت.

قوله: (إلا باب أبي بكر) زاد الطبراني من حديث معاوية في آخر هذا الحديث بمعناه " **فإني رأيت عليه نورا** ".

أقوال المفسرين في آيات الإفك

١ – قول الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى [١]:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١١] [٢].

هذه العشر آيات كلها نزلت في شأن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التي غار الله عز وجل لها ولنبيه صلوات الله وسلامه عليه، فأنزل الله تعالى براءتها صيانة لعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ أي جماعة منكم يعلن ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة، فكان المقدم في هذه اللعنة عبد الله بن أبيّ ابن سلول رأس المنافقين، فإنه كان يجمعه ويستوشيه، حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين فتكلموا به، وجوزه آخرون منهم، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر حتى نزل القرآن، وبيان ذلك في الأحاديث الصحيحة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن الزهري قال: أخبرني سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير وعلقمة بن وقاص وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن حديث عائشة زوج النبي ﷺ حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله تعالى، وكلهم قد حدثني بطائفة من حديثها، وبعضهم كان أوعى لحديثها من بعض وأثبت له اقتصاصا، وقد وعيت عن كل رجل منهم الحديث الذي حدثني عن عائشة وبعض حديثهم يصدق بعضاً، ذكروا أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها، خرج

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٢٧٦ – ٢٨٦).

(٢) الإفك: الكذب.

بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة رضي الله عنها: فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، وخرجت مع رسول الله ﷺ وذلك بعدما أنزل الحجاب، فأنا أحمل في هودجي وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة، آذن ليلة بالرحيل فقمت حين آذن بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري، فإذا عقد لي من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدي، فحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونني فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب، وهم يحسبون أني فيه.

قالت: وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلنّ ولم يغشهن اللحم، إنما يأكلن العلقة من الطعام، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا ووجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أن القوم سيفقدونني فيرجعون إلي، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيناي فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني قد عرس من وراء الجيش، فأدلج فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وكان قد رآني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته، فوطئ على يدها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين في نحر الظهيرة، فهلك من هلك في شأني، وكان الذي تولى كبره عبد الله بن أبي ابن سلول، فقدمنا المدينة فاشتكيت حين قدمناها شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني في وجعي أني لا أرى من رسول الله ﷺ اللطف الذي أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول **«كيف تيكم ؟»**.

فذلك الذي يريبني ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت، وخرجت معي أم مسطح قبل المناصع وهو متبرزنا ولا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريباً من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في التنزه في البرية وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها في بيوتنا، فانطلقت أنا وأم مسطح وهي بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها ابنة صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب، فأقبلت أنا وابنة أبي رهم أم مسطح قبل بيتي حين فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئسما قلت تسبين رجلاً شهد بدراً؟ فقالت: أي هنتاه ألم تسمعي ما قال ؟ قلت: وماذا قال ؟

قالت: فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً إلى مرضي، فلما رجعت إلى بيتي دخل عليّ رسول الله ﷺ، ثم قال «كيف تيكم ؟» فقلت له: أتأذن لي أن آتي أبوي ؟ قالت: وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لي رسول الله ﷺ، فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمتاه ماذا يتحدث الناس به ؟ فقالت: أي بنية هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها.

قالت: فقلت: سبحان الله أوقد تحدث الناس بها؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، ثم أصبحت أبكي، قالت: فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث يسألهما الوحي ويستشيرهما في فراق أهله، قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود.

فقال أسامة: يا رسول الله أهلك ولا نعلم إلا خيراً، وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك الخبر، قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال «أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك من عائشة ؟» فقالت له بريرة: والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة

السن، تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله. فقام رسول الله ﷺ من يومه، فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول، قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر «**يامعشر المسلمين من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهلي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي؟**» فقام سعد بن معاذ الأنصاري ﷺ فقال: أنا أعذرك منه يا رسول الله إن كان من الأوس ضربنا عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا بأمرك، قالت: فقام سعد ابن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية فقال لسعد بن معاذ: كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتثاور الحيان: الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله ﷺ.

قالت: وبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواي يظنان أن البكاء فالق كبدي، قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنت عليّ امرأة من الأنصار، فأذنت لها فجلست تبكي معي، فبينا نحن على ذلك إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء، قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال «**أما بعد يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله ثم توبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبٍ ثم تاب، تاب الله عليه**».

قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته، قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ، فقال: والله ما أدري ما أقول

لرسول الله ﷺ فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله ﷺ فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، قالت: فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أحفظ كثيراً من القرآن: والله لقد عرفت، أنكم قد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة والله يعلم أني بريئة لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أني منه بريئة لتصدقني، وإني والله ما أجد لي ولكم مثلاً إلا كما قال أبو يوسف: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨].

قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت: وأنا والله حينئذ أعلم أني بريئة وأن الله تعالى مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل في شأني وحي يتلى، ولشأني كان أحقر في نفسي من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها.

قالت: فوالله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحي حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق وهو في يوم شاتٍ من ثقل القول الذي أنزل عليه، قالت: فلما سُرّي عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «**أبشري يا عائشة أما الله عز وجل فقد برأك؟**» قالت: فقالت لي أمي: قومي إليه، فقلت: والله إني لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل هو الذي أنزل براءتي، وأنزل الله عز وجل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ [النور: ١١] العشر آيات كلها، فأنزل الله هذه الآيات في براءتي قالت: فقال أبو بكر رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح ابن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله تعالى ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢] فقال أبو بكر: بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب بنت جحش زوج النبي ﷺ عن أمري، فقال «**يا زينب ماذا علمت أو رأيت ؟**» فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، والله ما علمت إلا خيراً، قالت عائشة: وهي التي كانت تساميني من أزواج النبي ﷺ فعصمها الله تعالى بالورع، وطفقت أختها حمنة بنت جحش تحارب لها، فهلكت فيمن هلك». قال ابن شهاب: فهذا ما انتهى إلينا من أمر هؤلاء الرهط، أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث الزهري، وهكذا رواه ابن إسحاق عن الزهري، كذلك قال: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها، وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري عن عمرة، عن عائشة بنحو ما تقدم، والله أعلم.

ثم قال البخاري وقال أبو أسامة عن هشام بن عروة قال: «أخبرني أبي عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما ذكر من شأني الذي ذكر وما علمت به، قام رسول الله ﷺ فيّ خطيباً، فتشهد فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: **أما بعد أشيروا علي في أناس أبنوا أهلي، وايم الله ما علمت على أهلي إلا خيراً، وما علمت على أهلي من سوء وأبنوهم بمن والله ما علمت عليه من سوء قط ولا يدخل بيتي قط إلا وأنا حاضر، ولا غبت في سفر إلا غاب معي**، فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ائذن لنا أن نضرب أعناقهم، فقام رجل من الخزرج وكانت أم حسان بن ثابت من رهط ذلك الرجل، فقال: كذبت أما والله لو كانوا من الأوس ما أحببت أن تضرب أعناقهم، حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شر في المسجد وما علمت، فلما كان مساء ذلك اليوم خرجت لبعض حاجتي ومعي أم مسطح، فعثرت فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: أي أم تسبين ابنك ؟ فسكتت، ثم عثرت الثانية فقالت: تعس مسطح فقلت لها: أي أم تسبين ابنك ؟ ثم عثرت الثالثة فقالت: تعس مسطح فانتهرتها، فقالت: والله ما أسبه إلا فيك، فقلت: في أي شأني ؟ قالت: فبقرت لي الحديث، فقلت: وقد كان هذا ؟ قالت: نعم والله.

فرجعت إلى بيتي كأن الذي خرجت له لا أجد منه قليلاً ولا كثيراً، ووعكت وقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلني إلى بيت أبي، فأرسل معي الغلام، فدخلت الدار فوجدت أم رومان في السفل، وأبا بكر فوق البيت يقرأ، فقالت أم رومان: ماجاء بك بنية، فأخبرتها وذكرت لها الحديث، وإذا هو لم يبلغ منها مثل الذي بلغ مني، فقالت: يابنية خففي عليك الشأن فإنه والله لقل ما كانت امرأة قط حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلا حسدنها، وقيل فيها، فقلت: وقد علم به أبي ؟ قالت: نعم. قلت: ورسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قالت: نعم ورسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستعبرت وبكيت، فسمع أبو بكر صوتي وهو فوق البيت يقرأ، فنزل فقال لأمي: ما شأنها ؟ قالت: بلغها الذي ذكر من شأنها، ففاضت عيناه رضي الله عنه وقال: أقسمت عليك - أي بنية - إلا رجعت إلى بيتك، فرجعت، ولقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتي فسأل عني خادمتي فقالت: لا والله ما علمت عليها عيباً إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خميرها أو عجينها، وانتهرها بعض أصحابه فقال: اصدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسقطوا لها به.

فقالت: سبحان الله، والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ عن تبر الذهب الأحمر، وبلغ الأمر ذلك الرجل الذي قيل له، فقال: سبحان الله، والله ما كشفت كنف أنثى قط.

قالت عائشة رضي الله عنها: فقتل شهيداً في سبيل الله قالت: وأصبح أبواي عندي فلم يزالا حتى دخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صلى العصر، ثم دخل وقد اكتنفني أبواي عن يميني وعن شمالي فحمد الله تعالى وأثنى عليه، ثم قال: «**أما بعد يا عائشة إن كنت قارفت سوءاً أو ظلمت فتوبي إلى الله، فإن الله يقبل التوبة عن عباده**» قالت: وقد جاءت امرأة من الأنصار فهي جالسة بالباب فقلت: ألا تستحيي من هذه المرأة أن تذكر شيئاً ؟ فوعظ رسول الله صلى الله عليه وسلم فالتفت إلى أبي فقلت له:

أجبه قال: فماذا أقول ؟ فالتفت إلى أمي فقلت: أجيبيه قالت: ماذا أقول ؟ فلما لم يجيباه تشهدت فحمدت الله وأثنيت عليه بما هو أهله، ثم قلت: أما بعد: فوالله إن قلت لكم: إني لم أفعل والله عز وجل يشهد أني لصادقة ما ذاك بنافعي عندكم، لقد تكلمتم به وأشربته قلوبكم، وإن قلت لكم: إني قد فعلت، والله يعلم أني لم أفعل، لتقولن قد باءت به على نفسها، وإنني والله ما أجد لي ولكم مثلاً، والتمست اسم يعقوب فلم أقدر عليه إلا أبا يوسف حين قال ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨] وأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم من ساعته، فسكتنا فرفع عنه وإني لأتبين السرور في وجهه وهو يمسح جبينه ويقول «**أبشري يا عائشة فقد أنزل الله براءتك**» قالت: وكنت أشد ما كنت غضباً فقال لي أبواي: قومي إليه، فقلت: لا والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمدكما، ولكن أحمد الله الذي أنزل براءتي لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه.

وكانت عائشة تقول: أما زينب بنت جحش فقد عصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيراً، وأما أختها حمنة بنت جحش فهلكت فيمن هلك، وكان الذي يتكلم به مسطح وحسان بن ثابت، وأما المنافق عبد الله بن أبي ابن سلول، وهو الذي كان يستوشيه ويجمعه، وهو الذي تولى كبره منهم هو وحمنة، قالت: فحلف أبو بكر أن لا ينفع مسطحاً بنافعة أبداً، فأنزل الله تعالى ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ ﴾ يعني أبا بكر ﴿ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ ﴾ يعني مسطحاً إلى قوله: ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢] فقال أبو بكر: بلى والله يا ربنا إنا لنحب أن تغفر لنا، وعاد له بما كان يصنع». هكذا رواه البخاري من هذا الوجه معلقاً بصيغة الجزم عن أبي أسامة حماد بن أسامة أحد الأئمة الثقات، وقد رواه ابن جرير في تفسيره عن سفيان بن وكيع عن أبي أسامة به مطولاً مثله أو نحوه، ورواه ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الأشج عن أبي أسامة ببعضه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، أخبرنا عمرو بن أبي سلمة عن أبيه

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما نزل عذري من السماء جاءني النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرني بذلك، فقلت: بحمد الله لا بحمدك». وقال الإمام أحمد: حدثنا ابن أبي عدي عن محمد بن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن عمرة أيضاً عن عائشة قالت: «لما نزل عذري قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك وتلا القرآن، فلما نزل أمر برجلين وامرأة فضربوا حدهم»، وأخرجه أهل السنن الأربعة، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، ووقع عند أبي داود تسميتهم: حسان ابن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش، فهذه طرق متعددة عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في المسانيد والصحاح والسنن وغيرها.

وقد روي من حديث أمها أم رومان رضي الله عنها، فقال الإمام أحمد: حدثنا علي بن عاصم، أخبرنا حصين عن أبي وائل عن مسروق عن أم رومان، قالت: «بينا أنا عند عائشة إذ دخلت علينا امرأة من الأنصار فقالت: فعل الله بابنها وفعل، فقالت عائشة: ولم ؟ قالت: إنه كان فيمن حدث الحديث، قالت: وأي الحديث ؟ قالت: كذا وكذا، قالت: وقد بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت: نعم، قالت: وبلغ أبا بكر ؟ قالت: نعم، فخرت عائشة رضي الله عنها مغشياً عليها، فما أفاقت إلا وعليها حمى بنافض، فقمت فدثرتها، قالت: فجاء النبي صلى الله عليه وسلم قال «**فما شأن هذه ؟**» فقلت: يا رسول الله أخذتها حمى بنافض، قال «**فلعله في حديث تحدث به**» قالت: فاستوت له عائشة قاعدة، فقالت: والله لئن حلفت لكم لا تصدقوني، ولئن اعتذرت إليكم لا تعذروني، فمثلي ومثلكم كمثل يعقوب وبنيه حين قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾[يوسف: ١٨].

قالت: فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنزل الله عذرها، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر، فدخل فقال: «**يا عائشة إن الله تعالى قد أنزل عذرك**» فقالت: بحمد الله لا بحمدك، فقال لها أبو بكر: تقولين هذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت: نعم، قالت: فكان فيمن حدث هذا الحديث رجل كان يعوله أبو بكر فحلف أن لا يصله، فأنزل الله

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ ﴾ [النور: ٢٢] إلى آخر الآية، فقال أبو بكر: بلى فوصله»، تفرد به البخاري دون مسلم من طريق حصين.

وقد رواه البخاري عن موسى بن إسماعيل عن أبي عوانة وعن محمد بن سلام عن محمد بن فضيل كلاهما عن حصين به: وفي لفظ أبي عوانة حدثتني أم رومان، وهذا صريح في سماع مسروق منها، وقد أنكر ذلك جماعة من الحفاظ منهم الخطيب البغدادي، وذلك لما ذكره أهل التاريخ أنها ماتت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم قال الخطيب: وقد كان مسروق يرسله فيقول: سئلت أم رومان ويسوقه فلعل بعضهم كتب سئلت بألف اعتقد الراوي أنها سألت فظنه متصلاً، قال الخطيب: وقد رواه البخاري كذلك و لم تظهر له علته كذا قال، والله أعلم.

ورواه بعضهم عن مسروق عن عبد الله بن مسعود عن أم رومان فالله أعلم.

فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ ﴾ أي بالكذب والبهت والافتراء ﴿ عُصْبَةٌ ﴾ أي جماعة منكم ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ﴾ أي يا آل أبي بكر ﴿ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النور:١١] أي في الدنيا والآخرة لسان صدق في الدنيا ورفعة منازل في الآخرة وإظهار شرف لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم الذي﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت:٤٢]، ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رضي الله عنه وعنها وهي في سياق الموت، قال لها: أبشري فإنك زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يحبك و لم يتزوج بكراً غيرك، وأنزل براءتك من السماء.

وقال ابن جرير في تفسيره: حدثني محمد بن عثمان الواسطي، حدثنا جعفر بن عون عن المعلى بن عرفان عن محمد بن عبد الله بن جحش قال: تفاخرت عائشة وزينب رضي الله عنهما فقالت زينب: أنا التي نزل تزويجي من السماء، وقالت عائشة: أنا التي نزل عذري في كتاب الله حين حملني صفوان بن المعطل على الراحلة، فقالت لها زينب: يا عائشة ما قلت حين

ركبتيها ؟ قالت: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل، قالت: قلت: كلمة المؤمنين».

وقوله تعالى:﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ﴾ أي لكل من تكلم في هذه القضية ورمى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بشيء من الفاحشة نصيب عظيم من العذاب ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ قيل ابتدأ به، وقيل الذي كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه﴿ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١١] أي على ذلك، ثم الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله ابن أبي ابن سلول قبحه الله تعالى ولعنه، وهو الذي تقدم النص عليه في الحديث، وقال ذلك مجاهد وغير واحد، وقيل المراد به حسان بن ثابت، وهو قول غريب، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يدل على ذلك، لما كان لإيراده كبير فائدة، فإنه من الصحابة الذين لهم فضائل ومناقب ومآثر، وأحسن مآثره أنه كان يذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشعره، وهو الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم «**هاجهم وجبريل معك**». وقال الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال: «كنت عند عائشة رضي الله عنها، فدخل حسان بن ثابت، فأمرت فألقي له وسادة، فلما خرج قلت لعائشة: ما تصنعين بهذا ؟ يعني يدخل عليك، وفي رواية قيل لها: أتأذنين لهذا يدخل عليك، وقد قال الله ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور:١١] قالت: وأي عذاب أشد من العمى، وكان قد ذهب بصره، لعل الله أن يجعل ذلك هو العذاب العظيم ثم قالت: إنه كان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي رواية أنه أنشدها عندما دخل عليها شعراً يمتدحها به، فقال:

حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فقالت: أما أنت فلست كذلك، وفي رواية، لكنك لست كذلك، وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن قزعة، حدثنا سلمة بن علقمة، حدثنا داود عن عامر عن عائشة أنها قالت: ما سمعت بشعر أحسن من شعر حسان، ولا

تمثلت به إلا رجوت له الجنة قوله لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء

فإن أبي ووالده وعرضـــي لعرض محمد منكم وقاء

أتشتمه ولست له بكفء ؟ فشركما لخيركما الفداء

لساني صارم لا عيب فيه وبحري لا تكدره الدلاء

فقيل: يا أم المؤمنين أليس هذا لغواً ؟ قالت: لا إنما اللغو ما قيل عند النساء، قيل: أليس الله يقول ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور:١١] قالت: أليس قد أصابه عذاب عظيم ؟ أليس قد ذهب بصره، وكنع بالسيف؟ تعني الضربة التي ضربه إياها صفوان بن المعطل السلمي حين بلغه عنه أنه يتكلم في ذلك، فعلاه بالسيف وكاد أن يقتله».

﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ [النور:١٢، ١٣].

هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة رضي الله عنها حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السَّيِّئ، وما ذكر من شأن الإفك فقال تعالى: ﴿ لَّوْلَآ ﴾ يعني هلا ﴿ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ أي ذلك الكلام الذي رميت به أم المؤمنين رضي الله عنها ﴿ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ أي قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى.

وقد قيل: إنها نزلت في أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامرأته رضي الله عنهما، كما قال الإمام محمد بن إسحاق بن يسار عن أبيه عن بعض رجال بني النجار: «إن أبا أيوب خالد بن زيد الأنصاري قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها ؟ قال: نعم وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت: لا والله ما كنت

لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك، قال: فلما نزل القرآن ذكر عز وجل من قال في الفاحشة ما قال من أهل الإفك﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٌ مِّنكُمۡ ﴾ [النور: ١١] وذلك حسان وأصحابه الذين قالوا ما قالوا، ثم قال تعالى: ﴿ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [النور: ١٢]، أي كما قال أبو أيوب وصاحبته».

وقال محمد بن عمر الواقدي: حدثني ابن أبي حبيب عن داود بن الحصين عن أبي سفيان عن أفلح مولى أبي أيوب «أن أم أيوب قالت لأبي أيوب: ألا تسمع ما يقول الناس في عائشة ؟ قال: بلى وذلك الكذب أفكنت يا أم أيوب فاعلة ذلك ؟ قالت: لا والله، قال: فعائشة والله خير منك، فلما نزل القرآن وذكر أهل الإفك قال الله عز وجل: ﴿ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴾ [النور: ١٢] يعني أبا أيوب حين قال لأم أيوب ما قال، ويقال إنما قالها أبيّ بن كعب».

وقوله تعالى: ﴿ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ إلخ أي هلا ظنوا الخير فإن أم المؤمنين أهله وأولى به، هذا ما يتعلق بالباطن، وقوله ﴿ وَقَالُواْ ﴾ أي بألسنتهم ﴿ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴾ [النور: ١٢] أي كذب ظاهر على أم المؤمنين رضي الله عنها، فإن الذي وقع لم يكن ريبة، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطل في وقت الظهيرة، والجيش بكماله يشاهدون ذلك، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم، ولو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هكذا جهرة ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رءوس الأشهاد، بل كان هنا يكون هذا لو قدر خفية مستوراً، فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رموا به أم المؤمنين هو الكذب البحت، والقول الزور، والرعونة الفاحشة الفاجرة، والصفقة الخاسرة، قال الله تعالى: ﴿ لَّوۡلَآ ﴾ أي هلا ﴿ جَآءُو عَلَيۡهِ ﴾ أي على ما قالوه ﴿ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ [النور: ١٢] يشهدون على صحة ما جاءوا به ﴿ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴾

[النور: ١٣] أي في حكم الله كاذبون فاجرون.

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٤، ١٥].

يقول تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أيها الخائضون في شأن عائشة بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه في الدنيا وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة ﴿ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ ﴾ من قضية الإفك ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٤] وهذا فيمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة إليه، كمسطح وحسان وحمنة بنت جحش أخت زينت بنت جحش، فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبي ابن سلول وأضرابه، فليس أولئك مرادين في هذه الآية، لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه، وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين يكون مطلقاً مشروطاً بعدم التوبة أو ما يقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجح عليه.

ثم قال تعالى: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ قال مجاهد وسعيد بن جبير: أي يرويه بعضكم عن بعض، يقول هذا: سمعته من فلان، وقال فلان كذا، وذكر بعضهم كذا، وقرأ آخرون ﴿ إِذْ تَلِقُونَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ وفي صحيح البخاري عن عائشة أنها كانت تقرؤها كذلك، وتقول: هو من ولق اللسان يعني الكذب الذي يستمر صاحبه عليه، تقول العرب: ولق فلان في السير إذا استمر فيه، والقراءة الأولى أشهر وعليها الجمهور، ولكن الثانية مروية عن أم المؤمنين عائشة، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة عن نافع عن ابن عمر عن ابن أبي مليكة «عن عائشة: أنها كانت تقرأ ﴿ إِذْ تَلِقُونَهُ ﴾ [النور: ١٥] وتقول: إنما هو ولق القول ــ والولق الكذب ــ».

قال ابن أبي مليكة: هي أعلم به من غيرها.

وقوله تعالى: ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أي تقولون ما لا تعلمون، ثم قال تعالى:﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٥] أي تقولون ما تقولون في شأن أم المؤمنين وتحسبون ذلك يسيراً سهلاً ولو لم تكن زوجة النبي ﷺ لما كان هيناً، فكيف وهي زوجة النبي الأمي خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ؟ فعظيم عند الله أن يقال في زوجة رسوله ما قيل ! فإن الله سبحانه وتعالى يغار لهذا، وهو سبحانه وتعالى لا يقدّر على زوجة نبي من الأنبياء ذلك حاشا وكلا، ولما لم يكن ذلك، فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة ؟ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور:١٥] وفي الصحيحين «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يدري ما تبلغ، يهوي بها في النار أبعد مما بين السماء والأرض**». وفي رواية «**لا يلقي لها بالاً**».

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور: ١٦ - ١٨].

هذا تأديب آخر بعد الأول الآمر بظن الخير، أي إذا ذكر ما لا يليق من القول في شأن الخيرة فأولى ينبغي الظن بهم خيراً، وأن لا يشعر نفسه سوى ذلك، ثم إن علق بنفسه شيء من ذلك وسوسة أو خيالاً، فلا ينبغي أن يتكلم به، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «**إن الله تعالى تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل**» أخرجاه في الصحيحين، وقال الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ﴾ أي ما ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ﴿ سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٦] أي سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسوله وحليلة خليله.

ثم قال تعالى: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ أي ينهاكم الله متوعداً أن يقع منكم ما يشبه هذا أبداً أي فيما يستقبل، فلهذا قال ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه، وتعظمون رسوله ﷺ، فأما من كان متصفاً بالكفر فله حكم آخر، ثم قال تعالى: ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾ أي يوضح لكم الأحكام الشرعية والحكم القدرية ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور: ١٨] أي عليم بما يصلح عباده، حكيم في شرعه وقدره.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور:١٩].

هذا تأديب ثالث لمن سمع شيئاً من الكلام السيّئ، فقام بذهنه شيء منه وتكلم به فلا يكثر منه ولا يشيعه ويذيعه، فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ أي بالحد وفي الآخرة بالعذاب الأليم ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي فردوا الأمور إليه ترشدوا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن بكر، حدثنا ميمون بن موسى المرائي، حدثنا محمد بن عباد المخزومي عن ثوبان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «**لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم، ولا تطلبوا عوراتهم، فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته، حتى يفضحه في بيته**».

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٢٠، ٢١].

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٠] أي لولا هذا لكان أمر آخر، ولكنه تعالى رءوف بعباده

رحيم بهم، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية، وطهر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليهم، ثم قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾ يعني طرائقه ومسالكه وما يأمر به ﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [النور: ٢١] هذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة وأبلغها وأوجزها وأحسنها، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾ [النور: ٢١] عمله، وقال عكرمة: نزغاته، وقال قتادة: كل معصية فهي من خطوات الشيطان، وقال أبو مجلز: النذور في المعاصي من خطوات الشيطان، وقال مسروق: سأل رجل ابن مسعود فقال: إني حرمت أن آكل طعاماً وسماه، فقال: هذا من نزغات الشيطان، كفّر عن يمينك وكل، وقال الشعبي في رجل نذر ذبح ولده: هذا من نزغات الشيطان، وأفتاه أن يذبح كبشاً.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا حسان بن عبد الله المصري، حدثنا السري بن يحيى عن سليمان التيمي عن أبي رافع قال: «غضبت علي امرأتي فقالت هي يوماً يهودية ويوماً نصرانية، وكل مملوك لها حر إن لم تطلق امرأتك، فأتيت عبد الله بن عمر فقال: إنما هذه من نزغات الشيطان، وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة وهي يومئذ أفقه امرأة بالمدينة، وأتيت عاصم بن عمر فقال مثل ذلك، ثم قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ أي لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه ويزكي النفوس من شركها، وفجورها ودنسها، وما فيها من أخلاق رديئة كل بحسبه، لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيراً ﴿ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ﴾ أي من خلقه، ويضل من يشاء ويرديه في مهالك الضلال والغي، وقوله ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ أي سميع لأقوال عباده ﴿ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٢١] بمن يستحق منهم الهدى والضلال.

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ

وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢].

يقول تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ ﴾ من الألية وهي الحلف، أي لا يحلف ﴿ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ ﴾ أي الطَّوْل والصدقة والإحسان ﴿ وَٱلسَّعَةِ ﴾ أي الجدة ﴿ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي لا تحلفوا أن لا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين. وهذا في غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ﴾ [النور: ٢٢] أي عما تقدم منهم من الإساءة والأذى، وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم.

وهذه الآية نزلت في الصديق رضي الله عنه حين حلف أن لا ينفع مسطح بن أثاثة بنافعة أبدًا بعدما قال في عائشة ما قال، كما تقدم في الحديث، فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين في ذلك، وأقيم الحد على من أقيم عليه، شرع تبارك وتعالى وله الفضل والمنة، يعطف الصديق على قريبه ونسيبه وهو مسطح بن أثاثة، فإنه كان ابن خالة الصديق، وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر رضي الله عنه، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد ولق ولقةً تاب الله عليه منها وضرب الحد عليها، وكان الصديق رضي الله عنه معروفاً بالمعروف، له الفضل والأيادي على الأقارب والأجانب، فلما نزلت هذه الآية إلى قوله ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور: ٢٢]، فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المذنب إليك نغفر لك، وكما تصفح نصفح عنك، فعند ذلك قال الصديق: بلى والله إنا نحب -يا ربنا أن تغفر لنا ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً، في مقابلة ما كان قال: والله لا أنفعه بنافعة أبداً. فلهذا كان الصديق هو الصديق رضي الله عنه وعن بنته.

٢- الإمام القرطبي[١]:

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ١١ - ٢٢].

فيه ثمان وعشرون مسألة[٢]:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ «عصبة» خبر «إن»، ويجوز نصبها على الحال، ويكون الخبر ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا

(١) تفسير القرطبي (٤٥٨٧ - ٤٦٠٢).

(٢) يلاحظ أن المسائل سبع وعشرون.

ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾ .

وسبب نزولها ما رواه الأئمة من حديث الإفك الطويل في قصة عائشة رضوان الله عليها، وهو خبر صحيح مشهور، أغنى اشتهاره عن ذكره، وسيأتي مختصرًا.

وأخرجه البخاري تعليقًا، وحديثه أتم. قال: وقال أسامة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة، وأخرجه أيضًا عن محمد بن كثير عن أخيه سليمان من حديث مسروق عن أم رومان أم عائشة أنها قالت: لما رميت عائشة خرَّت مغشيًا عليها. وعن موسى بن إسماعيل من حديث أبي وائل قال: حدثني مسروق بن الأجدع قال: حدثتني أم رومان وهي أم عائشة قالت: بينا أنا قاعدة أنا وعائشة إذا ولجت امرأة من الأنصار فقالت: فعل الله بفلان وفعل [بفلان]! فقالت أم رومان: وما ذاك؟ قالت: ابني فيمن حدث الحديث! قالت: وما ذاك؟ قالت كذا وكذا.

قالت عائشة: سمع رسول الله ﷺ ؟ قالت نعم. قالت: وأبو بكر؟ قالت نعم! فخرت مغشيًا عليها، فما أفاقت إلا وعليها حمى بنافض[1]، فطرحت عليها ثيابها فغطيتها، فجاء النبي ﷺ فقال: «**ما شأن هذه**» فقلت: يا رسول الله، أخذتها الحمى بنافض. قال: «**فلعل في حديث تحدث به**» قالت: نعم، فقعدت عائشة فقالت: والله، لئن حلفت لا تصدقوني! ولئن قلت لا تعذروني! مثلي ومثلكم كيعقوب وبنيه [2]، والله المستعان على ما تصفون، قالت: وانصرف و لم يقل شيئا؛ فأنزل الله عذرها.

قالت: بحمد الله لا بحمد أحد ولا بحمدك. قال أبو عبد الله الحميدي: كان بعض من لقينا من الحفاظ البغداديين يقول الإرسال في هذا الحديث أبين، واستدل على ذلك بأن أم رومان توفيت في حياة رسول الله ﷺ ، ومسروق لم

---

(١) أي برعدة.

(٢) إذ قال في محنته: والله المستعان... إلخ.

يشاهد النبي ﷺ بلا خلاف، وللبخاري من حديث عبيد الله بن عبد الله بن أبي مليكة أن عائشة كانت تقرأ ﴿إِذْ تَلِقُونَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ وتقول: الولق الكذب.

قال ابن أبي مليكة: وكانت أعلم بذلك [(١)] من غيرها لأنه نزل فيها.

قال البخاري: وقال معمر [(٢)] بن راشد عن الزهري: كان حديث الإفك في غزوة المريسيع.

قال ابن إسحاق: وذلك سنة ست.

وقال موسى بن عقبة: سنة أربع، وأخرج البخاري من حديث معمر عن الزهري قال: قال لي الوليد بن عبد الملك: أبلغك أن عليًا كان فيمن قذف؟ قال: قلت: لا، ولكن قد أخبرني رجلان من قومك أبو سلمة بن عبد الرحمن وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن عائشة قالت لهما: كان علي مسلمًا [(٣)] في شأنها.

وأخرجه أبو بكر الإسماعيلي في كتابه المخرج على الصحيح من وجه آخر من حديث معمر عن الزهري، وفيه: قال: كنت عند الوليد بن عبد الملك فقال: الذي تولى كبره منهم علي بن أبي طالب؟ فقلت لا، حدثني سعيد بن المسيب وعروة وعلقمة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة كلهم يقول سمعت عائشة تقول: والذي تولى كبره عبد الله بن أبيّ.

وأخرج البخاري أيضا من حديث الزهري عن عروة عن عائشة: والذي تولى كبره منهم عبد الله بن أبيّ.

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِٱلْإِفْكِ﴾ الإفك الكذب، والعصبة ثلاثة رجال، قاله ابن عباس. وعنه أيضًا من الثلاثة إلى العشرة، ابن عيينة: أربعون رجلا، مجاهد: من عشر ة إلى خمسة عشر، وأصلها في اللغة وكلام العرب الجماعة

---

(١) أي بالذي قرأت به.

(٢) الذي في البخاري «النعمان بن راشد».

(٣) قوله: «مسلما» بكسر اللام المشددة من التسليم؛ أي ساكتا في شأنها. وقيل بفتح اللام، من السلامة من الخوض فيه.

الذين يتعصب بعضهم لبعض، والخير حقيقته ما زاد نفعه على ضره. والشر ما زاد ضره على نفعه، وإن خيرًا لا شر فيه هو الجنة، وشرًا لا خير فيه هو جهنم، فأما البلاء النازل على الأولياء فهو خير؛ لأن ضرره من الألم قليل في الدنيا، وخيره هو الثواب الكثير في الأخرى.

فنبه الله تعالى عائشة وأهلها وصفوان، إذ الخطاب لهم في قوله ﴿ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ ﴾ ؛ لرجحان النفع والخير على جانب الشر.

الثالثة: لما خرج رسول الله ﷺ بعائشة معه في غزوة بني المصطلق وهي غزوة المريسيع، وقفل ودنا من المدينة أذن ليلة بالرحيل قامت حين آذنوا بالرحيل فمشت حتى جاوزت الجيش، فلما فرغت من شأنها أقبلت إلى الرحل فلمست صدرها فإذا عقد من جزع ظفار [(١)] قد انقطع، فرجعت فالتمسته فحبسها ابتغاؤه، فوجدته وانصرفت فلم تجد أحدًا، وكانت شابة قليلة اللحم، فرفع الرجال هودجها ولم يشعروا بزوالها منه؛ فلما لم تجد أحدًا اضطجعت في مكانها رجاء أن تفتقد فيرجع إليها، فنامت في الموضع ولم يوقظها إلا قول صفوان بن المعطل: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ وذلك أنه كان تخلف وراء الجيش لحفظ الساقة.

وقيل: إنها استيقظت لاسترجاعه، ونزل عن ناقته وتنحى عنها حتى ركبت عائشة، وأخذ يقودها حتى بلغ بها الجيش في نحر الظهيرة؛ فوقع أهل الإفك في مقالتهم، وكان الذي يجتمع إليه فيه ويستوشيه [(٢)] ويشعله عبد الله بن أبيّ ابن سلول المنافق، وهو الذي رأى صفوان آخذا بزمام ناقة عائشة فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها، وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل، وكان من قالته حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش. هذا اختصار الحديث، وهو بكماله وإتقانه في البخاري ومسلم، وهو في مسلم أكمل. ولما بلغ صفوان

---

(١) الجزع (بفتح الجيم وسكون الزاي): خرز معروف في سواده بياض كالعروق. وظفار (كخضار): مدينة باليمن.

(٢) يستوشيه: يستخرجه بالبحث والمسألة ثم يفشيه ويشيعه ويحركه.

قول حسان في الإفك جاء فضربه بالسيف ضربة على رأسه وقال:

تلق ذباب السيف عني فإنني غلام إذا هوجيت ليس بشاعر

فأخذ جماعة حسان ولببوه[1] وجاءوا به إلى رسول الله ﷺ ، فأهدر رسول الله ﷺ جرح حسان واستوهبه إياه، وهذا يدل على أن حسان ممن تولى الكبر؛ على ما يأتي والله أعلم.

وكان صفوان هذا صاحب ساقه رسول الله ﷺ في غزواته لشجاعته، وكان من خيار الصحابة. وقيل: كان حصورا لا يأتي النساء؛ ذكره ابن إسحاق من طريق عائشة، وقيل: كان له ابنان، يدل على ذلك حديثه المروي مع امرأته، وقول النبي ﷺ في ابنيه: «**لهما أشبه به من الغراب بالغراب**».

وقوله في الحديث: والله ما كشفت كنف أنثى قط؛ يريد بزنى. وقتل شهيدا رضي الله عنه في غزوة أرمينية سنة تسع عشرة في زمان عمر، وقيل: ببلاد الروم سنة ثمان وخمسين في زمان معاوية.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ﴾ يعني ممن تكلم بالإفك، ولم يسم من أهل الإفك إلا حسان ومسطح وحمنة وعبد الله؛ وجهل الغير؛ قاله عروة بن الزبير، وقد سأله عن ذلك عبد الملك بن مروان، وقال: إلا أنهم كانوا عصبة، كما قال الله تعالى، وفي مصحف حفصة «عصبة أربعة».

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ وقرأ حميد الأعرج ويعقوب «كُبره» بضم الكاف.

قال الفراء: وهو وجه جيد؛ لأن العرب تقول: فلان تولّى عظم كذا وكذا؛ أي أكبره. روي عن عائشة أنه حسان، وأنها قالت حين عمي: لعل العذاب العظيم الذي أوعده الله به ذهاب بصره؛ رواه عنها مسروق، وروي عنها أنه عبد الله بن أبي، وهو الصحيح، وقاله ابن عباس.

---

(١) لبب فلان فلانا: أخذ تلبيبه؛ أي جمع ثيابه عند صدره ونحره في الخصومة ثم جره.

وحكى أبو عمرو بن عبد البر أن عائشة برأت حسان من الفرية، وقالت: إنه لم يقل شيئا، وقد أنكر حسان أن يكون قال شيئًا من ذلك في قوله:

حصـــان رزان مـــا تزنُّ بريبـــة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل[١]

حليلة خير الناس دينًا ومنصبـــًا نبي الهدى والمكرمـــات الفواضل

عقيلـــة حي من لؤى بن غالب كرام المســـاعي مجدها غير زائل

مهذبة قد طيب الله خيمهـــا[٢] وطهرها مـــن كل شـــين وباطل

فإن كان ما بلغت أني قلتـــه فلا رفعـــت سوطي إليّ أنامـــلي

فكيف وودي ما حييت ونصرتي لآل رسول الله زيـــن المحافل؟!

له رتب عال على الناس فضلها تقاصر عنها ســـورة المتـــطاول

وقد روي أنه لما أنشدها: حصان رزان؛ قالت له: لست كذلك؛ تريد أنك وقعت في الغوافل. وهذا تعارض، ويمكن الجمع بأن يقال: إن حسانا لم يقل ذلك نصا وتصريحا، ويكون عرّض بذلك وأومأ إليه فنسب ذلك إليه؛ والله أعلم.

وقد اختلف الناس فيه هَل خاض في الإفك أم لا؟ وهل جلد الحد أم لا؟ فالله أعلم أي ذلك كان، وهي المسألة:

السادسة : فروى محمد بن إسحاق وغيره أن النبي ﷺ جلد في الإفك رجلين وامرأة: مسطحًا وحسان وحمنة، وذكره الترمذي. وذكر القشيري عن ابن عباس قال: جلد رسول الله ﷺ ابن أبي ثمانين جلدة، وله في الآخرة عذاب النار.

قال القشيري: والذي ثبت في الأخبار أنه ضرب ابن أبيّ وضرب حسان وحمنة، وأما مسطح فلم يثبت عنه قذف صريح، ولكنه كان يسمع ويشيع من غير تصريح.

---

(١) الحصان: العفيفة. ورزان: ذات ثبات ووقار وعفاف. وغرثى: جائعة. ما تزن: ما تهم، الغوافل: جمع غافلة؛ أي لا ترتع في أعراض الناس.

(٢) الخيم (بالكسر) : الشيمة والطبيعة والخلق والأصل.

قال الماوردي وغيره: اختلفوا هل حد النبي ﷺ أصحاب الإفك؛ على قولين: أحدهما أنه لم يحد أحدا من أصحاب الإفك لأن الحدود إنما تقام بإقرار أو ببينة، ولم يتعبده الله أن يقيمها بإخباره عنها؛ كما لم يتعبده بقتل المنافقين، وقد أخبره بكفرهم.

قلت: وهذا فاسد مخالف لنص القرآن؛ فإن الله عز وجل يقول: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ أي على صدق قولهم ﴿ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ ﴾.

والقول الثاني - أن النبي ﷺ حد أهل الإفك عبد الله بن أبي ومسطح ابن أثاثة وحسان بن ثابت وحمنة بنت جحش، وفي ذلك قال شاعر من المسلمين:

لقد ذاق حسان الذي كان أهله ... وحمنة إذ قالوا هجيرًا ومسطح

تعاطوا برجم الغيب زوج نبيهم ... وسخطة ذي العرش الكريم فأترحوا [1]

وآذوا رسول الله فيها فجللوا ... مخازي تبقى عموها وفضحوا

فصب عليهم محصدات كأنها ... شآبيب قطر من ذرى المزن تسفح

قلت: المشهور من الأخبار والمعروف عند العلماء أن الذي حد حسان ومسطح وحمنة، ولم يسمع بحد لعبد الله بن أبي. روى أبو داود عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما نزل عذرى قام النبي ﷺ فذكر ذلك، وتلا القرآن؛ فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فضربوا حدهم، وسماهم: حسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش وفي كتاب الطحاوي «ثمانين ثمانين».

قال علماؤنا، وإنما لم يحد عبد الله بن أبي لأن الله تعالى قد أعد له في

---

(١) أي جاءوا بأمر مفرط في الإثم.

الآخرة عذابا عظيما؛ فلواحد في الدنيا لكان ذلك نقصا من عذابه في الآخرة وتخفيفا عنه مع أن الله تعالى قد شهر ببراءة عائشة رضي الله عنها وبكذب كل من رماها؛ فقد حصلت فائدة الحد، إذ مقصوده إظهار كذب القاذف وبراءة المقذوف؛ كما قال الله تعالى: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ۝١٢ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴾، وإنما حد هؤلاء المسلمون ليكفر عنهم إثم ما صدر عنهم من القذف حتى لا يبقى عليهم تبعة من ذلك في الآخرة، وقد قال ﷺ في الحدود «**إنها كفارة لمن أقيمت عليه**»؛ كما في حديث عبادة بن الصامت. ويحتمل أن يقال: إنما ترك حد ابن أبي استئلافا لقومه واحتراما لابنه، وإطفاء لثائرة الفتنة المتوقعة من ذلك، وقد كان ظهر مبادئها من سعد بن عبادة ومن قومه؛ كما في صحيح مسلم، والله أعلم.

السابعة- قوله تعالى:﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ هذا عتاب من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين في ظنهم حين قال أصحاب الإفك ما قالوا، قال ابن زيد: ظن المؤمنون أن المؤمن لا يفجر بأمه؛ قاله المهدوي، و «**لولا**» بمعنى هلا، وقيل: المعنى أنه كان ينبغي أن يقيس فضلاء المؤمنين والمؤمنات الأمر على أنفسهم؛ فإن كان ذلك يبعد فيهم فذلك في عائشة وصفوان أبعد، وروي أن هذا النظر السديد وقع من أبي أيوب الأنصاري وامرأته؛ وذلك أنه دخل عليها فقالت له: يا أبا أيوب، أسمعت ما قيل! فقال نعم! وذلك الكذب! أكنت أنت يا أم أيوب تفعلين ذلك! قالت: لا والله! قال: فعائشة والله أفضل منك؛ قالت أم أيوب نعم. فهذا الفعل ونحوه هو الذي عاتب الله تعالى عليه[1] المؤمنين إذ لم يفعله جميعهم.

الثامنة- قوله تعالى: ﴿ بِأَنفُسِهِمْ ﴾ قال النحاس: معنى «بأنفسهم» بإخوانهم، فأوجب الله على المسلمين إذا سمعوا رجلا يقذف أحدا ويذكره بقبيح لا يعرفونه به أن ينكروا عليه ويكذبوه، وتواعد من ترك ذلك ومن نقله.

---

(١) في الأصول وتفسير ابن عطية: «عاتب الله تعالى على المؤمنين».

قلت: ولأجل هذا قال العلماء: إن الآية أصل في أن درجة الإيمان التي حازها الإنسان؛ ومنزلة الصلاح التي حلها المؤمن، ولبسة العفاف التي يستتر بها المسلم لا يزيلها عند خبر محتمل وإن شاع، إذا كان أصله فاسدا أو مجهولا.

التاسعة – قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ هذا توبيخ لأهل الإفك، و «لولا» بمعنى هلا؛ أي هلا جاءوا بأربعة شهداء على ما زعموا من الافتراء، وهذا رد على الحكم الأول، وإحالة على الآية السابقة في آية القذف.

العاشرة – قوله تعالى: ﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴾ [النور: ١٣] أي هم في حكم الله كاذبون، وقد يعجز الرجل عن إقامة البينة وهو صادق في قذفه، ولكنه في حكم الشرع وظاهر الأمر كاذب لا في علم الله تعالى؛ وهو سبحانه إنما رتب الحدود على حكمه الذي شرعه في الدنيا لا على مقتضى علمه الذي تعلق بالإنسان على ما هو عليه، فإنما يبنى على ذلك حكم الآخرة.

قلت: ومما يقوي هذا المعنى ويعضده ما خرجه البخاري عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: أيها الناس إن الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيرا أمنَّاه وقربناه، وليس لنا من سريرته شيء الله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءا لم نؤمنه ولم نصدقه، وإن قال إن سريرته حسنة، وأجمع العلماء أن أحكام الدنيا على الظاهر، وأن السرائر إلى الله عز وجل.

الحادية عشرة –قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾[1] «فضل» رفع بالابتداء عند سيبويه، والخبر محذوف لا تظهره العرب. وحذف جواب «لولا» لأنه قد ذكر مثله بعد؛ قال الله عز وجل «ولولا فضل الله عليكم ورحمته» لمسكم؛ أي بسبب ما قلتم في عائشة عذاب عظيم في الدنيا والآخرة. وهذا عتاب من الله تعالى بليغ، ولكنه برحمته ستر عليكم في الدنيا ويرحم في

(١) يريد آية ١٠ وهي قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾.

الآخرة من أتاه تائبا. والإفاضة: الأخذ في الحديث؛ وهو الذي وقع عليه العتاب؛ يقال: أفاض القوم في الحديث أي أخذوا فيه.

الثانية عشرة - قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ قراءة محمد بن السميقع بضم التاء وسكون اللام وضم القاف؛ من الإلقاء، وهذه قراءة بينة، وقرأ أبي وابن مسعود «إذ تتلقونه» من التلقي، بتاءين، وقرأ جمهور السبعة بحرف التاء الواحدة وإظهار الذال دون إدغام؛ وهذا أيضًا من التلقي. وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بإدغام الذال في التاء. وقرأ ابن كثير بإظهار الذال وإدغام التاء في التاء؛ وهذه قراءة قلقة؛ لأنها تقتضي إجماع ساكنين، وكونها حرف لين حسنت هنالك ما لا تحسن مع سكون الذال، وقرأ ابن يعمر وعائشة رضي الله عنهما - وهم أعلم الناس بهذا الأمر - «إذ تلقونه» بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف؛ ومعنى هذه القراءة من قول العرب: ولق الرجل يلق ولقا إذا كذب واستمر عليه؛ فجاءوا بالمتعدى شاهدًا على غير المتعدى.

قال ابن عطية: وعندي أنه أراد إذ تلقون فيه؛ فحذف حرف الجر فاتصل الضمير.

وقال الخليل وأبو عمرو: أصل الولق الإسراع، يقال: جاءت الإبل تلق؛ أي تسرع. قال:

لما رأوا جيشا عليهم قد طرق ... جاءوا بأسراب من الشأم ولق

إن الحصين زلق وزملق ... جاءت به عنس[1] من الشام تلق

يقال: رجل زلق وزملق؛ مثال هدبد، وزمالق وزملق (بتشديد الميم) وهو الذي ينزل قبل أن يجامع؛ قال الراجز:

إن الحصين زلق وزملق

والولق أيضا أخف الطعن، وقد ولقه يلقه ولقا، يقال: ولقه بالسيف

(١) العنس: الناقة القوية.

ولقات، أي ضربات؛ فهو مشترك.

الثالثة عشرة - قوله تعالى: ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم ﴾ مبالغة وإلزام وتأكيد. والضمير في «تحسبونه» عائد على الحديث والخوض فيه والإذاعة له و﴿ هَيِّنًا ﴾ أي شيئًا يسيرًا لا يلحقكم فيه إثم. ﴿ وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ في الوزر ﴿ عَظِيمٌ ﴾ . وهذا مثل قوله عليه السلام في حديث القبرين: «**إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير**» أي بالنسبة إليكم.

الرابعة عشرة - قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ عتاب لجميع المؤمنين؛ أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه ولا يتعاطاه بعضكم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تنزهوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه عليه الصلاة والسلام، وأن تحكموا على هذه المقالة بأنها بهتان؛ وحقيقة البهتان أن يقال في الإنسان ما ليس فيه، والغيبة أن يقال في الإنسان ما فيه.

وهذا المعنى قد جاء في صحيح الحديث عن النبي ﷺ ، ثم وعظهم تعالى في العودة إلى مثل هذه الحالة، و «أن» مفعول من أجله، بتقدير: كراهية أن، ونحوه.

الخامسة عشرة - قوله تعالى: ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ توقيف وتوكيد؛ كما تقول: ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلا.

السادسة عشرة - قوله تعالى: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ يعني في عائشة؛ لأن مثله لا يكون إلا نظير القول في المقول عنه بعينه أو فيمن كان في مرتبته من أزواج النبي ﷺ؛ لما في ذلك من إذاية رسول الله ﷺ في عرضه وأهله؛ وذلك كفر من فاعله.

السابعة عشرة - قال هشام بن عمار سمعت مالكا يقول: من سب أبا بكر وعمر أدب، ومن سب عائشة قتل؛ لأن الله تعالى يقول:﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، فمن سب عائشة فقد خالف

القرآن ومن خالف القرآن قتل.

قال ابن العربي: «قال أصحاب الشافعي من سب عائشة رضي الله عنها أدب كما في سائر المؤمنين، وليس قوله ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ في عائشة [لأن ذلك] [١] كفر، وإنما هو كما قال عليه السلام: «**لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه**» ولو كان سلب الإيمان في سب من سب عائشة حقيقة لكان سلبه في قوله: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» حقيقة، قلنا: ليس[٢] كما زعمتم؛ فإن [٣] أهل الإفك رموا عائشة المطهرة بالفاحشة فبرأها الله تعالى فكل من سبها بما برأها الله منه مكذب لله، ومن كذب الله فهو كافر؛ فهذا طريق قول مالك، وهي سبيل لاحة لأهل البصائر[٤]، ولو أن[٥] رجلا سب عائشة بغير ما برأها الله منه لكان جزاؤه الأدب».

الثامنة عشرة - قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ ﴾ أي تفشو؛ يقال: شاع الشيء شيوعًا وشيعًا وشيعانا وشيعوعه؛ أي ظهر وتفرق ﴿ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ أي في المحصنين والمحصنات. والمراد بهذا اللفظ العام عائشة وصفوان رضي الله عنهما.

والفاحشة: الفعل القبيح المفرط، وقيل: الفاحشة في هذه الآية القول السيئ، ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ أي الحد.

وفي الآخرة عذاب النار، أي للمنافقين، فهو مخصوص.

وقد بينا أن الحد للمؤمنين كفارة، وقال الطبري: معناه إن مات مصرًّا غير تائب.

---

(١) زيادة عن ابن العربي.

(٢) في الأصول «لئن كان كما زعمتم أن أهل» والتصويب عن ابن العربي.

(٣) في الأصول وابن العربي: «أن» بدون فاء.

(٤) في الأصول «الآية».

(٥) في الأصول: «ولو أن رجلا سب عائشة بعين ما برأها الله منه لكان جزاؤه الكفر» والتصويب عن ابن العربي.

التاسعة عشرة - قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ﴾ أي يعلم مقدار عظم هذا هذا الذنب والمجازاة عليه، ويعلم كل شيء.

﴿ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ روي من حديث أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قال: «**أيما رجل شد عضد امرئ من الناس في خصومة لا علم له بها فهو في سخط الله حتى ينزع عنها، وأيما رجل قال بشفاعته دون حد من حدود الله أن يقام فقد عاند الله حقا وأقدم على سخطه وعليه لعنة الله تتابع إلى يوم القيامة، وأيما رجل أشاع على رجل مسلم كلمة وهو منها بريء يرى أن يشينه بها في الدنيا كان حقا على الله تعالى أن يرميه بها في النار**» **ثم تلا مصداقه من كتاب الله تعالى**: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾.

الموفية عشرين - قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ يعني مسالكه ومذاهبه؛ المعنى: لا تسلكوا الطريق الذي يدعوكم إليها الشيطان، وواحد الخطوات خطوة، وهو ما بين القدمين، والخطوة (بالفتح) المصدر؛ يقال: خطوت خطوة، وجمعها خطوات، وتخطى إلينا فلان؛ ومنه الحديث أنه رأى رجلا يتخطى رقاب الناس يوم الجمعة.

وقرأ الجمهور «خُطُوات» بضم الطاء، وسكنها عاصم والأعمش، وقرأ الجمهور «ما زكى» بتخفيف الكاف؛ أي ما اهتدى ولا أسلم ولا عرف رشدا، وقيل: «ما زكى» أي ما صلح؛ يقال: زكا يزكو زكاء، أي صلح، وشددها الحسن وأبو حيوة؛ أي أن تزكيته لكم وتطهيره وهدايته إنما هي بفضله لا بأعمالكم.

وقال الكسائي: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ معترض، وقوله ﴿ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا ﴾ جواب لقوله أولا وثانيا ﴿ فَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ﴾.

الحادية والعشرون - قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ ﴾

المشهور من الروايات أن هذه الآية نزلت في قصة أبي بكر بن أبي قحافة ﷺ ومسطح بن أثاثة. وذلك أنه كان ابن بنت خالته وكان من المهاجرين البدريين المساكين، وهو مسطح بن أثاثة بن عباد بن المطلب بن عبد مناف، وقيل: اسمه عوف، ومسطح لقب، وكان أبو بكر ﷺ ينفق عليه لمسكنته وقرابته، فلما وقع أمر الإفك وقال فيه مسطح ما قال، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أبدا، فجاء مسطح فاعتذر وقال: إنما كنت أغشى مجالس حسان فأسمع ولا أقول، فقال له أبو بكر: لقد ضحكت وشاركت فيما قيل؛ ومر على يمينه، فنزلت الآية، وقال الضحاك وابن عباس: إن جماعة من المؤمنين قطعوا منافعهم عن كل من قال في الإفك وقالوا: والله لا نصل من تكلم في شأن عائشة؛ فنزلت الآية في جميعهم، والأول أصح؛ غير أن الآية تتناول إلى يوم القيامة بألا يغتاظ ذو فضل وسعة فيحلف ألا ينفع من هذه صفته غابر الدهر، روى الصحيح أن الله تبارك وتعالى لما أنزل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ العشر آيات، قال أبو بكر وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره: والله لا أنفق عليه شيئا أبدا بعد الذي قال لعائشة؛ فأنزل الله تعالى ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ .

قال عبد الله بن المبارك: هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى؛ فقال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي؛ فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال: لا أنزعها منه أبدا.

الثانية والعشرون – في هذه الآية دليل على أن القذف وإن كان كبيرًا لا يحبط الأعمال؛ لأن الله تعالى وصف مسطحا بعد قوله بالهجرة والإيمان؛ وكذلك سائر الكبائر؛ ولا يحبط الأعمال غير الشرك بالله، قال الله تعالى:﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر: ٦٥].

الثالثة والعشرون – من حلف على شيء لا يفعله فرأى فعله أولى منه

أتاه وكفر عن يمينه، أو كفر عن يمينه وأتاه؛ كما تقدم في «المائدة»، ورأى الفقهاء أن من حلف ألا يفعل سنة من السنن أو مندوبا وأبد ذلك أنها جرحة في شهادته؛ ذكره الباجي في المنتقى.

الرابعة والعشرون - قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ ﴾ «ولا يأتل» معناه يحلف؛ وزنها يفتعل، من الألية وهي اليمين؛ ومنه قوله تعالى ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ﴾ ؛ وقد تقدم في «البقرة» ، وقالت فرقة: معناه يقصر؛ من قولك: ألوت في كذا إذا قصرت فيه؛ ومنه قوله تعالى ﴿ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً ﴾.

الخامسة والعشرون - قوله تعالى: ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ تمثيل وحجة ؛ أي كما تحبون عفو الله عن ذنوبكم فكذلك اغفروا لمن دونكم؛ وينظر إلى هذا المعنى قوله عليه السلام: «**من لا يرحم لا يرحم**».

السادسة والعشرون - قال بعض العلماء: هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى، من حيث لطف الله بالقذفة العصاة بهذا اللفظ. وقيل. أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب:٤٧] ، وقد قال تعالى في آية أخرى:﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢]؛ فشرح الفضل الكبير في هذه الآية، وبشر به المؤمنين في تلك، ومن آيات الرجاء قوله تعالى:﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الزمر: ٥٣] وقوله تعالى:﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ [الشورى:١٩]، وقال بعضهم: أرجى آية في كتاب الله عز وجل: ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴾ [الضحى:٥] وذلك أن رسول الله ﷺ لا يرضى ببقاء أحد من أمته في النار.

السابعة والعشرون - قوله تعالى: ﴿ أَن يُؤْتُوٓاْ ﴾ أي ألا يؤتوا، فحذف «لا»؛ كقول القائل:

فقلت يمين الله أبرح قاعدًا

ذكره الزجاج، وعلى قول أبي عبيدة لا حاجة إلى إضمار «لا»، ﴿ وَلْيَعْفُواْ ﴾ من عفا الربع أي درس؛ فهو محو الذنب حتى يعفو كما يعفو أثر الربع.

٣- تفسير أبي السعود(١)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١١- ٢٤].

---

(١) تفسير أبي السعود (٥/ ١٦٠).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ ﴾ أي بأبلغ ما يكون من الكذب والافتراء وقيل هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك وأصله الإفك وهو القلب لأنه مأفوك عن وجهه وسننه والمراد به ما أفك به الصديقة أم المؤمنين رضي الله عنها وفي لفظ المجيء إشارة إلى أنهم أظهروه من عند أنفسهم من غير أن يكون له أصل.

وذلك أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرجت قرعتها استصحبها قالت عائشة رضي الله عنها فأقرع بيننا في غزوة غزاها قبل غزوة بني المصطلق فخرج سهمي فخرجت معه ﷺ بعد نزول آية الحجاب فحملت في هودج فسرنا حتى إذا قفلنا ودونا من المدينة نزلنا منزلاً ثم نودي بالرحيل فقمت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي فلمست صدري فإذا عقدي من جزع ظفار قد انقطع فرجعت فالتمسته فحبسني ابتغاؤه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي.

فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري وهم يحسبون أني فيه لخفتي فلم يستنكروا خفة الهودج وذهبوا بالبعير ووجدت عقدي بعد ما استمرت الجيش فجئت منازلهم وليس فيها داع ولا مجيب فتيممت منزلي وظننت أني سيفقدونني ويعودون في طلبي فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتي عيني فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمي من وراء الجيش فلما رآني عرفني فاستيقظت باسترجاعه فخمرت وجهي بجلبابي ووالله ما تكلمنا بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه وهوى حتى أناخ راحلته فوطئ على يديها فقمت إليها فركبتها وانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين في نحر الظهيرة وهم نزول وافتقدني في الناس حين نزلوا وماج القوم في ذكرى فبينا الناس كذلك إذ هجمت عليهم فخاض الناس في حديثي فهلك من هلك.

وقوله تعالى ﴿ عُصۡبَةٌ مِّنكُمۡ ﴾ خبر إن أي جماعة وهي من العشرة إلى الأربعين وكذا العصابة وهم عبد الله بن أبي زيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح بن أثاثة وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم وقوله تعالى ﴿ لَا تَحۡسَبُوهُ

شَرًّا لَّكُم ﴾ استئناف خوطب به رسول الله ﷺ وأبو بكر وعائشة وصفوان ﷺ تسلية لهم من أول الأمر والضمير للإفك ﴿ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ لاكتسابكم به الثواب العظيم وظهور كرامتكم على الله عز وجل بإنزال ثماني عشرة آية في نزاهة ساحتكم وتعظيم شأنكم وتشديد الوعيد فيمن تكلم فيكم والثناء على من ظن بكم خيرًا.

﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم ﴾ أي من أولئك العصبة ﴿ مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ﴾ بقدر ما خاض فيه ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ ﴾ أي معظمه وقرئ بضم الكاف وهي لغة فيه (منهم) من العصبة وهو ابن أبي فإنه بدأ به وأذاعه بين الناس عداوة لرسول الله ﷺ وقيل هو وحسان ومسطح فإنهما شايعاه بالتصريح به فإفراد الموصول حينئذ باعتبار الفوج أو الفريق أو نحوهما ﴿ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي في الآخرة أو في الدنيا أيضًا فإنهم جلدوا وردت شهاداتهم وصار ابن أبي مطرودًا مشهودًا عليه بالنفاق وحسان أعمى وأشل اليدين ومسطح مكفوف البصر وفي التعبير عنه بالذي وتكرير الإسناد وتنكير العذاب ووصفه بالعظم من تهويل الخطب مالا يخفي.

﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ تلوين للخطاب وصرف له عن رسول الله ﷺ وذويه إلى الخائضين بطريق الالتفات لتشديد ما في لولا التحضيضية من التوبيخ ثم العدول عنه إلى الغيبة في قوله تعالى ﴿ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ لتأكيد التوبيخ والتشنيع لكن لا بطريق الإعراض عنهم وحكاية جناياتهم لغيرهم على وجه المثابة بل بالتوسل بذلك إلى وصفهم بما يوجب الإنسان بالمحضض عليه ويقتضيه اقتضاءً تاما ويزجرهم عن صده زجرًا بليغًا فإنّ كون وصف الإيمان بما يحملهم على إحسان الظن ويكفهم عن إساءته بأنفسهم أي بأبناء جنسهم النازلين منزلة أنفسهم كقوله تعالى ﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ بما لا ريب فيه فإخلالهم بموجب ذلك الوصف أقبح وأشنع والتوبيخ عليه أدخل مع ما فيه من التوسل به إلى

التصريح بتوبيخ الخائضات.

ثم إن كان المراد بالإيمان الإيمان الحقيقي فإيجابه لما ذكره واضح والتوبيخ خاص بالمؤمنين وإن كان مطلق الإيمان الشامل لما يظهره المنافقون أيضًا فإيجابه له من حيث إنهم كانوا يحترزون عن إظهار ما ينافي مدعاهم فالتوبيخ حينئذ متوجه إلى الكل وتوسيط الظرف بين لولا وفعلها التخصيص بأول زمان سماعهم وقصر التوبيخ على تأخير الإتيان بالمحضض عليه عن ذلك الآن والتردد فيه ليفيد أن عدم الإتيان به رأسًا في غاية ما يكون من القباحة والشناعة أي كان الواجب أن يظن المؤمنون والمؤمنات أول ما سمعوه ممن اخترعه بالذات أو بالواسطة من غير تلعثم وتردد بمثلهم من آحاد المؤمنين خيرًا ﴿وَقَالُواْ﴾ في ذلك الآن ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر مكشوف كونه إفكا فكيف بالصديقة أم المؤمنين حرمة رسول الله ﷺ.

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ إما من تمام القول المحضض عليه مسوق لحث السامعين على إلزام المسمعين وتكذيبهم إثر تكذيب ما سمعوا منهم بقولهم هذا إفك وتوبيخهم على تركه أي هلا جاء الخائضون بأربعة شهداء يشهدون على ما قالوا ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ﴾ هم وإنما قيل ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ﴾ هم وإنما قيل ﴿بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ لزيادة التقرير ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الخائضين وما فيه من معنى البعد للإيذان بغلوهم في الفساد وبعد منزلتهم في الشر أي أولئك المفسدون ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي في حكمه وشرعه المؤسس على الدلائل الظاهرة المتقية ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ الكاملون في الكذب المشهود عليهم بذلك المستحقون لإطلاق الاسم عليهم دون غيرهم ولذلك رتب عليه الحد خاصة وإما كلام مبتدأ مسوق من جهته تعالى للاحتجاج على كذبهم بكون ما قالوه قولا لا يساعده الدليل أصلاً.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ خطاب للسامعين والمسمعين جميعا ﴿وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ من فنون النعم التي من جملتها الإمهال للتوبة ﴿وَٱلْأَخِرَةِ﴾ من الآلاء التي من جملتها العفو والمغفرة بعد التوبة ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ عاجلا ﴿فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك الإبهام لتهويل أمره والاستهجان بذكره يقال أفاض في الحديث خاض واندفع وهضب بمعنى.

﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ يستحقر دونه التوبيخ والجلد ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ ﴾ بحذف إحدى التاءين ظرف للمس أي لمسكم ذلك العذاب العظيم وقت تلقيكم إياه من المخترعين ﴿ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ والتلقي والتلقف والتلقن معان متقاربة خلا أن في الأول معنى الاستقبال وفي الثاني معنى الخطف والأخذ بسرعة وفي الثالث معنى الحذق والمهارة وقرئ تتلقونه على الأصل وتلقونه من لقيه وتلقونه بكسر حرف المضارعة وتلقونه من إلقاء بعضهم على بعض وتلقونه وتألقونه من الولق والإلق وهو الكذب تثقفونه من ثقفته إذا طلبته فوجدته وتقفونه أي تتبعونه ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ أي تقولون قولا مختصا بالأفواه من غير أن يكون له مصداق ومنشأ في القلوب لأنه ليس بتعبير عن علم به في قلوبكم كقوله تعالى يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم. ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا ﴾ سهلا لا تبعة له أو ليس له كثير عقوبة ﴿ وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ والحال أنه عنده عز وجل ﴿ عَظِيمٌ ﴾ لا يقادر قدره في الوزر واستجرار العذاب ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ من المخترعين أو المشايعين لهم ﴿ قُلْتُم ﴾ تكذيبًا لهم وتهويلا لما ارتكبوه ﴿ مَّا يَكُونُ لَنَآ ﴾ ما يمكننا ﴿ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ﴾ وما يصدر عنا ذلك بوجه من الوجوه وحاصله نفي وجود التكلم به لا نفي وجوده على وجه الصحة والاستقامة والإنبغاء وهذا إشارة إلى ما سمعوه وتوسيط الظرف بين لولا وقلتم لما مر من تخصيص التحضيض بأول وقت السماع وقصر التوبيخ واللوم على تأخير القول المذكور على ذلك الآن ليفيد أنه المحتمل للوقوع المفتقر إلى التحضيض على تركه وأما ترك القول نفسه رأسًا فمما لا يتوهم وقوعه حتى يحضض على فعله ويلام على تركه وعلى هذا ينبغي أن يحمل ما قيل إن المعنى إنه كان الواجب عليهم أن يتفادوا أول ما سمعوا بالإفك عن التكلم به.

فلما كان ذكر الوقت أهم وجب التقديم وأما ما قيل من أن ظروف الأشياء منزلة أنفسها لوقوعها فيها وأنها لا تنفك عنها يتسع فيها مالا يتسع في غيرها فهي ضابطة ربما تستعمل فيما إذا وضع الظرف موضع المظروف بأن جعل مفعولا صريحًا لفعل مذكور كما في قوله تعالى واذكروا إذ جعلكم خلفاء أو مقدر كعامة الظروف المنصوبة بإضمار اذكر وأما ههنا فلا حاجة إليها أصلا لما تحققت أن مناط التقديم توجيه التخصيص إليه وذلك يتحقق في جميع

متعلقات الفعل كما في قوله تعالى ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ ﴾ [الواقعة: ٨٦، ٨٧] ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ تعجب ممن تفوه به وأصله أن يذكر عند معاينة العجيب من صنائعه تعالى تنزيها له سبحانه عن أن يصعب عليه أمثاله ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه أو تنزيه له تعالى عن أن تكون حرمة نبيه فاجرة فإن فجورها تنفير عنه ومخل بمقصود الزواج فيكون تقريرًا لما قبله وتمهيدًا لقوله تعالى ﴿ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ لعظمة المبهوت عليه واستحالة صدقة فإن حقارة الذنوب وعظمها باعتبار متعلقاها.

﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي ينصحكم ﴿ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ ﴾ أي كراهة أن تعودوا أو يزجركم من أن تعودوا أو في أن تعودوا من قولك وعظته في كذا فتركه ﴿ أَبَدًا ﴾ أي مدة حياتكم ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فإن الإيمان وازع عنه لا محالة وفيه هييج وتقريع ﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب دلالة واضحة لتتعظوا وتتأدبوا بها أي ينزلها كذلك أي مبينة ظاهرة الدلالة على معانيها لا أنه بينها بعد أن لم تكن كذلك وهذا كما في قولهم سبحان من صغر البعوض وكبر الفيل أي خلقهما صغيرًا وكبيرًا ومنه قولك ضيق فم الركية ووسع أسفلها وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار لتفخيم شأن البيان.

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بأحوال جميع مخلوقاته جلائلها دقائقها ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في جميع تدابيره وفعاله فأنى يمكن صدق ما قيل في حق حرمة من اصطفاه لرسالاته وبعثه إلى كافة الخلق ليرشدهم إلى الحق ويزكيهم ويطهرهم تطهيرًا وإظهار الاسم الجليل ههنا لتأكيد استقلال الاعتراض التذييلي والإشعار بعلة الألوهية للعلم والحكمة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ ﴾ أي يريدون ويقصدون ﴿ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ ﴾ أي تنتشر الخصلة المفرطة في القبح وهي الفرية والرمي بالزنا أو نفس الزنا فالمراد بشيوعها شيوع خبرها أي يحبون شيوعها ويتصدون مع ذلك لإشاعتها وإنما لم يصرح به اكتفاء بذكر المحبة فإنها مستتبعة له لا محالة.

﴿ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ متعلق بتشيع أي تشيع فيما بين الناس وذكر المؤمنين لأنهم العمدة فيهم أو بمضمر هو حال من الفاحشة فالموصول عبارة عن المؤمنين خاصة أي يحبون أن تشيع الفاحشة كائنة في حق المؤمنين وفي شأنهم

﴿ لَهُمْ ﴾ بسبب ما ذكر ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنْيَا ﴾ من الحد وغيره مما يتفق من البلايا الدنيوية ولقد ضرب رسول الله ﷺ عبد الله بن أبيّ وحسانا ومسطحا حد القذف وضرب صفوان حسانا ضربة بالسيف وكف بصره ﴿ وَٱلْآخِرَةِ ﴾ من عذاب النار وغير ذلك مما يعلمه الله عز وجل ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ﴾ جميع الأمور التي من جملتها ما في الضمائر من المحبة المذكورة ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ما يعلمه تعالى بل إنما تعلمون ما ظهر لكم من الأقوال والأفعال المحسوسة فابتلوا أموركم على ما تعلمونه وعاقبوا في الدنيا على ما تشاهدونه من الأحوال الظاهرة والله سبحانه هو المتولي للسرائر فيعاقب في الآخرة على ما تكنه الصدور.

هذا إذا جعل العذاب الأليم في الدنيا عبارة عن حد القذف أو متنظمًا له كما أطبق عليه الجمهور أما إذا بقي على إطلاقه يراد بالمحبة نفسها من غير أن يقارنها التصدي للإشاعة وهو الأنسب بسياق النظم الكريم فيكون ترتيب العذاب عليها تنبيها على أن عذاب من يباشر الإشاعة ويتولاها أشد وأعظم ويكون الاعتراض التذييلي أعنى قوله تعالى والله يعلم وأنتم لا تعلمون تقريرا لثبوت العذاب الأليم لهم وتعليلا له ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ ﴾، تكرير للمنة بترك المعاجلة بالعقاب للتنبيه على كمال عظم الجريرة ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ عطف على فضل الله وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة والإشعار باستتباع صفة الألوهية للرأفة والرحمة وتغيير سبكه وتصديره بحرف التحقيق لما أن بيان اتصافه تعالى في ذاته بالرأفة التي هي كمال الرحمة الرحيمية التي هي المبالغة فيها على الدوام والاستمرار لا بيان حدوث تعلق رأفته ورحمته بهم كما أنه المراد بالمعطوف عليه وجواب لولا محذوف لدلالة ما قبله عليه ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾ أي لا تسلكوا مسالكة في كل ما يأتون وما تذرون من الأفاعيل التي من جملتها إشاعة الفاحشة وحبها وقرئ خطوات بسكون الطاء وبفتحها أيضا ﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾ وضع الظاهران موضع ضميريهما حيث لم يقل ومن يتبعها أو ومن يتبع خطواته لزيادة التقرير والمبالغة في التنفير والتحذير.

﴿ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ ﴾ علة للجزاء وضعت موضعه كأنه قيل فقد ارتكب الفحشاء والمنكر لأن دأبه المستمر أن يأمر بهما فمن اتبع خطواته فقد امتثل بأمره قطعا والفحشاء ما أفرط قبحه كالفاحشة والمنكر ما ينكره الشرع وضمير إنه للشيطان وقيل للشأن على رأي من لا يوجب عود الضمير من الجملة الجزائية إلى اسم الشرط أو على أن الأصل بأمره وقيل هو عائد إلى (من) أي فإن ذلك المتبع بأمر الناس بهما لأن شأن الشيطان هو الإضلال فمن اتبعه يترقى من رتبة الضلال والفساد إلى رتبة الإضلال والإفساد ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ ﴾ بما من جملته هاتيك البيانات والتوفيق للتوبة الماحصة للذنوب وشرع الحدود المكفرة لها ﴿ مَا زَكَىٰ ﴾ أي ما طهر من دنسها وقرئ ما زكى بالتشديد أي ما طهر الله تعالى و(من) في قوله تعالى (منكم) بيانية وفي قوله تعالى ﴿ مِّنۡ أَحَدٍ ﴾ زائدة و(أحد) في حيز الرفع على الفاعلية على القراءة الأولى وفي محل النصب على المفعولية على القراءة الثانية. ﴿ أَبَدًا ﴾ لا إلى نهاية ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي ﴾ يطهر ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ من عباده بإضافة آثار فضله ورحمته عليه وحمله على التوبة ثم قبولها منه كما فعل بكم ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ مبالغ في سميع الأقوال التي من جملتها ما أظهروه من التوبة عليم بجميع المعلومات التي من جملتها نياتهم وفيه حث لهم على الإخلاص في التوبة وإظهار الاسم الجليل للإيذان باستدعاء الألوهية للسمع والعلم مع ما فيه من تأكيد استقلال الاعتراض التذييلي.

﴿ وَلَا يَأۡتَلِ ﴾ أي لا يحلف افتعال من الألية وقيل لا يقصر من الألو والأول هو الأظهر لنزوله في شأن الصديق ﷺ حين حلف أن لا ينفق على مسطح بعد وكان ينفق عليه لكونه ابن خالته وكان من فقراء المهاجرين ويعضده قراءة من قرأ ولا يتأل ﴿ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ ﴾ في الدين وكفى به دليلا على فضل الصديق ﷺ ﴿ وَٱلسَّعَةِ ﴾ في المال ﴿ أَن يُؤۡتُوٓاْ ﴾ أي على أن لا يؤتوا أو قرئ بناء الخطاب على الالتفات ﴿ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ

﴿ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ صفات لموصوف واحد جيء بها بطريق العطف تنبيها على أن كلاً منها علة مستقلة لاستحقاقه الإيتاء وقيل لموصوفات أقيمت هي مقامها وحذف المفعول الثاني لغاية ظهوره أي على أن لا يؤتوهم شيئا.

﴿ وَلْيَعْفُواْ ﴾ ما فرط منهم ﴿ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ﴾ بالإغضاء عنه وقد قرئ الأمران بتاء الخطاب على وفق قوله تعالى ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ أي بمقابلة عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ مبالغ في المغفرة والرحمة مع كمال قدرته على المؤاخذة وكثرة ذنوب الداعية إليها وفيه ترغيب عظيم في العفو ووعد كريم بمقابلته كأنه قيل ألا تحبون أن يغفر الله لكم فهذا من موجباته روى أنه ﷺ قرأها على أبي بكر ﷺ فقال بلى أحب أن يغفر الله لي فرجع إلى مسطح نفقته وقال والله لا أنزعها أبدًا.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ﴾ أي العفائف مما رمين به من الفاحشة ﴿ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ﴾ عنها على الإطلاق بحيث لم يخطر بباطهن شيء منها ولا من مقدماتها أصلا ففيها من الدلالة على كمال النزاهة ما ليس في المحصنات أي السليمات الصدور النقيات القلوب عن كل سواء ﴿ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أي المتصفات بالإيمان ما يجب أن يؤمن به من الواجبات والمحظورات وغيرها إيمانًا حقيقًيا تفصيليًا كما ينبئ عنه تأخير المؤمنات عما قبلها مع أصالة وصف الإيمان فإنه للإيذان بأن المراد بها المعنى الوصفي المعرب عما ذكر لا المعنى الاسمي المصحح لإطلاق الاسم في الجملة كما هو المتبادر على تقدير التقديم والمراد بها عائشة الصديقة رضي الله عنها والجمع باعتبار أن رميها رمي لسائر أمهات المؤمنين لاشتراك الكل في العصمة والنزاهة والانتساب إلى رسول الله ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٥] ونظائره وقيل أمهات المؤمنين فيدخل فيهن الصديقة دخولاً أوليا.

وأما ما قيل من أن المراد هي الصديقة والجمع باعتبار استتباعها للمتصفات بالصفات المذكورة من نساء الأمة فيأباه أن العقوبات المترتبة على

رمي هؤلاء عقوبات مختصة بالكفار والمنافقين ولا ريب نساء الأمة فيأباه أن العقوبات المترتبة على رمي هؤلاء عقوبات مختصة بالكفار والمنافقين ولا ريب في أن رمي غير أمهات المؤمنين ليس بكفر فيجب أن يكون المراد إياهن على أحد الوجهين فإنهن قد خصصن من بين سائر المؤمنات فجعل رميهن كفرا إبرازًا لكرامتهن على الله عز وجل وحماية الحمى الرسالة من أن يحوم حوله أحد بسوء حتى أن ابن عباس رضي الله عنهما جعله أغلظ من سائر أفراد الكفر حين سئل عن هذه الآيات فقال: من أذنب ذنبًا ثم تاب منه قبلت توبته إلا من خاض في أمر عائشة رضي الله عنها وهل هو منه ﷺ إلا لتهويل أمر الإفك والتنبيه على أنه كفر غليظ ﴿ لُعِنُواْ ﴾ بما قالوه في حقهن ﴿ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ حيث يلعنهم اللاعنون من المؤمنين والملائكة أبدًا ﴿ وَلَهُمۡ ﴾ مع ما ذكر من اللعن الأبدي ﴿ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ هائل لا يقادر قدره لغاية عظم ما اقترفوه من الجناية.

٤- الشيخ محمد الصابوني(١)

بين تعالى "قصة الإفك"(٢)، التي اتهمت فيها العفيفة البريئة الطاهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالكذب والبهتان فقال ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ ﴾ أي جاءوا بأسوأ الكذب وأشنع صور البهتان وهو قذف عائشة بالفاحشة قال الإمام الفخر: الإفك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، وقد أجمع المسلمون على أن المراد ما أفك به على عائشة وهي زوجة الرسول المعصوم(٣) ﴿ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ ﴾ أي جماعة منكم أيها المؤمنون وعلى رأسهم "ابن سلول" رأس النفاق.

﴿ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُم ﴾ أي لا تظنوا هذا القذف والاتهام شرًا لكم يا آل أبي بكر ﴿ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ ﴾ لما فيه من الشرف العظيم بنزول الوحي ببراءة أم

---

(١) صفوة التفاسير (٢/٢٣٢-٢٣٧).

(٢) انظر القصة مفصلة في كتابنا "روائع البيان" (١١٧/٢).

(٣) التفسير الكبير (١٧٢/٢٣).

المؤمنين، وهذا غاية الشرف والفضل قال المفسرون: والخير في ذلك من خمسة أوجه: تبرئة أم المؤمنين، وكرامة الله لها بإنزال الوحي في شأنها، والأجر الجزيل لها في الفرية عليها، وموعظة المؤمنين، والانتقام من المفترين[1]، ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ﴾ أي لكل فرد من العصبة الكاذبة جزاء ما اجترح من الذنب على قدر خوضه فيه ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ أي والذي تولى معظمه وأشاع هذا البهتان وهو "ابن سلول" رأس النفاق ﴿ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي له في الآخرة عذاب شديد في نار جهنم.

﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ۝ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٢- ١٥].

﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ أي هلا حين سمعتم يا معشر المؤمنين هذا الافتراء وقذف الصديقة عائشة ﴿ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ أي هلا ظنوا الخير و لم يسرعوا إلى التهمة فيمن عرفوا فيها النزاهة والطهارة؟ فإن مقتضى الإيمان ألا يصدق مؤمن على أخيه قولة عائب ولا طاعن قال ابن كثير: هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السوء، وهلا قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم فإن كان لا يليق فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى، روي أن امرأة "أبي أيوب" قالت له: أما تسمع ما يقول الناس في عائشة! قال نعم وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله قال فعائشة والله خير منك[2].

---

(١) التسهيل في علوم التنزيل (٣/٦١).

(٢) مختصر ابن كثير (٢/٥٩١).

﴿ وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴾ أي قالوا في ذلك الحين هذا كذب ظاهر مبين ﴿ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ ﴾ أي هلا جاء أولئك المفترون بأربعة شهود يشهدون على ما قالوا ﴿ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ ﴾ أي فإن عجزوا و لم يأتوا على دعواهم بالشهود ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴾ أي فأولئك هم المفسدون الكاذبون في حكم الله وشرعه، وفيه توبيخ وتعنيف للذين سمعوا الإفك ولم ينكروه أول وهلة ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ أي لولا فضله تعالى عليكم- أيها الخائضون في شأن عائشة ورحمته بكم في الدنيا والآخرة حيث أمهلكم و لم يعاجلكم بالعقوبة ﴿ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ ﴾ أي لأصابكم ونالكم بسبب ما خضتم فيه من حديث الإفك.

﴿ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي عذاب شديد هائل يستحقر دونه الجلد والتعنيف قال القرطبي: هذا عتاب من الله بليغ لمن خاضوا في الإفك، ولكنه برحمته ستر عليكم في الدنيا، ويرحم في الآخرة من أتاه تائبا[١]، ﴿ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ ﴾ أي وذلك حين تتلقونه ويأخذه بعضكم من بعض بالسؤال عنه قال مجاهد، أي يرويه بعضكم عن بعض، يقول هذا سمعته من فلان، وقال فلان كذا[٢].

﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾ أي تقولون ما ليس له حقيقة في الواقع، وإنما هو محض كذب وبهتان ﴿ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا ﴾ أي تظنونه ذنبًا صغيرًا لا يلحقكم فيه إثم ﴿ وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ﴾ أي والحال أنه عند الله من أعظم الموبقات والجرائم لأنه وقوع في أعراض المسلمين قال في التسهيل: عاتبهم تعالى على ثلاثة أشياء:

الأول: تلقيه بالألسنة أي السؤال عنه.

والثاني: التكلم به.

والثالث: استصغاره حيث حسبوه هينًا وهو عند الله عظيم، وفائدة قوله

---

(١) القرطبي (١٢/٢٠٣).

(٢) المختصر (٢/٥٩١).

بألسنتكم وبأفواهكم الإشارة إلى أن ذلك الحديث كان باللسان دون القلب لأنهم لم يعلموا حقيقته بقلوبهم(١).

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ١٦- ٢٠].

﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا ﴾ عتاب لجميع المؤمنين أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه أول سماعكم له وتقولوا لا ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ﴿ سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ أي سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسول الله الطاهرة البريئة فإن هذا الافتراء كذب واضح، عظيم الجرم قال الزمخشري: هو بمعنى التعجب من عظيم الأمر والاستبعاد له، والأصل في ذلك أن يسبح الله عند رؤية العجائب(٢)، ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ أي يذكركم الله ويعظكم بالمواعظ الشافية لكي لا تعودوا إلى مثل هذا العمل أبدا ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي إن كنتم حقا مؤمنين فإن الإيمان وازع عن مثل هذا البهتان، وفيه حث لهم على الاتعاظ وتهييج.

﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ﴾ أي ويوضح لكم الآيات الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب، لتتعظوا وتتأدبوا بها ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عالم بما يصلح العباد، حكيم في تدبيره وتشريعه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ ﴾ أي يريدون أن ينتشر الفعل القبيح المفرط في القبح كإشاعة الرذيلة والزنا وغير ذلك

---

(١) التسهيل في علوم التنزيل (٣/٦٢).

(٢) الكشاف (٣/٢٢٥).

من المنكرات ﴿ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أي في المؤمنين الأطهار ﴿ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ أي لهم عذاب موجع مؤلم في الدنيا بإقامة الحد، وفي الآخرة بعذاب جهنم قال الحسن: عني بهذا الوعيد واللعن المنافقين فإنهم أحبوا وقصدوا إذاية الرسول ﷺ وذلك كفر وملعون صاحبه(١)، ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ أي هو تعالى عالم بالخفايا والنوايا وأنتم لا تعلمون ذلك.

قال الإمام الفخر: وهذه الجملة فيها حسن الموقع بهذا الموضع لأن محبة القلب كامنة ونحن لا نعلمها إلا بالأمارات أما الله سبحانه فهو لا يخفى عليه شيء، فصار هذا الذكر نهاية في الزجر لأن من أحب إشاعة الفاحشة وإن بالغ في إخفاء تلك المحبة فهو يعلم أن الله تعالى يعلم ذلك منه ويعلم قدر الجزاء عليه(٢)، ﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ جواب ﴿ وَلَوۡلَا ﴾ ، محذوف لتهويل الأمر أي لولا فضله تعالى على عباده ورحمته بهم لأهلكهم وعذبهم، وكان مما لا يكاد يتصوره الإنسان لأنه فوق الوصف والبيان.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢١، ٢٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ [النور: ٢١]، أي يا من صدقتم بالله ورسوله لا تتبعوا آثار الشيطان ولا تسلكوا مسالكه بإشاعة الفاحشة، والإصغاء إلى الإفك والقول به ﴿ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ أي

---

(١) البحر المحيط (٦/٤٣٩).

(٢) التفسير الكبير (٢٣/١٨٣).

ومن يتبع سيرة الشيطان وطريقته ﴿ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ ﴾ أي فإن الشيطان يضل الإنسان ويغويه لأنه يأمر بالفحشاء وهي ما أفرط قبحه، والمنكر وهو ما ينكره الشرع وتنفر منه العقول السليمة.

﴿ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ ﴾ أي لولا فضل الله عليكم أيها المؤمنون بالتوفيق للتوبة الماحية للذنوب، وبشرع الحدود المكفرة للخطايا ﴿ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ أي ما تطهر أحد منكم من الأوزار أبد الدهر ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ﴾ أي ولكن الله بفضله ورحمته يطهر من يشاء بتوفيقه للتوبة النصوح وقبولها منه قال القرطبي: والغرض أن تزكيته لكم، وتطهيره وهدايته إنما هي بفضله لا بأعمالكم[1] ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي سميع لأقوالكم عليم بنياتكم وضمائركم ﴿ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ ﴾ أي لا يحلف أهل الفضل في الدين وأصحاب الغنى واليسار ﴿ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي أن لا يؤتوا أقاربهم من الفقراء والمهاجرين ما كانوا يعطونهم إياه من الإحسان لذنب فعلوه ﴿ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْ ﴾ أي وليعفوا عما كان منهم من جرم، وليصفحوا عما بدر منهم من إساءة، وليعودوا إلى ما كانوا عليه من الإنعام والإحسان.

﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ أي ألا تحبون أيها المؤمنون أن يغفر الله لكم على عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم؟ روي أن أبا بكر لما سمع الآية قال: بلى أحب أن يغفر الله لي وأعاد النفقة إلى مسطح وكفر عن يمينه وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا!! قال المفسرون: والآية دالة على فضل أبي بكر فإن الله تعالى امتدحه بقوله ﴿ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ ﴾ وكفى به دليلاً على فضل الصديق ﷺ وأرضاه ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة مع كمال قدرته على العقاب، ثم توعد تعالى الذين يرمون العفائف الطاهرات فقال:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا

(١) القرطبي ١٢/٢٠٧.

وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النور: ٢٣ - ٢٦].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ﴾ أي يقذفون بالزنا العفيفات، السليمات الصدور، النقيات القلوب عن كل سوء وفاحشة ﴿ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ أي المتصفات بالإيمان مع طهارة القلب ﴿ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ﴾ أي طردوا وأبعدوا من رحمة الله في الدنيا والآخرة قال ابن عباس: هذا اللعن فيمن قذف زوجات النبي ﷺ إذ ليس له توبة، ومن قذف مؤمنة جعل الله له توبة[١] وقال أبو حمزة: نزلت في مشركي مكة، كانت المرأة إذا خرجت إلى المدينة مهاجرة قذفوها وقالوا خرجت لتفجر[٢].

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ أي ولهم مع اللعنة عذاب هائل لا يكاد يوصف بسبب ما ارتكبوا من إثم وجريمة ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ أي وذلك العذاب الشديد في ذلك اليوم الرهيب يوم القيامة حين تشهد على الإنسان جوارحه فتنطق الألسنة والأيدي والأرجل بما اقترف من سيئ الأعمال ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ ﴾ أي يوم القيامة ينالهم حسابهم وجزاؤهم العادل من أحكم الحاكمين.

﴿ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴾ أي ويعلمون حينئذ أن الله هو العادل الذي لا يظلم.

---

(١) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٣/٤٣٠.

(٢) البحر ٦/٤٤٠.

براءة أم المؤمنين رضي الله عنها

عائشة في بيت أبيها[1]

هي السيدة عائشة رضي الله عنها. من أهم المراجع في الحديث والسنة، من أبرز الفقهاء في الإسلام. أم المؤمنين. وزوج رسول الله ﷺ. وأحب الناس إليه. يقول عمرو بن العاص: سألت رسول الله ﷺ: يا رسول الله. من أحب الناس إليك؟ قال ﷺ: «**عائشة**». فقلت: ومن الرجال؟ قال ﷺ: «**أبوها**».

وأبوها هو أبو بكر الصديق ﷺ بن أبي قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب بن سود بن تيم، قال عنه النبي ﷺ: «**إن أَمَنّ الناس عليَّ في ماله وصحبته أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام**» أخرجه مسلم في صحيحه.

وأمها أم رومان رضي الله عنها بنت عامر الكنانية، من الصحابيات الجليلات، كانت قد تزوجت في الجاهلية من عبد الله بن الحارث الأسدي وأنجبت له (الطفيل) ثم توفي عنها، فتزوجها أبو بكر، فولدت له عائشة وعبد الرحمن. وهاجرت إلى المدينة بعد أن استقر مقام الرسول ﷺ بها، فلما توفيت في حياة الرسول ﷺ بعد حادث الإفك (موضوع هذا الكتاب) نزل ﷺ قبرها، واستغفر لها، وقال: «**اللهم لم يخف عليك ما لقيت أم رومان فيك وفي رسولك**».

وقد عرف قوم عائشة رضي الله عنها وهم بنو تيم بالكرم والشجاعة والأمانة وسداد الرأي كما كانوا مضرب المثل في البر بنسائهم وحسن معاملتهن والترفق بهن.

وكان لأبيها أبي بكر الصديق ﷺ هذا الميراث الطيب من قومه، بالإضافة إلى شهرة ذائعة في دماثة الخلق وحسن العشرة ولين الجانب، وأجمع مؤرّخو الإسلام على أنه: (كان أنسب قريش لقريش، وأعلم الناس بها وبما كان فيها من

---

(١) كتاب براءة مريم وعائشة عليهما السلام لعماد الدين شرف الدين.

خير وشر، وكان رجلاً تاجرًا ذا خلق معروف، يأتيه رجال قومه ويألفونه لغير واحد من الأمر: لعلمه وخبرته وحسن مجالسته).

فلما بعث رسول الله ﷺ، أضاف أبو بكر إلى كل هذه المناقب شرف السبق إلى الإسلام، فكان الصديق، والصحابي، والمناضل عن الإسلام بكل ما يملك والداعي إليه في شجاعة وحماسة، وقد دخل في الإسلام على يديه واستجابة لدعوته: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله. وجميعهم من العشرة المبشرين بالجنة، رضي الله عنهم.

قال رسول الله ﷺ: «**ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة ونظر وتردد، إلا ما كان من أبي بكر بن قحافة، ما عكم أي ما تأخر وما تلبث حين ذكرت له وما تردد فيه**».

وقال ﷺ: «**ما نفعني مال قط، ما نفعنا مال أبي بكر**» فبكى أبو بكر، وقال: (يا رسول الله، وهل أنا ومالي إلا لك). رواه البخاري ومسلم.

ولذلك، فقد كان يكفي أن تكون عائشة، رضي الله عنها، ابنة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى ينزلها زوجها رسول الله ﷺ من قلبه ومن بيته في أعز مكان، لكنها كانت إلى جانب هذه النبوة الأثيرة ذات لطف آسر وذكاء لماح.

ولدت بمكة في الإسلام بعد بعثة رسول الله ﷺ بأربع سنين أو خمس، وأسلمت وهي صبية صغيرة، هي وأختها أسماء في وقت كان عدد المسلمين فيه قليلاً.

وعرفها رسول الله ﷺ منذ طفولتها، وأنزلها من نفسه مكانة هي أعز ما تنزل ابنة غالية، وشاهدها ﷺ تنمو بين عينيه ويتفتح صباها على ذكاء نادر وبديهة حاضرة وفصاحة في اللسان وشجاعة في القلب، وبلغ من إعزاز الرسول ﷺ لها أنه كان يوصي بها أمها، قائلاً: «**يا أم رومان، استوصي بعائشة خيرًا، واحفظيني فيها**»، فلما رآها يومًا غاضبة، وقف في صفها وقال لأمها في عتاب رقيق: «**يا أم رومان، ألم أوصك بعائشة أن تحفظيني فيها**».

وكانت (خولة بنت حكيم السلمية) هي التي سعت في خطبة رسول الله ﷺ لعائشة، وعندما ذكرت للرسول ﷺ اسم عائشة، تفتح قلبه، وتتحدث خولة عن مسعاها في هذه الخطبة، فتقول:

دخلت بيت أبي بكر، فوجدت (أم رومان) أم عائشة فقلت لها: أي أم رومان، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟! قالت: وما ذلك؟ أجبت: أرسلني رسول الله ﷺ أخطب له عائشة، فقالت: وددت، انتظري أبا بكر فإنه آت، وجاء أبو بكر، فقلت له: يا أبا بكر، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة، أرسلني رسول الله ﷺ أخطب (عائشة)، قال: وقد ذكر موقعه من الرسول ﷺ: وهل تصلح له؟ إنما هي إبنة أخيه، فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت له ذلك، فقال ﷺ: «**ارجعي إليه فقولي: أنت أخي في الإسلام، وأنا أخوك وابنتك تصلح لي**» فأتيت أبا بكر، فذكرت له، فقال: انتظريني حتى أرجع، وقالت أم رومان توضح الموقف للخاطبة بأن أحد الأشخاص كان قد تقدم لخطبة عائشة: إن (المطعم بن عدي) كان قد ذكر عائشة على ابنه (جبير)، ولا والله ما وعد أبو بكر شيئًا قط فأخلف، ودخل أبو بكر على مطعم وكانت زوجته (أم جبير) حاضرة وهي مشركة، فقالت لأبي بكر: يا ابن أبي قحافة، لعلنا إن زوجنا ابننا ابنتك أن تصبئه وتدخله في دينك الذي أنت عليه!! (أي أنها تتحلل من الوعد بالخطبة خوفًا على ابنها من أن يدخل الإسلام على يد عائشة)، فلم يرد عليها أبو بكر بل التفت إلى زوجها (المطعم) وقال: ما تقول هذه؟ فأجاب المطعم: إنها تقول لك الذي سمعت.

فخرج أبو بكر ﷺ، وقد شعر بارتياح لأن الله قد أحله من وعده، وعاد إلى بيته، فقال لخولة (الخاطبة): ادعي لي رسول الله ﷺ، فأسرعت خولة إلى النبي ﷺ فدعته، فجاء بيت صديقه أبي بكر، وزوجه أبو بكر ﷺ عائشة رضي الله عنها، وكان مهرها خمسمائة درهم.

وبقيت الصبية عائشة رضي الله عنها في بيت أبيها تمرح مع صواحبها وأترابها، حيث لم يشأ محمد ﷺ أن يثقل كاهلها بأعباء الزوجية ومسؤولياتها، ولم تزف إليه بعد الهجرة.

يوم عرس السيدة عائشة رضي الله عنها

وفي المدينة، هيأ رسول الله ﷺ دارًا لعائشة رضي الله عنها بعد أن بنى مسجده، وتنافس المهاجرون والأنصار في البناء، فتم بناء مسجد المدينة، ومن حوله تسع حجرات بعضها من الجريد والطين وبعضها من الحجارة، وكانت أبوابه جميعًا تفتح على ساحة المسجد.

ثم بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة إلى مكة ليصحب بنات الرسول ﷺ إلى المدينة، ومعه رسالة من أبي بكر ﷺ، إلى ابنه عبد الله، يطلب إليه فيها أن يلحق به، وأن يصطحب زوجته أم رومان، وابنتيه أسماء وعائشة رضي الله عنهما وكان مع زيد (أبورافع) مولى النبي ﷺ، وبعد أن وصل الركب إلى المدينة، واستقر المسلمون في دار الهجرة، واطمأن بهم المقام، آمنين من اضطهاد المشكرين، تحدث أبو بكر بعد الهجرة بعدة أشهر إلى النبي ﷺ في إتمام الزواج الذي عقده بمكة منذ ثلاث سنوات، فلبى رسول الله ﷺ راضيًا، وأسرع مع رجال ونساء من الأنصار إلى منزل صهره أبي بكر الصديق ﷺ، حيث كان ينزل بأهله في بني الخزرج.

وتصف عائشة رضي الله عنها يوم عرسها، فتقول: (جاء رسول الله ﷺ بيتنا، فاجتمع إليه رجال من الأنصار ونساء، فجاءتني أمي وأنا في أرجوحة بين عذقين، فأنزلتني ثم سوت شعري ومسحت وجهي بشيء من الماء، ثم أقبلت تقودني حتى إذا كنت عند الباب، وقفت بي حتى ذهب بعض نفسي، ثم أدخلتني ورسول الله ﷺ جالس على سرير في بيتنا فأجلستني في حجرة وقالت: هؤلاء أهلك فبارك الله لك فيهن وبارك لهن فيك) وحمل إليهما قدح من لبن، شرب الرسول ﷺ منه، ثم تناولته العروس على استحياء فشربت منه.

وانتقلت عائشة إلى بيتها الجديد، وكان هذا البيت عبارة عن حجرة من الحجرات التي شيدت حول المسجد من الطوب اللبن وسعف النخيل، وضع فيه فراش حشوه ليف، ليس بينه وبين الأرض إلا الحصير، وعلى فتحة الباب أسدل

ستار من الشعر.

وفي هذا البيت البسيط المتواضع، بدأت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حياة زوجية حافلة واكتمل نموها ونضجت شخصيتها، وتدرجت بين عيني رسول الله ﷺ من صبية يأتيها زوجها بصواحبها ليلعبن معها، أو يحملها على عاتقه لتطل على بعض أبناء الحبشة يلعبون بالحراب، إلى شابة ناضجة تشهد مع رسول الله ﷺ أمجاده، وتتلقاه عائدًا مظفرًا من غزواته وترقب دعوته وهي تنتشر وتمتد كنور الفجر يغزو الظلمات.

محنة الإفك

وفي غمرة الحياة الحافلة بالخير والحب ومشاغل الدعوة والجهاد، ومع هذا الحادث الجلل، حادث الإفك، الذي كلف أطهر النفوس في تاريخ البشرية كلها ﷺ آلامًا لا تطاق، وكلف الأمة الإسلامية كلها تجربة من أشق التجارب في تاريخها الطويل، وعلق قلب رسول الله ﷺ، وقلب زوجته عائشة رضي الله عنها التي يحبها، وقلب أبي بكر الصديق وزوجه أم رومان، وقلب الصحابي الجليل صفوان بن المعطل رضي الله عنهم جميعًا، علق هذه القلوب الطاهرة شهرًا كاملاً بحبال القلق والألم.

حدث ذلك في السنة الخامسة للهجرة، بعد أن تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش رضي الله عنها، وكان رسول الله ﷺ يتأهب للخروج لغزوة بني المصطلق، فأقرع بين نسائه ليختار الزوجة التي تخرج معه، كما هي عادته كلما خرج في سفر أو غزوة، فخرج سهم عائشة رضي الله عنها، فسعدت بذلك وخرجت في صحبة النبي ﷺ لهذه الغزوة وهي هانئة، وعاد القائد محمد ﷺ من غزوته منتصرًا، وسار ركبه الظافر عائدًا إلى المدينة التي كانت فرحة وسعيدة بهذا النصر تردد أناشيده.

وفي الطريق وبالقرب من المدينة توقف ركب الجيش للراحة وباتوا بعض ليلتهم، ثم أذن فيهم بالرحيل، فقاموا واستأنفوا السير، ولم يخطر ببال أحد أن السيدة عائشة قد تخلفت في الموقع الذي باتوا فيه، ووصل الركب إلى المدينة في

مطلع الصبح، واقتاد الرجال بعير أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إلى بيتها، وأمام بيتها أنزلوا الهودج في رفق، فإذا أم المؤمنين ليست فيه!!

وبلغ الأمر رسول الله ﷺ ، وأصحابه، وكانت مفاجأة أصابتهم بالحيرة والقلق فترة من نهار ذلك اليوم، أي آثار تدلهم على مكان أم المؤمنين عائشة، وبينما هم كذلك، إذ ظهرت من بعيد تركب بعيرًا، يقوده رجل، يعرفونه، إنه «صفوان بن المعطل السلمي»، واطمأن رسول الله ﷺ بعد أن وجد عائشة رضي الله عنها بخير، وسمع حديثها عن سبب تخلفها.

ولندع عائشة - أم المؤمنين رضي الله عنها - تروي القصة، وتكشف عن أحقاد اليهود والمنافقين، وكيف تلقفوا الحادثة، ونسجوا حولها ما شاءوا من مفتريات كاذبة.

قالت عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهما خرج بها معه، وإنه أقرع بيننا في غزاة، فخرج سهمي، فخرجت معه بعدما أنزل الحجاب، وأنا أحمل في هودج وأنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك، وقفل - عاد - ودنونا من المدينة أذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل، حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت من شأني أقبلت إلى الرحل، فلمست صدري، فإذا عقد لي - من جذع أظفار «نوع الحجر الكريم» - قد انقطع، فرجعت ألتمسه، فحبسني ابتغاؤه، وأقبل الرهط «مجموعة من الرجال» الذين كانوا يرحلونني، فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري، وهم يحسبون أني فيه - وكان النساء ذاك خفافًا لم يثقلهم لحم، فلم يستنكر القوم حين رفعوه خفة الهودج، فحملوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا، فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منزلهم (المكان الذي نزل فيه الجيش)، وليس فيه أحد منهم، فتيممت منزلي الذي كنت فيه، وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي فتلففت بجلبابي ثم اضطجعت في مكاني وغلبتني عيناي فنمت، إذ مر بي صفوان بن المعطل، وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته فلم يبت مع الناس فرأى سواد إنسان

نائم، فأتاني فعرفني حين رآني وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفني قال «إنا لله وإنا إليه راجعون»، فخمرت وجهي بجلبابي، والله ما يكلمني بكلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، وهوى حتى أناخ راحلته، فوطئ على يديها واستأخر عني، فركبت، وأخذ برأس البعير فانطلق سريعًا يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس، وما افتقدت حتى أصبحت ونزل الناس، وطلع الرجل يقود بي).

وبعد أن اطمأن رسول الله ﷺ ، دخلت عائشة رضي الله عنها تأوي إلى فراشها فنامت هادئة، ولكن المدينة كانت يقظى لا تنام، ذلك أن قومًا من اليهود والمنافقين، على رأسهم عبد الله بن أبي ابن سلول، الذي كان شديد الحقد على رسول الله ﷺ وشديد الكيد له، تلقفوا الحادثة، وبدأوا ينسجون حولها ما شاءوا من مفتريات كاذبة ليشفوا أحقادهم، وانتقل حديث الإفك من دار «ابن سلول» والذين معه، إلى أحياء المدينة، وردده ناس من المسلمين، فيهم «حسان بن ثابت» شاعر النبي ﷺ ، و «مسطح بن أثاثة بن عباد»، قريب أبي بكر وموضع إحسانه وبره، فقد كان يكفله ويساعده بالمال، وفيهم أيضًا «حمنة بنت جحش» ابنة عمة النبي ﷺ وأخت زوجته زينب بنت جحش.

وبلغ حديث الإفك أذني الرسول ﷺ ، كما بلغ مسامع أبي بكر وأم رومان رضي الله عنهما، فكان له وقع أليم، لكن أحدًا منهم لم يستطع أن يواجه عائشة رضي الله عنها بالشائعة الرهيبة، فقد كانت تعاني من مرض وتشتكي شكوى شديدة منذ عادت من غزوة بني المصطلق، فظلت لا تدري ما يقوله الناس عنها ولم يبلغها من ذلك شيء، إلا أنها لاحظت جفوة ظاهرة من رسول الله ﷺ وأنكرتها في نفسها، فقد عودها إذا مرضت أو اشتكت من قبل أن يلطف بها ويسأل عنها ويغمرها بحنانه، أما هذه المرة، فإنها افتقدت اللطف والحنان، إلا أن النبي ﷺ كان يدخل عليها من حين إلى حين - وعندها أمها تمرضها - فيسأل: «**كيف تيكم**»؟ ولا يزيد على ذلك!!

وعلى الرغم من أن ذلك كان يدعوها إلى الريبة، فلم تشأ عائشة رضي الله عنها أن تسأل النبي ﷺ عما يريبها من جفائه، فقد كان يبدو لها واجمًا مشغول البال، وكانت تحس بقلبها أن النبي ﷺ يتألم ويعاني من هم ثقيل، فتماسكت وهي صابرة ومتجلدة، على أمل أن تنقشع هذه السحابة التي غشيت دنياها.

تروي السيدة عائشة - رضي الله عنها - : حتى وجدت في نفسي (تأثرت) - فقلت حين رأيت ما رأيت من جفائه لي: يا رسول الله، لو أذنت لي فانتقلت إلى بيت أمي فمرضتني؟ (فوافق) وقال: لا عليك، فانتقلت إلى أمي، ولا علم لي بشيء مما كان، حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة.

فخرجت ليلة لبعض حاجتي، ومعي «أم مسطح» بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد عبد مناف «وأمها بنت صخر، خالة أبي بكر - وهي من تيم»- فوالله، إنها لتمشي معي إذ عثرت في مرطها، فقالت: تعس مسطح! قلت: بئس لعمري ما قلت لرجل من المهاجرين قد شهد بدرًا! فقالت: أو ما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر؟ قلت: وما الخبر؟ قالت: نعم والله، لقد كان.

فوالله ما قدرت على أن أقضي حاجتي، ورجعت فما زلت أبكي حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدي (يفلقه) - وقلت لأمي:

يغفر الله لك، تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئًا؟!!

قالت: أي بنية! خففي عليك الشأن (هوني على نفسك) فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا كثرن وكثر الناس عليها!!

لكن عائشة رضي الله عنها باتت مسهدة، لا يغمض لها جفن ولا يجف لها دمع.

النبي الإنسان ﷺ

وبعيدًا عنها كان النبي ﷺ يعاني مثل الذي تعانيه، قلبه يحدثه أنها ضحية اتهام ظالم فادح، وأذناه تصغيان إلى الشائعات المرجفة بالسوء، فقام ﷺ يخطب في الناس، ولم تكن عائشة تعلم ذلك - فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«**يا أيها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق؟ والله ما علمت منهم إلا خيرًا، ويقولون ذلك لرجل، والله ما علمت منه إلا خيرًا، وما يدخل بيتًا من بيوتي إلا وهو معي**» (يقصد الصحابي الجليل صفوان بن المعطل السلمي رضي الله عنه الذي عثر على السيدة عائشة رضي الله عنها وعاد بها)، وتكاد أفئدة المسلمين تنخلع تأثرًا لنبيهم في محنته وعذابه، ويثورون غضبًا لشرف زوجة كريمة، وعقيلة حرة وتعالت أصواتهم واختلطت وهم يطلبون الانتقام والتأديب، ويتماسك الأوس والخزرج مطالبين بأعناق أصحاب الإفك من هؤلاء وأولئك حتى كاد يكون بين القبيلتين الأوس والخزرج، خلاف واقتتال وشر.

وتمضي عائشة - رضي الله عنها - في وصف محنتها، فتقول:

ونزل رسول الله ﷺ فدخل عليَّ، فدعا علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد (رضي الله عنهما)، فاستشارهما، فأما أسامة فأثنى علي خيرًا وقال: يا رسول الله، أهلك ولا نعلم منها إلا خيرًا، وهذا الكذب والباطل، وأما «علي» فإنه قال: يا رسول الله، إن النساء لكثير، وإنك لقادر على أن تستخلف، وسل الجارية فإنها ستصدقك.

فدعا رسول الله ﷺ جاريتي «بريرة» ليسألها، فقام إليها علي بن أبي طالب فضربها ضربًا وهو يقول: اصدقي رسول الله ﷺ .

فتقول «بريرة»: والله ما أعلم إلا خيرًا، وما كنت أعيب على عائشة (رضي الله عنها) شيئًا إلا أني كنت أعجن عجيني فآمرها أن تحفظه فتنام عنه، فتأتي الشاه فتأكله!! ويخرج رسول الله ﷺ محزون الفؤاد.

ثم يعود بعد حين إلى بيت أبي بكر ﷺ ، فإذا عائشة رضي الله عنها هناك مسهدة الأجفان تبكي، فتبكي لها زائرة عندها من الأنصار، وأبواها ينظران إليها في صمت وأسى، ولأول مرة منذ شاع حديث «الإفك»، جلس رسول الله ﷺ يحدث عائشة رضي الله عنها، قال:

«يا عائشة، إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس، فاتقي الله، وإن كنت قد قارفت سوءًا مما يقول الناس، فتوبي إلى الله، فإن الله يقبل التوبة من عباده».

فما أن قال رسول الله ﷺ ذلك لعائشة رضي الله عنها، حتى جف دمعها، وهرب الدم من عروقها لهول ما سمعت، وحاولت أن تتكلم، فلم يتحرك لسانها، وتلفتت إلى أبويها منتظرة أن يجيبا عنها رسول الله ﷺ ، فسكتا، كأنهما لا يجدان إجابة، فصاحت فيهما بملء عذابها: ألا تجيبان؟!

قالا معًا بصوت تخنقه العبرات: والله ما ندري بم نجيب فأسعفتها عيناها بالدمع، ثم اتجهت إلى زوجها - رسول الله ﷺ - تقول في إصرار:

«والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبدًا، والله إني لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس، والله يعلم أني بريئة، لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون: لا تصدقونني».

وحاولت أن تتذكر اسم النبي يعقوب - عليه السلام - لتتأسى به، فلم تستطع، واستطردت قائلة:

ولكن سأقول كما قال أبو يوسف: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾، ثم صمتت، وتحولت فاضطجعت على فراشها.

وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها في سرد وقائع القصة:

وأنا والله أعلم حينئذ أني بريئة، وأن الله تعالى مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل الله تعالى في شأني وحيا يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله في بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله تعالى منها، فوالله ما رام مجلسه ولا خرج، حتى أنزل الله

تعالى على نبيه ﷺ فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه من نزول الوحي، وأمسك الأبوان - أبو بكر وأم رومان رضي الله عنهما أنفاسهما حتى ظنت عائشة أن نفساهما تخرج من شدة القلق، أما عائشة - رضي الله عنها - فما فزعت ولا خافت، لأنها كانت تعرف براءتها، وتعلم أن الله عز وجل لن يظلم أحدًا، ثم سري عن رسول الله ﷺ ، فجلس يمسح العرق عن جبينه وهو يضحك، وتقول عائشة رضي الله عنها: فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي: «**يا عائشة احمدي الله تعالى فإنه قد برأك**».

فقالت لي أمي: قومي إلى رسول الله ﷺ ، فقلت: «والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله تعالى، هو الذي أنزل براءتي»، ثم التفتت عائشة رضي الله عنها إلى أبيها وهو يدنو منها، فيقبل رأسها وعيناه نديتان بالدمع فرحًا وانفعالاً، فقالت له: «يا أبتاه هلا كنت عذرتني؟!» فأجاب: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إن قلت بما لا أعلم؟

وأما النبي ﷺ ، فقد رنا إليها في عطف، وهو يتذكر ما كابدت من إفك ظالم، وخرج إلى المسجد، وتلا على الناس الآيات:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١﴾ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ ﴿١٢﴾ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ لَمَسَّكُمۡ فِي مَآ أَفَضۡتُمۡ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذۡ تَلَقَّوۡنَهُۥ بِأَلۡسِنَتِكُمۡ وَتَقُولُونَ بِأَفۡوَاهِكُم مَّا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ﴿١٥﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلۡفَٰحِشَةُ فِي ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [النور: ١١ - ٢٠].

مؤامرة ضد العقيدة

وهكذا عاش رسول الله ﷺ وأهل بيته، وعاش أبو بكر الصديق ﷺ وأهل بيته، وعاش صفوان بن المعطل، وعاش المسلمون جميعًا هذا الشهر كله في جو خانق وفي آلام هائلة، بسبب حديث الإفك الذي نزلت فيه تلك الآيات.

عائشة - رضي الله عنها - الطيبة الطاهرة، البريئة الوضاءة، ترمى في أعز ما تعتز به - ترمى في شرفها - وهي ابنة الصديق الناشئة في البيت الطاهر الرفيع، وترمى في أمانتها، وهي زوج النبي ﷺ، وهي الحبيبة القريبة إلى قلبه الكبير، ثم ترمى في إيمانها، وهي المسلمة الناشئة في حجر الإسلام من أول يوم تفتحت فيه عيناها على الحياة، وأبو بكر الصديق ﷺ يرمى في عرضه، في ابنته زوج محمد ﷺ صاحبه الذي يحبه، ويطمئن إليه ونبيه الذي يؤمن به ويصدقه تصديق القلب، لا يطلب دليلاً من خارجه، والألم يفيض على لسانه، وهو الصابر المحتسب القوي على الألم فيقول: والله ما رمينا بهذا في جاهلية أفنرضى به في الإسلام؟

وأم رومان - أم عائشة رضي الله عنهما - تتماسك أمام ابنتها في محنتها، وهي مريضة، تبكي حتى تظن أن البكاء فالق كبدها، فتحاول أن تهون عليها، ولكن هذا التماسك يتداعى وابنتها تقول لها: أجيبي عني رسول الله ﷺ فتقول لها كما كان زوجها أبو بكر قد قال لها من قبل: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ .

وهذا هو الصحابي الطيب الطاهر المجاهد في سبيل الله صفوان بن المعطل ﷺ يتهم عنه يتهم بخيانة نبيه في زوجه، فيرمى بذلك في إسلامه وأمانته وشرفه وفي كل ما يعتز به صحابي، وهو من ذلك كله بريء فيقول عندما يفاجأ بالاتهام: والله ما كشفت كنف أنثى قط.

ويعلم أن حسان بن ثابت يروج لهذا الإفك عنه، فلا يملك نفسه، فيضربه بالسيف على رأسه ضربة تكاد تقتله، وهو منهي عن رفع سيفه على مسلم، ولكن الألم قد تجاوز طاقته.

ثم ها هو رسول الله ﷺ يرمى في بيته، وفي عائشة التي حلت من قلبه في مكان الإبنة والزوجة والحبيبة، يرمى في طهارة فراشه، وهو الطاهر الذي تفيض منه الطهارة، ويرمى في صيانة حرمته، وهو القائم على الحرمات في أمته، ويتحدث الناس في المدينة شهرًا كاملاً وهو لا يستطيع أن يضع لهذا كله حدًا، والله تعالى يريد لحكمة يراها أن يدع هذا الأمر شهرًا كاملاً لا يبين فيه بيانًا، ومحمد ﷺ يعاني ما يعانيه الإنسان في هذا الموقف الأليم.

وعندما تصل الآلام إلى ذروتها، يتنزل القرآن ببراءة عائشة الصديقة الطاهرة رضي الله عنها، وبراءة بيت النبوة الطيب الرفيع، ويكشف المنافقين الذين جاءوا بهذا الإفك.

ولكن الأمر لم يكن أمر عائشة رضي الله عنها، بل تجاوزه إلى شخص الرسول ﷺ ، ووظيفته في الجماعة، وإلى صلته بربه، ورسالته كلها. وما كان حديث الإفك موجه ضد عائشة وحدها، وإنما كان رمية للعقيدة في شخص نبيها وبانيها.

عائشة خير منك

ومن أجل ذلك أنزل الله تعالى القرآن ليفصل في القضية، ويرد المكيدة المدبرة ويتولى المعركة الدائرة ضد الإسلام ورسول الإسلام، ويكشف عن الحكمة العليا وراء ذلك كله، وما يعلمها إلا الله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

فهم ليسوا فردًا ولا أفرادًا، إنما هم «عصبة» متجمعة ذات هدف واحد، ولم يكن عبد الله بن أبي ابن سلول وحده هو الذي أطلق ذلك الإفك، وإنما هو الذي تولى معظمه، وهو يمثل عصبة اليهود والمنافقين الذين عجزوا عن حرب الإسلام علانية، فتواروا خلف ستار الإسلام ليكيدوا للإسلام خفية، وكان حديث الإفك إحدى مكائدهم القاتلة، ثم خدع فيها المسلمون، فخاض منهم من خاض في حديث الإفك، مثل حمنه بنت جحش، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، أما أصل التدبير فكان عند تلك العصبة، وعلى رأسها ابن سلول، الحذر الماكر الذي لم يظهر بشخصه في المعركة ولم يقل علانية ما يؤخذ به، فينفذ فيه الحد، إنما كان يهمس بين ملئه الذين يثق فيهم ويطمئن إليهم ولا يشهدون عليه، وكان التدبير من المهارة والخبث بحيث ترجف به المدينة شهرًا كاملاً وأن تتداوله الألسنة في أطهر بيئة وأنقاها.

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، خير لأنه يكشف عن الكائدين للإسلام في شخص رسول الله ﷺ وأهل بيته، ويكشف للجماعة المسلمة عن ضرورة تحريم القذف وأخذ القاذفين بالحد الذي فرضه الله، ويبين مدى الأخطار التي تصيب الجماعة لو أطلقت فيها الألسنة تقذف المحصنات الغافلات.

أما الآلام التي عاناها رسول الله ﷺ وأهل بيته، والجماعة المسلمة كلها، فهي ثمن التجربة وضريبة الابتلاء الواجبة الأداء، أما الذين خاضوا في الإفك،

فلكل واحد منهم بقدر نصيبه من تلك الخطيئة، ﴿ لِكُلِّ ٱمۡرِيٍٕ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ يناسب نصيبه من ذلك الجرم العظيم، وهذا الذي قاد الحملة واضطلع بالنصيب الأكبر منها كان هو عبد الله بن أبي ابن سلول، رأس النفاق وحامل لواء الكيد.

وقد روي أنه لما مر صفوان بن المعطل بهودج أم المؤمنين، وكان ابن سلول في ملأ من قومه، قال: من هذه؟ فقالوا عائشة رضي الله عنها، فقال: والله ما نجت منه ولا نجا منها، وقال: امرأة نبيكم باتت مع رجل حتى أصبحت ثم جاء يقودها! وهي قولة خبيثة، راح يذيعها عن طريق عصبة النفاق بوسائل ملتوية وبلغ من خبثها أن تموج المدينة بالفرية التي لا تصدق والتي تكذبها القرائن كلها، وأن تلوكها ألسنة المسلمين غير متحرجين، وأن تصبح موضوع أحاديثهم شهرًا كاملاً وهي الفرية الجديرة بأن تنفي وتستبعد للوهلة الأولى، ولو استشار كل مسلم قلبه وقتها لأفتاه، ولو عاد إلى منطق الفطرة لهداه، والقرآن الكريم يوجه المسلمين إلى هذا المنهج في مواجهة الأمور بوصفه أول خطوة في الحكم عليها: ﴿ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور:١٢].

كذلك فعل أبو أيوب الأنصاري وامرأته - رضي الله عنهما - حيث قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب، أما تسمع ما يقوله الناس في عائشة رضي الله عنها؟ قال: نعم، وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله، قال: فعائشة والله خير منك، وهذه هي الخطوة الأولى في المنهج القرآني لمواجهة الأمور، خطوة الدليل الوجداني الداخلي، أما الخطوة الثانية، فهي طلب الدليل الخارجي، والبرهان الواقعي: ﴿ لَّوۡلَا جَآءُو عَلَيۡهِ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَۚ فَإِذۡ لَمۡ يَأۡتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴾ [النور: ١٣].

وهاتان الخطوتان غفل عنهما معظم المؤمنين في حادثة الإفك، وتركوا

الناس يخوضون في عرض رسول الله ﷺ ، وهو أمر عظيم، لولا لطف الله لمس الجماعة كلها البلاء العظيم، فالله سبحانه وتعالى يحذرهم أن يعودوا لمثله أبدًا بعد هذا الدرس الأليم: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٤].

لقد احتسبها الله درسًا قاسيًا للجماعة المسلمة الناشئة، فأدركهم بفضله ورحمته ولم يمسسهم بعقابه وعذابه، فهي فعلة تستحق العذاب العظيم، الذي يتناسب مع العذاب الذي سببوه للرسول ﷺ وزوجه وصديقه، وصاحبه الذي لا يعلم عليه إلا خيرًا، والعذاب الذي يتناسب مع الشر الذي ذاع في الجماعة المسلمة والخبث الذي شاع فيها، والعذاب الذي يناسب الكيد الذي كادته عصبة المنافقين للعقيدة، لتقتلعها من جذورها حين تزلزل ثقة المؤمنين بربهم ونبيهم وأنفسهم طوال شهر كامل، حافل بالقلق والحيرة!! ولكن فضل الله تعالى تدارك الجماعة المسلمة الناشئة ورحمته شملت المخطئين بعد الدرس الأليم، ويصور القرآن الكريم تلك الفترة التي أفلت فيها الزمام، واختلت المقاييس، واضطربت فيها القيم: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٥].

وقد كان ينبغي أن تتحرج القلوب من مجرد سماعه والنطق به، وأن تنكر أن يكون هذا موضوعًا للحديث، وأن تتوجه إلى الله تعالى، تنزهه عن أن يدع نبيه لمثل هذا، وأن تقذف بهذا الإفك بعيدًا عن ذلك الجو الطاهر الكريم: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا سُبْحَـٰنَكَ هَـٰذَا بُهْتَـٰنٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور:١٦].

وعندما يصل هذا المعنى إلى أعماق القلوب، ويهزها هزًا عنيفًا وهو يطلعها على ضخامة وبشاعة ما عملت، عندئذ يجيء التحذير من العودة إلى مثل هذا الأمر العظيم: ﴿ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [النور:١٧].

﴿ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ ﴾، فيكشف ما وراء حديث الإفك من كيد، وما وقع فيه من خطايا وأخطاء.

﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾، يعلم بواعث النفس ونواياها وأهدافها وغاياها، ويعلم مداخل القلوب، وهو سبحانه حكيم في علاجها وتدبير أمرها، ووضع النظم والحدود التي تصلح بها.

إن قصة الإفك، أو محنة الإفك، هي حلقة فريدة من سلسلة وقائع الإيذاء والمحن التي لقيها رسول الله ﷺ من أعداء الإسلام، ولقد كانت هذه الحادثة أشد في وقعها على نفس النبي ﷺ من كل المحن السابقة، فهي تنم عن طبيعة الشر الذي يصدر من المنافقين، هذا الشر يكون دائمًا أقسى من غيره وأبلغ في المكيدة والضرر، حيث تكون الفرص والأسباب خاضعة لهم أكثر من غيرهم، وخبر الإفك إنما هو صورة واضحة للأذى الذي تفرد به المنافقون.

كانت قصة الإفك هذه أشد من غيرها في إيذاء النبي ﷺ ، لأن كل ما واجهه من المحن قبل ذلك كانت عبارة عن أمور يتوقعها، وقد هيأ نفسه لقبولها وتحملها، ولم تكن المواجهة معها على طريق الدعوة مفاجأة له ﷺ أما هذه القصة فقد فوجئ بها، لأنها ليست مما قد اعتاد أو توقع، إنها اليوم شيء آخر، إنها شائعة، لو صحت فكانت طعنة في أخص ما يعتز به إنسان، وما يتصف به من الشرف والكرامة، وما الذي أدراه أنها كانت شائعة صحيحة أو باطلة؟!

من هنا كان الأذى أبلغ في تأثيره من كل ما عداه، لأنه جاء ليلقي بشعوره في اضطراب مثير، ولو أن الوحي سارع إلى كشف الحقيقة وفضح إفك المنافقين، لكان في ذلك نجاة من هذا الاضطراب والشكوك المثيرة، لكن الوحي تلبث أكثر من شهر لا يعلق على ذلك، فكان ذلك مصدرًا آخر للقلق والشكوك، ومع ذلك، فإن محنة الإفك هذه جاءت منطوية على حكمة إلهية استهدفت إبراز شخصية النبي ﷺ ، وإظهارها صافية مميزة.

إن معنى النبوة في حياته ﷺ كان من المحتمل أن يبقى مشوبًا - في وهم بعض المؤمنين به، والكافرين على السواء - لو لم تأت حادثة الإفك هذه لتهز

شخصية النبي ﷺ هزًا قويًا، يفصل إنسانيته العادية عن معنى النبوة الصافية فيه، ثم لتوضح معنى النبوة والوحي توضيحًا تامًا أمام الأنظار والأفكار، حتى لا يبقى أي مجال خلط والتباس بينه وبين أي معنى من المعاني النفسية أو الشعورية الأخرى.

لقد فاجأت هذه الشائعة الخبيثة سمع النبي ﷺ ، وهو في طور من إنسانيته العادية، يتصرف ويتأمل ويفكر كأي أحد من الناس ضمن حدود العصمة المعروفة للأنبياء والمرسلين، فاستقبلها كما يستقبل مثلها أي بشر من الناس، ليس له اطلاع على غيب مكنون ولا ضمير مجهول، ولا على قصد ملفق كاذب، فاضطرب كما يضطرب الناس، وشك كما يشكون، وأخذ يقلب الرأي على وجوهه، ويستنجد في ذلك بمشورة أولي الرأي من أصحابه، وكان من مقتضى الحكمة الإلهية في إبراز هذا الجانب الإنساني المجرد في النبي ﷺ أن يتأخر الوحي كل هذه الفترة التي تأخرها حتى تتجلى للناس حقيقتان، كل منهما على غاية من الأهمية:

الحقيقة الأولى: هي أن النبي ﷺ لم يخرج بنبوته ورسالته عن كونه بشرًا من الناس، فلا ينبغي لمن آمن به أن يتصور أن النبوة قد تجاوزت به حدود البشرية، فينسب إليه من الأمور أو التأثير في الأشياء ما لا يجوز نسبته إلا إلى الله وحده.

أما الحقيقة الثانية: فهي أن الوحي الإلهي ليس شعورًا نفسيًا ينبثق من كيان النبي ﷺ ، كما أنه ليس خاضعًا لإرادته أو تطلعه وأمنياته، إذ لو كان كذلك، لكان من السهل عليه أن ينهي هذه المشكلة من يوم ميلادها ويريح نفسه من ذيولها ونتائجها، ويجعل مما يعتقد من الخير والاستقامة في أهله قرآنًا، يطمئن به أصحابه المؤمنين، ويسكت الآخرين من أصحاب الفضول، ولكنه لم يفعل، لأنه لا يملك ذلك، ويقول الدكتور محمد عبد الله دراز في بيان هذه الحقيقة في كتابه «النبأ العظيم»:

ألم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجه عائشة رضي الله عنها،

وأبطأ الوحي، وطال الأمر والناس يخوضون، حتى بلغت القلوب الحناجر، وهو لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس: «**إني لا أعلم عنها إلا خيرًا**» ثم إنه بعد أن بذل جهده في التحري والسؤال، واستشارة الأصحاب، ومضى شهر بأكمله والكل يقولون: ما علمنا عليها من سوء - لم يزد على أن قال ﷺ لعائشة رضي الله عنها آخر الأمر: «**يا عائشة أما إنه قد بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله**».

هذا كلامه ﷺ بوحي من ضميره، وهو كما نرى كلام البشر الذي لا يعلم الغيب، وكلام الصديق المتثبت الذي لا يتبع الظن ولا يقول ما ليس له به علم - على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل صدر سورة «النور» معلنًا براءتها، ومصدرًا الحكم المبرم بشرفها وطهارتها.

فماذا كان يمنعه - لو أن أمر القرآن إليه - أن يتقول هذه الكلمات الحاسمة من قبل ليحمي بها عرضه وينسبها إلى الوحي السماوي، لتنقطع ألسنة المتخرصين؟ لكنه ﷺ ما كان ليذر الكذب على الناس - حتى يلقبوه بالصادق من قبل البعثة - ثم يكذب على الله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

عائشة تؤمن بالتوحيد والعبودية

ولقد كانت عائشة - رضي الله عنها - أول من تجلت لها هاتان الحقيقتان، حتى ذهبت في توحيدها وعبوديتها لله وحده مذهبًا أنساها ما سواه، ولذلك أجابت أمها حينما طلبت إليها أن تقوم فتشكر النبي ﷺ قائلة: (لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، هو الذي أنزل براءتي).

إن هذا الكلام من السيدة عائشة رضي الله عنها قد يبدو وكأن فيه شيئًا من عدم اللباقة تجاه النبي ﷺ غير أن الظروف والحالة، هما اللذان أمليا عليها هذا الكلام، فهي إنما انساقت بوحي الحالة التي كونتها الحكمة الإلهية، تثبيتًا لعقيدة المؤمنين، وقطعًا لإفك المنافقين والملحدين، وإظهارًا لمعنى التوحيد والعبودية الشاملة لله وحده.

وفي قصة الإفك هذه، ما يدلنا على مشروعية حد القذف، فقد أمر النبي ﷺ بأولئك الذين تفوهوا بصريح القذف، فضربوا حد القذف، وهو ثمانون جلدة.

وقد نجا من الحد عبد الله بن أبي ابن سلول، الذي تولى كبر هذه الشائعة وتسييرها بين الناس، والسبب كما يقول ابن القيم: أنه كان يعالج الحديث من الإفك بين الناس بخبث، فكان يتوخى الكلام فيه ويجمعه ويحكيه في قوالب من لا ينسب إليه بينما يقع حد القذف على من يتفوه به بصريح القول، وأقيم الحد على: حسان بن ثابت (شاعر النبي ﷺ) وأثاثة بن عباد (قريب أبي بكر الصديق رضي الله عنه وموضع إحسانه وبرّه) وحمنة بنت جحش ابن عمة النبي ﷺ ، وأخت زوجته زينب بنت جحش رضي الله عنها، بأمر الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٤].

وذلك صيانة للأعراض من التهجم، وحماية لأصحابها من الآلام الفظيعة التي تنالهم، ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٥].

وقد اختلف الفقهاء في هذا الاستثناء: هل يعود إلى العقوبة الأخيرة وحدها، فيرفع عن التائب وصف الفسق، وتظل شهادته مردودة وغير مقبولة، أم أن شهادته تقبل كذلك بالتوبة: فقال الأئمة: مالك وأحمد بن حنبل والشافعي بأنه إذا تاب، قبلت شهادته وارتفع عنه حكم الفسق، بينما قال الإمام أبو حنيفة: يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة، فيرتفع الفسق بالتوبة، وتبقى شهادته غير مقبولة - وأضاف «الشعبي والضحاك»: إلا أن يعترف على نفسه أنه قال البهتان فيما قذف، فحينئذ تقبل شهادته.

ويميل الأستاذ سيد قطب إلى هذا الرأي الأخير، لأنه يزيد على التوبة إعلان براءة المقذوف، وذلك باعتراف مباشر من القاذف فيمحى آخر أثر للواقعة، ولا يقال: إنما وقع الحد لعدم كفاية الأدلة.

أحظى النساء

وعادت السيدة الطاهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها إلى مكانها في البيت النبوي، وإلى موقعها في قلب رسول الله ﷺ ، تحف بها هالة من آيات النور، نصرًا إلهيًا، جعل براءتها من الإفك الأثيم قرآنًا يتعبد به المسلمون، وهي تروي عن رسول الله ﷺ قوله: «**حبك يا عائشة في قلبي كالعروة الوثقى**».

وتتباهى رضي الله عنها بهذا الحب، فتقول: «أية امرأة كانت أحظى عند زوج مني»؟ وقد ظلت السيدة عائشة رضي الله عنها – طوال حياتها – تبارك الشهر الذي خطبها فيه رسول الله ﷺ وتزوجها فيه، فكانت تستحب أن تزوج النساء من أهلها في شهر شوال، وتقول: (تزوجني رسول الله ﷺ في شوال، وبنى بي في شوال، فأي نساء رسول الله ﷺ كانت أحظى مني)؟.

قام الأستاذ أبو الأعلى المودودي – رحمه الله – بحصر الأحكام الشرعية التي نزلت في سورة «النور» التي عالجت «حادث الإفك»- وذلك في كتابه: «تفسير سورة النور»- وقد يكون من المناسب هنا أن نعرف هذا الحصر لهذه الأحكام، التي تتعلق بالتربية الخلقية والاجتماعية وبالتدابير القانونية لبناء المجتمع الإسلامي السليم، يقول الأستاذ المودودي: ثم لما وقع الاضطراب في مجتمع المدينة بحادث الإفك، نزلت سورة «النور» على النبي ﷺ بما فيها من الأحكام والتعليمات المتعلقة بالأخلاق والاجتماع والقانون، والتي المقصود من ورائها حفظ المجتمع الإسلامي من نشوء الرذائل وانتشارها، والعمل على تداركها التام أنى نشأت وانتشرت فيه على كل حال»، وفيما يلي نسرد لك هذه الأحكام والتعليمات بالترتيب الذي نزلت به في هذه السورة، ليسهل عليك أن تدرك كيف أن القرآن الحكيم يأتي بتدابير قانونية وخلقية واجتماعية، في آن واحد، لإصلاح الحياة البشرية وتعميرها عند المواقع النفسية.

جعل حد الزنا مائة جلدة، أي قرر الزنا جريمة جنائية، وقد كان قرر من قبل بأنها جريمة اجتماعية أو عائلية (في سورة النساء:١٥).

- نهى المؤمنين عن أن يرتبطوا بالفاسقين والفاسقات بصلة التزاوج.
- جعل حد من يرمي غيره - وكان محصنًا - بالزنا، ثم لا يأتي بأربعة شهداء ثمانين جلدة.
- وجعل اللعان لمن يرمي بالزنا زوجته.
- ومن التعليمات التي وجهها الله تبارك وتعالى إلى أفراد المجتمع الإسلامي - وذلك ضمن الآية التي نزلت فيها براءة السيدة عائشة رضي الله عنها مما قال عليها المفترون - أن لا يقبلوا من كل أحد قوله بدون روية إذا كان يرمى غيره بما لا يرونه فيه، ولا يشيعوه في المجتمع، بل إن من واجبهم إذا وجدوا أن مثل هذه الافتراءات والاتهامات الكاذبة قد فشت في المجتمع، أن يعملوا على كبتها، ويحولوا دون شيوعها، ويجتنبوا تناقلها بينهم.

ومن التعليمات الأساسية التي ألقيت في روع المؤمنين بهذا الصدد، أنه لا يتصل الطيب من الرجال إلا بالطيبة من النساء، وأنه من المحال ألبتة أن يوافق طبع رجل طيب طبع امرأة خبيثة مستهترة، كما أن المرأة الطيبة لا يمكن أن توافق روحها رجلاً خبيثًا، فكأنه قد قيل للمسلمين هكذا: إنكم إذا كنتم تعرفون أن الرسول ﷺ رجل طيب، بل هو أطيب الناس وأطهرهم، فكيف استقر في عقولكم أنه كان من الممكن أن يتصل بامرأة خبيثة بصلة الزوجية، ويجعل رفيقته وموضع سره في الحياة.

تأملوا أن المرأة التي ما وجدت في نفسها ما يردعها عن ارتكاب أشنع وأفظع جريمة - كالزنا - كيف كان من الممكن أن يصاحبها النبي ﷺ في حياته وهو أطيب البشر وأطهرهم؟ فالحقيقة أن هذا الإفك - الذي جاء به عصبة من رجالكم - ليس جديرًا بأن تلتفتوا إليه وتحسبوه ممكن الوقوع، فضلاً عن أن تقبلوه وتتناقلوه في أحاديثكم ومجالسكم، أعملوا فكركم قليلاً وانظروا: من الذي جاء بهذا الإفك وعلى من جاء به.

والذين يلفقون الأخبار ويذيعونها أو يحاولون أن تشيع الفاحشة في المجتمع

المسلم، لا يستحقون الحماية والتشجيع بل يستحقون العقاب.

وقرر - كقاعدة عامة - أن الظن الحسن للمؤمنين بأنفسهم هو الأساس للروابط الاجتماعية في المجتمع، فكل فرد من افراده بريء ما لم يثبت ارتكابه لجريمة من الجرائم، وليس أساس هذه الروابط سوء الظن حيث يكون كل فرد من أفراد المجتمع مجرمًا ما لم تثبت براءته.

أمر الناس جميعًا أن لا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم بدون استئناس أي استعلام أهلها.

أمر الرجال بالغض من أبصارهم عن غير المحرمات، مما هو مبين في السنة، وأمر النساء بالغض من أبصارهن عن غير المحارم من الرجال.

أمر النساء - مع ذلك - أن لا يواجهن أحدًا من غير المحارم وخدام البيت بزينتهن.

أمر النساء كذلك، أنهن إذا خرجن من بيوتهن في حاجة، فليسترن زينتهن بل لا يلبسن ما له صوت من حليهن.

ندد أشد التنديد ببقاء الرجال والنساء بدون زواج في المجتمع، وأمر من كان فيه من الرجال والنساء، بل ومن العبيد والإماء أن ينكحوا وينكحوا، لأن بقاء أحد بدون زواج يسبب ظهور الفحشاء وينفعل بها إذا ظهرت، وأقل ما يكون من مثل هؤلاء الأفراد الذين لا زواج لهم أنهم لا يملكون أنفسهم من تحسس أخبار الفاحشة والتلذذ بنقلها في المجتمع.

نهى عن إكراه الفتيات - وهن الإماء - على البغاء، ولما كانت مهنة البغاء في العرب قاصرة على الإماء، فما كان هذا النهي عنها إلا سدًا قانونيًا للبغاء وبيع الأعراض.

قررت قاعدة الاستئذان بالنسبة للخدم والذين لم يبلغوا الحلم من الأطفال، فلا يهجموا على أهل بيتهم في الأوقات الثلاثة الآتية: قبل صلاة الفجر، وحين يضع الناس ثيابهم من الظهيرة، وبعد صلاة العشاء.

فيجب أن يعود الإنسان أولاده - حتى الصغار منهم - هذه القاعدة ويربيهم عليها، وقررت أيضًا عند بلوغ الأطفال الحلم - أي البلوغ - أن يستأذنوا في عموم الأوقات عندما يريدون الدخول على أهل بيتهم.

أذن للقواعد من النساء - العجائز اللاتي لا يجدن من أنفسهن رغبة في الرجال - أن يخلعن الخمر من رءوسهن ووجوههن، ولكن أمرن أن يتجنبن التبرج، بل قرر أنه من الخير أن يبقين كاسيات بخمرهن.

وبالإضافة إلى هذه القواعد والأحكام، فقد تم الكشف في هذه السورة (سورة النور) عن علامات المنافقين والمؤمنين الواضحة، التي يقدر بها كل مسلم أن يميز المؤمنين من المنافقين في المجتمع، وأحكم نظام جماعة المسلمين إحكامًا شديدًا أكثر من ذي قبل بقواعد جديدة ليزداد قوة إلى قوته، فإن الضعف فيه هو الذي يحمل الكفار والمنافقين على إثارة الفتن والمفاسد.

والذي يجدر بالملاحظة هنا أن سورة «النور» خالية من أي مرارة قد تنشأ في الأذهان والقلوب عند رد الحملات الشنيعة القذرة، انظر في جانب الظروف التي نزلت فيها هذه السورة، وانظر إلى الجانب الآخر فيما تشتمل عليه من الموضوعات، تعرف أي طريق معتدل انتهجه الله تبارك وتعالى في هذه السورة للتشريع وتنزيل أحكامه القويمة وتعليماته الحكيمة، مما لا يعلمنا فحسب: أي رزانة وتدبر معتدل، وترفع عظيم، وحكمة بالغة علينا أن نواجه بها الفتن، ونعالجها في أقسى الظروف المثيرة للعواطف.

بل يثبت لنا في الوقت نفسه أن ليس هذا الكتاب مما اختلقه رسول الله ﷺ من عند نفسه، بل قد أنزله الله عليه - الله الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وهو يرى أحوال الناس ومعاملاتهم - صغيرها وكبيرها - من مقام رفيع، وهو يملك ناصية الهداية والإرشاد بدون أن يتأثر بذاته القدسية بهذه الأحوال والمعاملات، ولو أن هذا الكتاب كان من عند النبي ﷺ لكان قد ظهر فيه ولو بعض أثر للمرارة التي لابد أن يجدها كل إنسان عفيف في نفسه إذا أصيب في عرضه، وذلك على الرغم مما يتحلى به النبي ﷺ من مزايا الصبر والأناة ورحابة الصدر وتحمل الشدائد.

الفصل الثالث

ذِكرُ مريم عليها السلام

- من هي سيدة نساء العالمين عليها السلام.
- ذكر مريم في القرآن الكريم.
- ذكر عيسى عليه السلام في القرآن الكريم.
- قصة عيسى عليه السلام.
- ذكر خبر المائدة ورفع عيسى عليه السلام.
- براءة مريم عليها السلام.



من هي مريم عليها السلام؟[1]

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٥ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران: ٣٥، ٣٦].

فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَانَ ﴾ قال أبو عبيد: (إذ) زائدة، وقال محمد بن يزيد: التقدير اذكر إذ، وقال الزجاج: المعنى واصطفى آل عمران إذ قالت امرأة عمران، وهي حنة (بالحاء المهملة والنون) بنت فاقود بن قنبل أم مريم جدة عيسى عليه السلام، وليس باسم عربي ولا يعرف في العربية حنة اسم امرأة، وفي العربية أبو حنة البدري، ويقال فيه: أبو حبة (بالباء بواحدة) وهو أصح، واسمه عامر، ودير حنة بالشأم، ودير[2] آخر أيضا يقال له كذلك؛ قال أبو نواس:

يا دير حنة من ذات أكيراح[3] من يصح عنك فإني لست بالصاحي

وحبة في العرب كثير، منهم أبو حبة الأنصاري، وأبو السنابل بن بعكك المذكور في حديث سبيعة [4] حبة.

---

(١) القرطبي (١٣٠٦ - ١٣٤٣).

(٢) هو (دير حنة) بالحيرة من بناء نوح (راجع مسالك الأبصار ج١ ص ٣١٢ طبعة دار الكتب المصرية).

(٣) الأكيراح (بالضم ثم الفتح وياء ساكنة وراء وألف وحاء): مواضع تخرج إليها النصارى في أعيادهم (عن القاموس). وفي مسالك الأبصار (أنها قباب صغار يسكنها رهبان يقال للواحد منها الكرح).

(٤) هي سبيعة بنت الحارث الأسلمية، كانت زوجة لسعد بن خولة فمات عنها بمكة فقال لها أبو السنابل حبة: إن أجلك أربعة أشهر وعشر، وقد كانت وضعت بعد وفاة

ولا يعرف خنة بالخاء المعجمة (ونون)[١] إلا بنت يحيي بن أكثم القاضي، وهي أم[٢] محمد بن نصر، ولا يعرف جنة (بالجيم) إلا أبو جنة، وهو خال ذي الرمة الشاعر، كل هذا من كتاب ابن ماكولا.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴾ [آل عمران: ٣٥]، تقدم معنى النذر[٣]، وأنه لا يلزم العبد إلا بأن يلزم نفسه، يقال: إنها لما حملت قالت: لئن نجاني الله ووضعت ما في بطني لجعلته محررا، ومعنى (لك) أي لعبادتك، (محررا) نصب على الحال، وقيل: نعت لمفعول محذوف، أي إني نذرت لك ما في بطني غلاما محررا، والأول أولى من جهة التفسير وسياق الكلام والإعراب، أما الإعراب فإن إقامة النعت مقام المنعوت لا يجوز في مواضع ويجوز على المجاز في أخرى، وأما التفسير فقيل إن سبب قول امرأة عمران هذا أنها كانت كبيرة لا تلد، وكانوا أهل بيت من الله بمكان وأنها كانت تحت شجرة فبصرت بطائر يزق فرخا فتحركت نفسها لذلك، ودعت ربها أن يهب لها ولدا، ونذرت إن ولدت أن تجعل ولدها محررا، أي عتيقا خالصا لله تعالى، خادما للكنيسة حبيسا عليها، مفرغا لعبادة الله تعالى.

وكان ذلك جائزا في شريعتهم، وكان على أولادهم أن يطيعوهم، فلما وضعت مريم قالت: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ ﴾ يعني أن الأنثى لا تصلح لخدمة الكنيسة، قيل: لما يصيبها من الحيض والأذى، وقيل: لا تصلح لمخالطة الرجال،

زوجها بليال، قيل خمس وعشرون ليلة، وقيل أقل من ذلك.فلما قال أبو السنابل ذلك أتت إلى النبي ﷺ فأخبرته فقال لها: (قد حللت فانكحي من شئت) روى عنها فقهاء أهل المدينة وفقهاء أهل الكوفة من التابعين حديثها هذا. وذكر ابن سعد أن أبا السنابل ابن بعكك قد كان فيمن خطبها. وذكر ابن البرقي أنه تزوجها وأولدها ابنه سنابل. (راجع كتاب الاستيعاب وتهذيب التهذيب وطبقات ابن سعد).

(١) زيادة عن كتاب المشتبه للذهبي.

(٢) الذي في المشتبه: (زوجة محمد).

(٣) راجع جـ ٣ ص ٣٣٠ طبعة أولى أو ثانية.

وكانت ترجو أن يكون ذكرا فلذلك حررت.

الثالثة: قال ابن العربي: لا خلاف أن امرأة عمران لا يتطرق إلى حملها نذر لكونها حرة، فلو كانت امرأته أمة فلا خلاف أن المرء لا يصح له نذر في ولده كيفما تصرفت حاله؛ فإنه إن كان الناذر عبدا فلم يتقرر له قول في ذلك؛ وإن كان حرا فلا يصح أن يكون مملوكا له، وكذلك المرأة مثله؛ فأي وجه للنذر فيه، وإنما معناه والله أعلم أن المرء إنما يريد ولده للأنس به والاستنصار والتسلي، فطلبت هذه المرأة الولد أنسًا به وسكونا إليه؛ فلما مَنَّ الله تعالى عليها به نذرت أن حظها من الأنس به متروك فيه، وهو على خدمة الله تعالى موقوف.

وهذا نذر الأحرار من الأبرار، وأرادت به محررًا من جهتي، محررًا من رق الدنيا وأشغالها؛ وقد قال رجل من الصوفية لأمه: يا أمه: ذريني لله أتعبد له وأتعلم العلم، فقالت: نعم، فسار حتى تبصر ثم عاد إليها فدق الباب، فقالت من؟ فقال لها: ابنك فلان، قالت: قد تركناك لله ولا نعود فيك.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿ مُحَرَّرًا ﴾ مأخوذ من الحرية التي هي ضد العبودية؛ من هذا تحرير الكتاب، وهو تخليصه من الاضطراب والفساد، وروى خصيف عن عكرمة ومجاهد: أن المحرر الخالص لله عز وجل لا يشوبه شيء من أمر الدنيا، وهذا معروف في اللغة أن يقال لكل ما خلص: حر، ومحرر بمعناه؛ قال ذو الرمة:

والقــرط في حــرة الذفرى معلقةٌ تــباعد الحبل منه فهو يضطرب[1]

وطين حر لا رمل فيه، وباتت فلانة بليلة حرة إذا لم يصل إليها زوجها أول ليلة؛ فإن تمكن منها فهي بليلة شيباء.

---

(١) الذفريان: ما بين يمين العنق ويساره. وتباعد الحبل منه، أي تباعد حبل العنق من القرط لأنها طويلة العنق ليست بوقصاء. ومعلقة، أي مكان تعليقه.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ قال ابن عباس: إنما قالت هذا لأنه لم يكن يقبل في النذر إلا الذكور، فقبل الله مريم، (وأنثى) حال، وإن شئت بدل، فقيل: إنها ربتها حتى ترعرعت وحينئذ أرسلتها؛ رواه أشهب عن مالك، وقيل: لفتها في خرقتها وأرسلت بها إلى المسجد، فوفت بنذرها وتبرأت منها، ولعل الحجاب لم يكن عندهم كما كان في صدر الإسلام؛ ففي البخاري ومسلم أن امرأة سوداء كانت تقم المسجد على عهد رسول الله ﷺ فماتت، الحديث.

السادسة: قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ هو على قراءة من قرأ (وَضَعْتُ) بضم التاء من جملة كلامها؛ فالكلام متصل، وهي قراءة أبي بكر وابن عامر، وفيها معنى التسليم لله والخضوع والتنزيه له، ولم تقله على طريق الإخبار لأن علم الله في كل شيء قد تقرر في نفس المؤمن، وإنما قالته على طريق التعظيم والتنزيه لله، وعلى قراءة الجمهور هو من كلام الله عز وجل قدم، وتقديره أن يكون مؤخرا بعد ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ والله أعلم بما وضعت؛ قاله المهدوي، وقال مكي: هو إعلام من الله تعالى لنا على طريق التثبيت فقال: والله أعلم بما وضعت أم مريم قالته أو لم تقله، ويقوي ذلك أنه لو كان من كلام أم مريم لكان وجه الكلام: وأنت أعلم بما وضعت؛ لأنها نادته في أول الكلام في قولها: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ وروي عن ابن عباس (بما وضعتِ) بكسر التاء، أي قيل لها هذا.

السابعة: قوله تعالى: ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ استدل به بعض الشافعية على أن المطاوعة في نهار رمضان لزوجها على الوطء لا تساويه في وجوب الكفارة عليها، ابن العربي: وهذه منه غفلة، فإن هذا خبر عن شرع من قبلنا وهم لا يقولون به، وهذه الصالحة إنما قصدت بكلامها ما تشهد له به بينة حالها ومقطع كلامها، فإنها نذرت خدمة المسجد في ولدها، فلما رأته أنثى لا تصلح وأنها عورة اعتذرت إلى ربها من وجودها لها على خلاف ما قصدته فيها، ولم ينصرف (مريم) لأنه مؤنث معرفة، وهو أيضا أعجمي؛ قاله النحاس، والله تعالى أعلم.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ﴾ يعني خادم الرب بلغتهم، ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ ﴾ يعني مريم، ﴿ وَذُرِّيَّتَهَا ﴾ يعني عيسى، وهذا يدل على أن الذرية قد تقع على الولد خاصة، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخا من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه**» ثم قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾، قال علماؤنا: فأفاد هذا الحديث أن الله تعالى استجاب دعاء أم مريم، فإن الشيطان ينخس جميع ولد آدم حتى الأنبياء والأولياء إلا مريم وابنها، قال قتادة: كل مولود يطعن الشيطان في جنبه حين يولد غير عيسى وأمه جعل بينهما حجاب فأصابت الطعنة الحجاب و لم ينفذ لهما منه شيء، قال علماؤنا: وإن لم يكن كذلك بطلت الخصوصية بهما، ولا يلزم من هذا أن نخس الشيطان يلزم منها إضلال الممسوس وإغواؤه فإن ذلك ظن فاسد؛ فكم تعرض الشيطان للأنبياء والأولياء بأنواع الإفساد والإغواء ومع ذلك عصمهم الله مما يرومه الشيطان؛ كما قال: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢]، هذا مع أن كل واحد من بني آدم قد وكل به قرينه من الشياطين؛ كما قال رسول الله ﷺ: «**فمريم وابنها وإن عصما من نخسه فلم يعصما من ملازمته لهما ومقارنته**»، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [آل عمران: ٣٧، ٣٨].

قوله تعالى: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ المعنى: سلك بها طريق السعداء؛ عن ابن عباس، وقال قوم: معنى التقبل التكفل في التربية والقيام بشأنها،

وقال الحسن: معنى التقبل أنه ما عذبها ساعة قط من ليل ولا نهار، ﴿ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ يعني سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان، فكانت تنبت في اليوم ما ينبت المولود في عام واحد، والقبول والنبات مصدران على غير المصدر، والأصل تقبلا وإنباتا، قال الشاعر:

أكفـرًا بعـد رد المـوت عـني وبعد عطائك المائة الرتاعـا

أراد بعد إعطائك، لكن لما قال (أنبتها) دل على نبت؛ كما قال امرؤ القيس:

فصرنا إلى الحسنى ورق كلامنا ورضت فذلت صعبة أي إذلال

وإنما مصدر ذلت ذل، ولكنه رده على معنى أذللت؛ وكذلك كل ما يرد عليك في هذا الباب، فمعنى تقبل وقبل واحد، فالمعنى فقبلها ربها بقبول حسن، ونظيره قول رؤبة:

وقد تطويت انطواء الحضب

لأن معنى تطويت وانطويت واحد؛ ومثله قول القطامي:

وخير الأمر ما استقبلت منه وليس بأن تتبعه اتباعا

لأن تتبعت واتبعت واحد، وفي قراءة ابن مسعود (وأنزل الملائكة تنزيلاً) لأن معنى نزل وأنزل واحد، وقال المفضل: معناه وأنبتها فنبتت نباتًا حسنًا، ومراعاة المعنى أولى كما ذكرنا، والأصل في القبول الضم؛ لأنه مصدر مثل الدخول والخروج، والفتح جاء في حروف قليلة؛ مثل الولوع والوزوع؛ هذه الثلاثة لا غير، قاله أبو عمرو والكسائي والأئمة، وأجاز الزجاج (بقبول) بضم القاف على الأصل.

قوله تعالى: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ أي ضمها إليه، أبو عبيدة: ضمن القيام بها، وقرأ الكوفيون (وكفلها) بالتشديد، فهو يتعدى إلى مفعولين؛ والتقدير وكفلها ربها زكريا، أي ألزمه كفالتها وقدر ذلك عليه ويسره له، وفي مصحف أبي (وأكفلها) والهمزة كالتشديد في التعدي؛ وأيضا فإن قبله (فتقبلها، وأنبتها) فأخبر تعالى عن نفسه بما فعل بها؛ فجاء (كفلها) بالتشديد على ذلك، وخففه

الباقون على إسناد الفعل إلى زكريا، فأخبر الله تعالى أنه هو الذي تولى كفالتها والقيام بها؛ بدلالة قوله: ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾.

قال مكي: وهو الاختيار؛ لأن التشديد يرجع إلى التخفيف، لأن الله تعالى إذا كفلها زكريا كفلها بأمر الله، ولأن زكريا إذا كفلها فعن مشيئة الله وقدرته؛ فعلى ذلك فالقراءتان متداخلتان، وروى عمرو بن موسى عن عبد الله بن كثير وأبي عبد الله المزني (وكفلها) بكسر الفاء، قال الأخفش: يقال كفل يكفل وكفل يكفل ولم أسمع كفل، وقد ذكرت، وقرأ مجاهد (فتقبلها) بإسكان اللام على المسألة والطلب، (ربها) بالنصب نداء مضاف، (وأنبتها) بإسكان التاء (وكفلها) بإسكان اللام (زكرياء) بالمد والنصب.

وقرأ حفص وحمزة والكسائي (زكريا) بغير مد ولا همز، ومده الباقون وهمزوه، وقال الفراء: أهل الحجاز يمدون (زكرياء) ويقصرونه، وأهل نجد يحذفون منه الألف ويصرفونه فيقولون: زكرى.

قال الأخفش: فيه أربع لغات: المد والقصر، وزكرى بتشديد الياء والصرف، وزكر ورأيت زكريا، قال أبو حاتم: زكرى بلا صرف لأنه أعجمي وهذا غلط؛ لأن ما كان فيه (يا) مثل هذا انصرف مثل كرسي ويحيى، ولم ينصرف زكرياء في المد والقصر لأن فيه ألف تأنيث والعجمة والتعريف.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾.

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ﴾ المحراب في اللغة أكرم موضع في المجلس، وسيأتي له مزيد بيان في سورة (مريم)[1]، وجاء في الخبر: إنها كانت في غرفة كان زكريا يصعد إليها يسلم، قال وضاح اليمن[2]:

---

(١) عند قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ [مريم: ١١].

(٢) في الأصول: (قال عدي بن زيد) والتصويب عن الأغاني ولسان العرب وشرح =

ربة محراب إذا جئتها لم ألقها أو أرتقي سلما

أي ربة غرفة، روى أبو صالح عن ابن عباس قال: حملت امرأة عمران بعد ما أسنَّت فنذرت ما في بطنها محررا فقال لها عمران: ويحك! ما صنعت؟ أرأيت إن كانت أنثى، فاغتما لذلك جميعا، فهلك عمران وحنة حامل فولدت أنثى فتقبلها الله بقبول حسن، وكان لا يحرر إلا الغلمان فتساهم عليهم الأحبار بالأقلام التي يكتبون بها الوحي، على ما يأتي، فكفلها زكريا وأخذ لها موضعا فلما أسنت جعل لها محرابا لا يرتقي إليه إلا بسلم، واستأجر لها ظئرا وكان يغلق عليها بابا، وكان لا يدخل عليها إلا زكريا حتى كبرت، فكانت إذا حاضت أخرجها إلى منزله فتكون عند خالتها وكانت خالتها امرأة زكريا في قول الكلبي، وقال مقاتل: كانت أختها امرأة زكريا، وكانت إذا طهرت من حيضتها واغتسلت ردها إلى المحراب، وقال بعضهم: كانت لا تحيض وكانت مطهرة من الحيض، وكان زكريا إذا دخل عليها يجد عندها فاكهة الشتاء في القيظ وفاكهة القيظ في الشتاء فقال: يا مريم أنى لك هذا؟ فقالت: هو من عند الله، فعند ذلك طمع زكريا في الولد وقال: إن الذي يأتيها بهذا قادر أن يرزقني ولدا، ومعنى (أنى) من أين؛ قال أبو عبيدة، قال النحاس: وهذا فيه تساهل؛ لأن (أين) سؤال عن المواضع و (أنى) سؤال عن المذاهب والجهات والمعنى من أي المذاهب ومن أي الجهات لك هذا، وقد فرق الكميت بينهما فقال:

أنى ومن أين إليك الطرب من حيث لا صبوة ولا ريب

و(كلما) منصوب بوجد، أي كل دخلة، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴾ قيل: هو من قول مريم، ويجوز أن يكون مستأنفا؛ فكان ذلك سبب

= القاموس.

راجع ترجمته في الأغاني جـ ٦ ص ٢٠٩ - ٢٤٠ طبع دار الكتب المصرية.

دعاء زكريا وسؤاله الولد.

الثانية: قوله تعالى: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ﴾ هنالك في موضع نصب؛ لأنه ظرف يستعمل للزمان والمكان وأصله للمكان، وقال المفضل بن سلمة: (هنالك) في الزمان و(هناك) في المكان، وقد يجعل هذا مكان هذا، و﴿ هَبْ لِي ﴾ أعطني، ﴿ مِن لَّدُنكَ ﴾ من عندك، ﴿ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ أي نسلا صالحا، والذرية تكون واحدة وتكون جمعا ذكرا وأنثى، وهو هنا واحد، يدل عليه قوله ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥]، ولم يقل أولياء وإنما أنث (طيبة) لتأنيث لفظ الذرية؛ كقوله:

أبوك خليفة ولدته أخرى وأنت خليفة ذاك الكمال

فأنث ولدته لتأنيث لفظ الخليفة.

وروي من حديث أنس قال قال النبي ﷺ: «**أي رجل مات وترك ذرية طيبة أجرى الله له مثل أجر عملهم ولم ينقص من أجورهم شيئا**».

وقد مضى في (البقرة) اشتقاق الذرية، و﴿ طَيِّبَةً ﴾ أي صالحة مباركة، ﴿ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ أي قابله؛ ومنه سمع الله لمن حمده.

الثالثة: دلت هذه الآية على طلب الولد وهي سنة المرسلين والصديقين، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد: ٣٨]، وفي صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: أراد عثمان أن يتبتل فنهاه رسول الله ﷺ، ولو أجاز له ذلك لاختصينا، وخرج ابن ماجه عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**النكاح من سنتي فمن لم يعمل بسنتي فليس مني وتزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم ومن كان ذا طول فلينكح ومن لم يجد فعليه بالصوم فإنه له وجاء**[1]».

وفي هذا رد على بعض جهال المتصوفة حيث قال: الذي يطلب الولد

---

(١) الوجاء: أن ترض أنثيا الفحل رضًا شديدا يذهب شهوة النكاح. أراد أن الصوم يقطع النكاح كما يقطعه الوجاء.

أحمق، وما عرف أنه الغبي الأخرق، قال الله تعالى مخبرا عن إبراهيم الخليل: ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤]، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان: ٧٤]، وقد ترجم البخاري على هذا (باب طلب الولد)، وقال ﷺ لأبي طلحة حين مات ابنه: «**أعرستم الليلة**»؟ قال: نعم، قال: «**بارك الله لكما في غابر ليلتكما**»، قال: فحملت، في البخاري: قال سفيان فقال رجل من الأنصار: فرأيت تسعة أولاد كلهم قد قرءوا القرآن، وترجم أيضًا (باب الدعاء بكثرة الولد مع البركة) وساق حديث أنس بن مالك قال: قالت أم سليم: يا رسول الله، خادمك أنس ادع الله له، فقال: «**اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته**» وقال ﷺ: «**اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبه في الغابرين**» خرجه البخاري ومسلم، وقال ﷺ: «**تزوجوا الولود الودود فإني مكاثر بكم الأمم**»، أخرجه أبو داود.

والأخبار في هذا المعنى كثيرة تحث على طلب الولد وتندم إليه؛ لما يرجوه الإنسان من نفعه في حياته وبعد موته، قال ﷺ: «**إذا مات أحدكم انقطع عمله إلا من ثلاث**» فذكر «**أو ولد صالح يدعو له**»، ولو لم يكن إلا هذا الحديث لكان فيه كفاية.

الرابعة: فإذا ثبت هذا فالواجب على الإنسان أن يتضرع إلى خالقه في هداية ولده وزوجه بالتوفيق لهم والهداية والصلاح والعفاف والرعاية، وأن يكونا معينين له على دينه ودنياه حتى تعظم منفعته بهما في أولاه وأخراه؛ ألا ترى قول زكريا ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم: ٦]، وقال: ﴿ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾، وقال: ﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان: ٧٤]، ودعا رسول الله ﷺ لأنس فقال: «**اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيه**»، خرجه البخاري ومسلم، وحسبك.

ذكر مريم المصطفاة[1]

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢].

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ ﴾ أي اختارك، ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ أي من الكفر؛ عن مجاهد والحسن. الزجاج: عن سائر الأدناس من الحيض والنفاس وغيرهما، واصطفاك لولادة عيسى، ﴿ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يعني عالمي زمانها؛ عن الحسن وابن جريج وغيرهما. وقيل: على نساء العالمين أجمع إلى يوم الصور؛ وهو الصحيح على ما نبينه، وهو قول الزجاج وغيره. وكرر الاصطفاء لأن معنى الأول الاصطفاء لعبادته، ومعنى الثاني لولادة عيسى.

وروى مسلم عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «**كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء غير مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**». قال علماؤنا رحمة الله عليهم: الكمال هو التناهي والتمام. ويقال في ماضيه (كمل) بفتح الميم وضمها، ويكمل في مضارعه بالضم. وكمال كل شيء بحسبه. والكمال المطلق إنما هو لله تعالى خاصة. ولاشك أن أكمل نوع الإنسان الأنبياء ثم يليهم الأولياء من الصديقين والشهداء والصالحين. وإذا تقرر هذا فقد قيل: إن الكمال المذكور في الحديث يعني به النبوة فيلزم عليه أن تكون مريم عليها السلام وآسية نبيتين، وقد قيل بذلك. والصحيح أن مريم نبية؛ لأن الله تعالى أوحى إليها بواسطة الملك كما أوحى إلى سائر النبيين حسب ما تقدم ويأتي بيانه أيضًا في (مريم). وأما آسية فلم يرد ما يدل على نبوتها دلالة واضحة بل على صديقيتها وفضلها، على ما يأتي بيانه في (التحريم).

---

(١) إن الله تعالى اصطفاها على نساء العالمين في زمانها وليس على كل العالمين راجع تفسير القرطبي (١٣٢٤ - ١٣٤٣).

وروي من طرق صحيحة أنه عليه السلام قال فيما رواه عنه أبو هريرة: «**خير نساء العالمين أربع مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد**». ومن حديث ابن عباس عن النبي ﷺ: «**أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد ومريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون**» وفي طريق آخر عنه: «**سيدة نساء أهل الجنة بعد مريم فاطمة وخديجة**».

فظاهر القرآن والأحاديث يقتضي أن مريم أفضل من جميع نساء العالم من حواء إلى آخر امرأة تقوم عليها الساعة؛ فإن الملائكة قد بلغتها الوحي عن الله عز وجل بالتكليف والإخبار والبشارة كما بلغت سائر الأنبياء؛ فهي إذا نبية والنبي أفضل من الولي فهي أفضل من كل النساء: الأولين والآخرين مطلقا. ثم بعدها في الفضيلة فاطمة ثم خديجة ثم آسية. وكذلك رواه موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**سيدة نساء العالمين مريم ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية**». وهذا حديث حسن يرفع الإشكال. وقد خص الله مريم بما لم يؤته أحدا من النساء؛ وذلك أن روح القدس كلمها وظهر لها ونفخ في درعها ودنا منها للنفخة؛ فليس هذا لأحد من النساء. وصدقت بكلمات ربها ولم تسأل آية عندما بشرت كما سأل زكريا ﷺ من الآية؛ ولذلك سماها الله في تنزيله صديقة فقال: ﴿ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة: ٧٥]. وقال: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾ [التحريم: ١٢]، فشهد لها بالصديقية وشهد لها بالتصديق لكلمات البشرى وشهد لها بالقنوت. وإنما بشر زكريا بغلام فلحظ إلى كبر سنه وعقامة رحم امرأته فقال: ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ﴾؛ فسأل آية. وبشرت مريم بالغلام فلحظت أنها بكر ولم يمسسها بشر فقيل لها: ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ ﴾ فاقتصرت على ذلك، وصدقت بكلمات ربها ولم تسأل آية ممن يعلم كنه هذا الأمر، ومن لامرأة في جميع نساء العالمين من نساء بنات آدم ما لها من هذه المناقب! ولذلك روي أنها سبقت السابقين مع الرسل إلى الجنة؛ جاء في الخبر عنه ﷺ: «**لو أقسمت**

لبررت لا يدخل الجنة قبل سابقي أمتي إلا بضعة عشر رجلا منهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى ومريم ابنة عمران».

وقد كان يحق على من انتحل علم الظاهر واستدل بالأشياء الظاهرة على الأشياء الباطنة أن يعرف قول رسول الله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**» وقوله حيث يقول: «**لواء الحمد يوم القيامة بيدي ومفاتيح الكرم بيدي وأنا أول خطيب وأول شفيع وأول مبشر وأول وأول**». فلم ينل هذا السؤدد في الدنيا على الرسل إلا لأمر عظيم في الباطن. وكذلك شأن مريم لم تنل شهادة الله في التنزيل بالصديقية والتصديق بالكلمات إلا لمرتبة قريبة دانية. ومن قال لم تكن نبية قال: إن رؤيتها للملك كما رؤي جبريل عليه السلام في صفة دحية الكلبي حين سؤاله عن الإسلام والإيمان ولم تكن الصحابة بذلك أنبياء. والأول أظهر وعليه الأكثر. والله أعلم.

معنى القنوت والسجود والركوع

قوله تعالى: ﴿ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٣].

أي أطيلي القيام في الصلاة عن مجاهد قتادة: أديمي الطاعة. وقد تقدم القول في القنوت. قال الأوزاعي: لما قالت لها الملائكة ذلك قامت في الصلاة حتى ورمت قدماها وسالت دما وقيحا عليها السلام. ﴿ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي ﴾ قدم السجود ههنا على الركوع لأن الواو لا توجب الترتيب؛ وقد تقدم الخلاف في هذا في البقرة عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٥٨]. فإذا قلت: قام زيد وعمرو جاز أن يكون عمرو قام قبل زيد، فعلى هذا يكون المعنى واركعي واسجدي، وقيل: كان شرعهم السجود قبل الركوع. ﴿ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ قيل: معناه افعلي كفعلهم وإن لم تصلي معهم، وقيل: المراد به صلاة الجماعة. وقد تقدم في البقرة.

كفالة مريم عليها السلام

قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤]. فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ ﴾. أي الذي ذكرنا من حديث زكريا ويحيى ومريم عليهم السلام من أخبار الغيب. ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ فيه دلالة على نبوة محمد ﷺ حيث أخبر عن قصة زكريا ومريم ولم يكن قرأ الكتب؛ وأخبر عن ذلك وصدقه أهل الكتاب بذلك؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ فرد الكناية إلى ذلك فلذلك ذكر.

والإيحاء هنا الإرسال إلى النبي ﷺ، والوحي يكون إلهاما وإيماء وغير ذلك. وأصله في اللغة إعلام في خفاء؛ ولذلك صار الإلهام يسمى وحيًا؛ ومنه ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ ﴾ [المائدة: ١١١]. وقوله: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ [النحل: ٦٨]. وقيل:معنى ﴿ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ ﴾ أمرهم؛ يقال: وحى وأوحى، وأرمى بمعناه. قال العجاج:

أوحى لها القرار فاستقرت

أي أمر الأرض بالقرار، وفي الحديث: «**الوحى الوحى**» وهو السرعة، والفعل منه توحيت توحيا قال ابن فارس: الوحي الإشارة والكتابة والرسالة، وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى يعلمه وحي كيف كان. والوحي السريع. والوحي الصوت؛ ويقال: استوحيناهم أي استصرخناهم، قال:

أوحيت ميمونا لها والأزرق

الثانية: قوله تعالى ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ أي وما كنت يا محمد لديهم، أي بحضرهم وعندهم. ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ ﴾ جمع قلم؛ من قلمه إذا قطعه. قيل: قداحهم وسهامهم. وقيل: أقلامهم التي كانوا يكتبون بها التوراة، وهو أجود؛ لأن الأزلام قد نهى الله عنها فقال ﴿ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ﴾.إلا أنه يجوز أن يكونوا فعلوا ذلك على غير الجهة التي كانت عليها الجاهلية تفعلها. ﴿ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ أي

يحضنها، فقال زكريا: أنا أحق بها، خالتها عندي، وكانت عنده أشياع بنت فاقود أخت حنة بنت فاقود أم مريم.

وقال بنو إسرائيل: نحن أحق بها، بنت عالمنا. فاقترعوا عليها وجاء كل واحد بقلمه، واتفقوا أن يجعلوا الأقلام في الماء الجاري فمن وقف قلمه ولم يجره الماء هو حاضنها. قال النبي ﷺ: «**فجرت الأقلام وعلا قلم زكريا**». وكانت آية له لأنه نبي تجري الآيات على يديه.

وقيل غير هذا ، و﴿ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ ابتداء وخبر في موضع نصب بالفعل المضمر الذي دل عليه الكلام، التقدير:ينظرون أيهم يكفل مريم. ولا يعمل الفعل في لفظ (أي) لأنها استفهام.

الثالثة:استدل بعض علمائنا بهذه الآية على إثبات القرعة، وهي أصل في شرعنا لكل من أراد العدل في القسمة، وهي سنة عند جمهور الفقهاء في المستويين في الحجة ليعدل بينهم وتطمئن قلوبهم وترتفع الظِّنة عمن يتولى قسمتهم، ولا يفضل أحدا منهم على صاحبه إذا كان المقسوم من جنس واحد اتباعا للكتاب والسنة، ورد العمل بالقرعة أبو حنيفة وأصحابه، وردوا الأحاديث الواردة فيها وزعموا أنها لا معنى لها وأنها تشبه الأزلام التي نهى الله عنها.

وحكى ابن المنذر عن أبي حنيفة أنه جوزها وقال: القرعة في القياس لا تستقيم، ولكنا تركنا القياس في ذلك وأخذنا بالآثار والسنة. قال أبو عبيد: وقد عمل بالقرعة ثلاثة من الأنبياء: يونس وزكريا ونبينا محمد ﷺ.

قال ابن المنذر: واستعمال القرعة كالإجماع من أهل العلم فيما يقسم بين الشركاء، فلا معنى لقول من ردها، وقد ترجم البخاري في آخر كتاب الشهادات (باب القرعة في المشكلات وقول الله عز وجل﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ ﴾) وساق حديث النعمان بن بشير: (**مثل القائم على حدود الله والمدهن**[1] **فيها مثل قوم**

(١) كذا في نسخ الأصل، وهو لفظ البخاري عن النعمان في (كتاب المظالم). وروايته في (كتاب الشهادات): (... مثل المدهن في حدود الله والواقع فيها مثل...) والمدهن: الذي يرائي.

استهموا على سفينة...) الحديث. وسيأتي في (الأنفال) إن شاء الله تعالى، وفي سورة (الزخرف) أيضا بحول الله سبحانه. وحديث أم العلاء وأن عثمان بن مظعون طار لهم سهمه في السكنى حين اقترعت الأنصار سكنى المهاجرين، الحديث.

وحديث عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها؛ وذكر الحديث.

وقد اختلفت الرواية عن مالك في ذلك؛ فقال مرة: يقرع للحديث، وقال مرة: يسافر بأوفقهن له في السفر. وحديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا**» والأحاديث في هذا المعنى كثيرة. وكيفية القرعة مذكورة في كتب الفقه والخلاف.

واحتج أبو حنيفة بأن قال: إن القرعة في شأن زكريا وأزواج النبي ﷺ كانت مما لو تراضوا عليه دون قرعة لجاز. قال ابن العربي: (وهذا ضعيف، لأن القرعة إنما فائدتها استخراج الحكم الخفي عند التشاح[١]؛ فأما ما يخرجه التراضي فيه[٢] فباب آخر، ولا يصح لأحد أن يقول: إن القرعة تجري مع موضع التراضي، فإنها لا تكون أبدا مع التراضي) وإنما تكون فيما يتشاح الناس فيه ويضن به، وصفة القرعة عند الشافعي ومن قال بها: أن تقطع رقاع صغار مستوية فيكتب في كل رقعة اسم ذي السهم ثم تجعل في بنادق طين مستوية لا تفاوت فيها ثم تجفف قليلا ثم تلقى في ثوب رجل لم يحضر ذلك ويغطى عليها ثوبه ثم يدخل يده ويخرج فإذا خرج اسم رجل أعطي الجزء الذي أقرع عليه.

الرابعة: ودلت الآية أيضا على أن الخالة أحق بالحضانة من سائر القرابات ما عدا الجدة؛ وقد قضى النبي ﷺ في ابنة حمزة واسمها (أمة الله) لجعفر وكانت عنده خالتها، وقال: (إنما الخالة بمنزلة الأم) وقد تقدمت في البقرة هذه المسألة.

---

(١) تشاح الخصمان: أراد كل أن يكون هو الغالب.

(٢) زيادة عن أحكام القرآن لابن العربي.

وخرج أبو داود عن علي قال: خرج زيد بن حارثة إلى مكة فقدم بابنة حمزة فقال جعفر: أنا آخذها أنا أحق بها ابنة عمي وخالتها عندي، وإنما الخالة أم. فقال علي: أنا أحق بها ابنة عمي وعندي ابنة رسول الله ﷺ فهي أحق بها. وقال زيد: أنا أحق بها، أنا خرجت إليها وسافرت وقدمت بها. فخرج النبي ﷺ فذكر حديثا قال: «**وأما الجارية فأقضي بها لجعفر تكون مع خالتها وإنما الخالة أم**». وذكر ابن أبي خيثمة أن زيد بن حارثة كان وصيَّ حمزة فتكون الخالة على هذا أحق من الوصي ويكون ابن العم إذا كان زوجا غير قاطع بالخالة في الحضانة وإن لم يكن محرما لها.

الله تعالى بشرها بالمسيح عليه السلام

قوله تعالى:﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦].

دليل على نبوتها كما تقدم. و﴿ إِذْ ﴾ متعلقة بيختصمون. ويجوز أن تكون متعلقة بقوله:﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ . ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾ قرأ أبو السمال بكلمة منه، وقد تقدم. ﴿ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ ﴾ ولم يقل اسمها لأن معنى كلمة ولد. والمسيح لقب لعيسى ومعناه الصديق؛ قاله إبراهيم النخعي. وهو فيما يقال معرب وأصله الشين وهو مشترك. قال ابن فارس: المسيح العرق، والمسيح الصديق، والمسيح الدرهم الأطلس لا نقش فيه. والمسح الجماع؛ يقال مسحها. والأمسح: المكان الأملس. والمسحاء المرأة الرسحاء التي لا است لها. وبفلان مسحة من جمال. والمسائح قسي جياد، واحدها مسيحة. قال:

لها مسائح زور في مراكضها ... لين وليس بها وهن ولا رقق[1]

واختلف في المسيح ابن مريم من ماذا أخذ؛ فقيل: لأنه مسح الأرض، أي ذهب فيها فلم يسكن بكن.

---

(١) زور: جمع زوراء وهي المائلة، والوهن والرقق: الضعف.

وروي عن ابن عباس أنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برئ؛ فكأنه سمي مسيحا لذلك، فهو على هذا فعيل بمعنى فاعل.

وقيل: لأنه ممسوح بدهن البركة، كانت الأنبياء تمسح به طيب الرائحة؛ فإذا مسح به علم أنه نبي.

وقيل: لأنه كان ممسوح الأخمصين.

وقيل: لأن الجمال مسحه، أي أصابه وظهر عليه، وقيل: إنما سمي بذلك لأنه مسح بالطهر من الذنوب.

وقال أبو الهيثم: المسيح ضد المسيخ؛ يقال: مسحه الله أي خلقه خلقا حسنا مباركا.

ومسخه أي خلقه خلقا ملعونا قبيحا.

وقال ابن الأعرابي: المسيح الصديق، والمسيخ الأعور، وبه سمي الدجال.

وقال أبو عبيد: المسيح أصله بالعبرانية مشيحا بالشين فعرب كما عرب موشى بموسى.

وأما الدجال فسمي مسيحا لأنه ممسوح العينين، وقد قيل في الدجال مسيح بكسر الميم وشد السين، وبعضهم يقول كذلك بالخاء المنقوطة، وبعضهم يقول مسيخ بفتح الميم وبالخاء والتخفيف؛ والأول أشهر وعليه الأكثر.

سمي به لأنه يسيح في الأرض أي يطوفها ويدخل جميع بلدانها إلا مكة والمدينة وبيت المقدس؛ فهو فعيل بمعنى فاعل.

فالدجال يمسح الأرض محنة، وابن مريم يمسحها منحة، وعلى أنه ممسوح العين فعيل بمعنى مفعول.

وقال الشاعر:

إن المسيح يقتل المسيخا

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال:قال رسول الله ﷺ : «**ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة**» الحديث ووقع في حديث عبد الله بن

عمرو «**إلا الكعبة وبيت المقدس**» ذكره أبو جعفر الطبري. وزاد أبو جعفر الطّحاوي «**ومسجد الطور**»؛ رواه من حديث جنادة بن أبي أمية عن بعض أصحاب النبي ﷺ عن النبي ﷺ.

وفي حديث أبي بكر بن أبي شيبة عن سمرة بن جندب عن النبي ﷺ «**وأنه سيظهر على الأرض كلها إلا الحرم وبيت المقدس وأنه يحصر المؤمنين في بيت المقدس**» وذكر الحديث.

وفي صحيح مسلم: «**فبينا هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين**(١) **واضعا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان**(٢) **كاللؤلؤ فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبه حتى يدركه بباب لد**(٣) **فيقتله**» الحديث(٤) بطوله.

وقد قيل: إن المسيح اسم لعيسى غير مشتق سماه الله به.

فعلى هذا يكون عيسى بدلا من المسيح من البدل الذي هو هو.

وعيسى اسم أعجمي فلذلك لم ينصرف.

وإن جعلته عربيًا لم ينصرف في معرفة ولا نكرة؛ لأن فيه ألف تأنيث، ويكون مشتقًا من عاسه يعوسه إذا ساسه وقام عليه.

﴿ وَجِيهًا ﴾ أي شريفا ذا جاه وقدر، وانتصب على الحال؛ قاله الأخفش.

﴿ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ عند الله تعالى وهو معطوف على ﴿ وَجِيهًا ﴾؛ أي ومقربًا قاله الأخفش، وجمع وجيه وجهاء ووجاه ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ ﴾ عطف

---

(١) قوله: مهرودتين، أي في شقتين أو حلتين. وقيل: الثوب المهرود الذي يصبغ بالورس ثم بالزعفران.

(٢) الجمان (بضم الجيم وتخفيف الميم): حبات من الفضة تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار.

(٣) لد (بضم اللام وتشديد الدال): قرية ببيت المقدس من نواحي فلسطين.

(٤) راجع صحيح مسلم جـ٢ ص٣٧٦ طبع بولاق.

على ﴿ وَجِيهًا ﴾ ، قاله الأخفش و﴿ ٱلْمَهْدِ ﴾ مضجع الصبي في رضاعه، ومهدت الأمر هيأته ووطأته، وفي التنزيل ﴿ فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾، وامتهد الشيء ارتفع كما يمتهد سنام البعير، ﴿ وَكَهْلًا ﴾ الكهل بين حال الغلومة وحال الشيخوخة.

وامرأة كهلة، واكتهلت الروضة إذا عمها النور، يقول: ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ ﴾آية ويكلمهم كهلا بالوحي والرسالة.

وقال أبو العباس: كلمهم من المهد حين برأ أمه فقال: «إني عبد الله» الآية، وأما كلامه وهو كهل فإذا أنزله الله تعالى [من السماء] [1] أنزله على صورة ابن ثلاث وثلاثين سنة وهو الكهل فيقول لهم «إني عبد الله» كما قال في المهد، فهاتان آيتان وحجتان.

قال المهدوي: وفائدة الآية أنه أعلمهم أن عيسى عليه السلام يكلمهم في المهد ويعيش إلى أن يكلمهم كهلا، إذ كانت العادة أن من تكلم في المهد لم يعش.

قال الزجاج: ﴿ وَكَهْلًا ﴾ بمعنى ويكلم الناس كهلا، وقال الفراء والأخفش: هو معطوف على ﴿ وَجِيهًا ﴾، وقيل: المعنى ويكلم الناس صغيرا وكهلا، وروى ابن جريج عن مجاهد قال: الكهل الحليم، النحاس: هذا لا يعرف في اللغة، وإنما الكهل عند أهل اللغة من ناهز الأربعين، وقال بعضهم: يقال له حدث إلى ست عشرة سنة، ثم شاب إلى اثنتين وثلاثين، ثم يكتهل في ثلاث وثلاثين؛ قاله الأخفش.

﴿ وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ عطف على ﴿ وَجِيهًا ﴾ أي وهو من العباد الصالحين.

ذكر أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا عبد الله بن إدريس عن حصين عن هلال ابن يساف، قال: لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى وصاحب يوسف وصاحب

---

(١) الزيادة عن البحر لأبي حيان.

جريج، كذا قال: «وصاحب يوسف».

وهو في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى ابن مريم وصاحب جريج... وبينا صبي يرضع من أمه**» وذكر الحديث بطوله [١].

وقد جاء من حديث صهيب في قصة الأخدود «أن امرأة جيء بها لتلقى في النار على إيمانها ومعها صبي»، في غير كتاب مسلم «يرضع فتقاعست أن تقع فيها فقال الغلام يا أمه اصبري فإنك على الحق».

وقال الضحاك: تكلم في المهد ستة: شاهد يوسف وصبي ماشطة امرأة فرعون وعيسى ويحيى وصاحب جريج وصاحب الجبار.

ولم يذكر الأخدود فأسقط صاحب الأخدود وبه يكون المتكلمون سبعة. ولا معارضة بين هذا وبين قوله عليه السلام: «**لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة**»، بالحصر فإنه أخبر بما كان في علمه مما أوحي إليه في تلك الحال، ثم بعد هذا أعلمه الله تعالى بما شاء من ذلك فأخبر به، قلت: أما صاحب يوسف فيأتي الكلام فيه، وأما صاحب جريج وصاحب الجبار وصاحب الأخدود ففي صحيح مسلم. وستأتي قصة الأخدود في سورة «البروج» إن شاء الله تعالى.

وأما صبي ماشطة [امرأة] فرعون، فذكر البيهقي عن ابن عباس قال قال النبي ﷺ : «**لما أسري بي سرت في رائحة طيبة فقلت ما هذه الرائحة قالوا: ماشطة ابنة فرعون وأولادها سقط مشطها من يديها فقالت بسم الله فقالت ابنة فرعون: أبي قالت: ربي وربك ورب أبيك قالت: أولك رب غير أبي؟ قالت: نعم ربي وربك ورب أبيك الله - قال - فدعاها فرعون فقال ألك رب غيري؟ قالت: نعم ربي، قالت: نعم ربي وربك الله - قال - فأمر بنقرة من نحاس فأحميت ثم أمر بها لتلقى فيها قالت: إن لي إليك حاجة قال: ما هي؟ قالت: تجمع عظامي وعظام ولدي في موضع واحد قال لكِ ذاك لما لك علينا**

(١) راجع صحيح مسلم جـ٢ ص٢٧٦ طبع بولاق.

من الحق فأمر بهم فألقوا واحدا واحدا حتى بلغ رضيعا فيهم فقال قعي يا أمه ولا تقاعسي فإنا على الحق - قال - وتكلم أربعة وهم صغار هذا وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى ابن مريم».

مريم عليها السلام تخاطب جبريل عليه السلام

قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [مريم: ٤٧].

أي يا سيدي، تخاطب جبريل عليه السلام؛ لأنه لما تمثل لها قال لها: إنما أنا رسول ربك ليهب لك غلاما زكيا.

فلما سمعت ذلك من قوله استفهمت عن طريق الولد فقالت: أنى يكون لي ولد و لم يمسسني بشر؟ أي بنكاح.

﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ ذكرت هذا تأكيدا؛ لأن قولها ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ يشمل الحرام والحلال.

تقول: العادة الجارية التي أجراها الله في خلقه أن الولد لا يكون إلا عن نكاح أو سفاح.

وقيل: ما استبعدت من قدرة الله تعالى شيئا ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد: أمن قبل زوج في المستقبل أم يخلقه الله ابتداء؟

فروي أن جبريل عليه السلام حين قال لها: ﴿ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ نفخ في جيب درعها وكمها؛ قاله ابن جريج.

قال ابن عباس: أخذ جبريل ردن [1] قميصها فإصبعه فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى، وقيل غير ذلك على ما يأتي بيانه في سورتها إن شاء الله تعالى، وقال بعضهم: وقع نفخ جبريل في رحمها فعلقت بذلك، وقال بعضهم:

---

(١) الردن (بالضم): أصل الكم.

لا يجوز أن يكون الخلق من نفخ جبريل لأنه يصير الولد بعضه من الملائكة وبعضه من الإنس، ولكن سبب ذلك أن الله تعالى لما خلق آدم وأخذ الميثاق من ذريته فجعل بعض الماء في أصلاب الآباء وبعضها في أرحام الأمهات فإذا اجتمع الماءان صارا ولدا، وأن الله تعالى جعل الماءين جميعًا في مريم بعضها في رحمها وبعضه في صلبها فنفخ فيه جبريل لتهيج شهوتها؛ لأن المرأة ما لم تهج شهوتها لا تحبل، فلما هاجت شهوتها بنفخ جبريل وقع الماء الذي كان في صلبها في رحمها فاختلط الماءان فعلقت بذلك؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا ﴾ يعني إذا أراد أن يخلق خلقا فإنما يقول له كن فيكون.

وقد تقدم في «البقرة» القول فيه مستوفى.

بشر بالرسالة والمعجزات

قوله تعالى:﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٨، ٤٩].

قوله تعالى: ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴾ .

قال ابن جريج: الكتاب: الكتاب والخط.

وقيل: هو كتاب غير التوراة والإنجيل علمه الله عيسى عليه السلام.

﴿ وَرَسُولًا ﴾ أي ونجعله رسولا، أو يكلمهم رسولا، وقيل: هو معطوف على قوله ﴿ وَجِيهًا ﴾.

وقال الأخفش: وإن شئت جعلت الواو في قوله «ورسولا» مقحمة والرسول حالا للهاء، تقديره ويعلمه الكتاب رسولا.

وفي حديث أبي ذر الطويل «وأول أنبياء بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى عليهم السلام».

﴿ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم ﴾ أي أصور وأقدر لكم.

﴿ مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ ﴾ قرأ الأعرج وأبو جعفر «كَهَـيَّة» بالتشديد، والباقون بالهمز.

والطير يذكر ويؤنث.

﴿ فَأَنفُخُ فِيهِ ﴾ أي في الواحد منه أو منها أو في الطين فيكون طائرا، وطائر وطير مثل تاجر وتجر.

قال وهب: كان يطير مادام الناس ينظرون إليه فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتًا ليتميز فعل الخلق من فعل الله تعالى.

وقيل: لم يخلق غير الخفاش لأنه أكمل الطير خلقا ليكون أبلغ في القدرة، لأن لها ثديا وأسنانا وأذنا، وهي تحيض وتطهر وتلد.

ويقال: إنما طلبوا خلق خفاش لأنه أعجب من سائر الخلق؛ ومن عجائبه أنه لحم ودم يطير بغير ريش ويلد كما يلد الحيوان ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور، فيكون له الضرع يخرج منه اللبن ولا يبصر في ضوء النهار ولا في ظلمة الليل وإنما يرى في ساعتين: بعد غروب الشمس ساعة وبعد طلوع الفجر ساعة قبل أن يسفر جدا، ويضحك كما يضحك الإنسان ويحيض كما تحيض المرأة.
ويقال: إن سؤالهم كان له على وجه التعنت فقالوا: اخلق لنا خفاشا أو اجعل فيه روحا إن كنت صادقا في مقالتك؛ فأخذ طينا وجعل منه خفاشا ثم نفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض؛ وكان تسوية الطين والنفخ من عيسى والخلق من الله، كما أن النفخ من جبريل والخلق من الله.

قوله تعالى: ﴿ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾: الأكمه الذي يولد أعمى؛ عن ابن عباس.

وكذا قال أبو عبيدة قال: هو الذي يولد أعمى؛ وأنشد لرؤبة:

فارتد ارتداد الأكمه

وقال ابن فارس: الكمه العمى يولد به الإنسان وقد يعرض.

قال سويد:

كمهت عيناه حتى ابيضتا

مجاهد: هو الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل.

عكرمة: هو الأعمش، ولكنه في اللغة العمى؛ يقال كمه يكمه كمها وكمهتها أنا إذا أعميتها، والبرص معروف وهو بياض يعترى الجلد، والأبرص القمر، وسام أبرص معروف، ويجمع على الأبارص، وخص هذان بالذكر لأنهما عياءان.

وكان الغالب على زمن عيسى عليه السلام الطب فأراهم الله المعجزة من جنس ذلك.

﴿ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ قيل: أحيا أربعة أنفس: العازر وكان صديقا له، وابن العجوز وابنة العاشر وسام بن نوح؛ فالله أعلم.

فأما العازر فانه كان توفي قبل ذلك بأيام فدعا الله فقام بإذن الله وودكه يقطر فعاش وولد له.

وأما ابن العجوز فإنه مرَّ به يُحمل على سريره فدعا الله فقام ولبس ثيابه وحمل السرير على عنقه ورجع إلى أهله.

وأما بنت العاشر فكان أتى عليها ليلة فدعا الله فعاشت بعد ذلك وولد لها؛ فلما رأوا ذلك قالوا: إنك تحيي من كان موته قريبا فلعلهم لم يموتوا فأصابتهم سكتة فأحيى لنا سام بن نوح. فقال لهم: دلوني على قبره فخرج وخرج القوم معه حتى انتهى إلى قبره فدعا الله فخرج من قبره وقد شاب رأسه.

فقال له عيسى: كيف شاب رأسك ولم يكن في زمانكم شيب؟ فقال: يا روح الله، إنك دعوتني فسمعت صوتا يقول: أجب روح الله. فظننت أن القيامة قد قامت، فمن هول ذلك شاب رأسي.

فسأله عن النزع فقال: يا روح الله، إن مرارة النزع لم تذهب عن حنجرتي؛ وقد كان من وقت موته أكثر من أربعة آلاف سنة.

فقال للقوم: صدقوه فإنه نبي؛ فآمن به بعضهم وكذبه بعضهم وقالوا: هذا سحر، وروي من حديث إسماعيل بن عياش قال: حدثني محمد بن طلحة عن رجل أن عيسى ابن مريم كان إذا أراد أن يحيي الموتى صلى ركعتين يقرأ في الأولى ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ وفي الثانية «تنزيل» السجدة؛ فإذا فرغ حمد الله وأثنى عليه ثم دعا بسبعة أسماء: يا قديم يا خفي يا دائم يا فرد يا وتر يا أحد يا صمد؛ ذكره البيهقي وقال: ليس إسناده بالقوي(١).

قوله تعالى: ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٩] أي بالذي تأكلونه وما تدخرون.

وذلك أنه لما أحيا لهم الموتى طلبوا منه آية أخرى وقالوا: أخبرنا بما نأكل في بيوتنا وما ندخر للغد؛ فأخبرهم فقال: يا فلان أنت أكلت كذا وكذا، وأنت أكلت كذا وكذا وادخرت كذا وكذا؛ فذلك قوله ﴿ أُنَبِّئُكُم ﴾ الآية، وقرأ مجاهد والزهري والسختياني «وما تذخرون» بالذال المعجمة مخففا.

وقال سعيد بن جبير وغيره: كان يخبر الصبيان في الكتاب بما يدخرون حتى منعهم آباؤهم من الجلوس معه.

قتادة: أخبرهم بما أكلوه من المائدة وما ادخروه منها خفية.

عيسى عبد الله تعالى

قوله تعالى:﴿ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٥٠، ٥١].

﴿ وَمُصَدِّقًا ﴾ عطف على قوله: ﴿ وَرَسُولاً ﴾، وقيل: المعنى وجئتكم مصدقا.

---

(١) ما كان للقرطبي رحمه الله أن يذكره.

﴿ لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ ﴾ لما قبلي، ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم ﴾ فيه حذف، أي ولأحل لكم جئتكم، ﴿ بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ يعني من الأطعمة.

قيل: إنما أحل لهم عيسى عليه السلام ما حرم عليهم بذنوبهم و لم يكن في التوراة نحو أكل الشحوم وكل ذي ظفر. وقيل: إنما أحل لهم أشياء حرمتها عليهم الأحبار و لم تكن في التوراة محرمة عليهم.

قال أبو عبيدة: يجوز أن يكون «بعض» بمعنى كل؛ وأنشد لبيد:

تراك أمكنة إذا لم أرضها   أو يرتبط بعض النفوس حمامها

وهذا القول غلط عند أهل النظر من أهل اللغة؛ لأن البعض والجزء لا يكونان بمعنى الكل في هذا الموضع، لأن عيسى صلى الله عليه وسلم إنما أحل لهم أشياء مما حرمها عليهم موسى من أكل الشحوم وغيرها و لم يحل لهم القتل ولا السرقة ولا فاحشة، والدليل على هذا أنه روي عن قتادة أنه قال: جاءهم عيسى بألين مما جاء به موسى صلى الله عليهما وعلى نبينا؛ لأن موسى جاءهم بتحريم الإبل وأشياء من اللحوم فجاءهم عيسى بتحليل بعضها.

وقرأ النخعي «بعض الذي حرم» مثل كرم، أي صار حراما، وقد يوضع البعض بمعنى الكل إذا انضمت إليه قرينة تدل عليه؛ كما قال الشاعر (١):

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا   حنانيك بعض الشر أهون من بعض

يريد بعض الشر أهون من كله.

﴿ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ إنما وحد وهي آيات لأنها جنس واحد في الدلالة على رسالته.

قوله تعالى:﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٢].

---

(١) هو طرفة بن العبد؛ خاطب به عمرو بن هند الملك، وكنيته أبو منذر حين أمر بقتله.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ ﴾ أي من بني إسرائيل. وأحس معناه علم ووجد؛ قاله الزجاج، وقال أبو عبيدة: معنى ﴿ أَحَسَّ ﴾ عرف، وأصل ذلك وجود الشيء بالحاسة، والإحساس: العلم بالشيء؛ قال الله تعالى: ﴿ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ ﴾ والحس القتل؛ قال الله تعالى: ﴿ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦ ﴾ ، ومنه الحديث في الجراد «إذا أحسه البرد»، ﴿ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾ أي الكفر بالله، وقيل: سمع منهم كلمة الكفر، وقال الفراء: أرادوا قتله، ﴿ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ استنصر عليهم.

قال السدي والثوري وغيرهما: المعنى مع الله، فإلى بمعنى مع؛ كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ ﴾ أي مع. والله أعلم.

وقال الحسن: المعنى من أنصاري في السبيل إلى الله؛ فأنه دعاهم إلى الله عز وجل، وقيل: المعنى من يضم نصرته إلى نصرة الله عز وجل، فإلى على هذين القولين على بابها، وهو الجيد، وطلب النصرة ليحتمي بها من قومه ويظهر الدعوة؛ عن الحسن ومجاهد.

وهذه سنة الله في أنبيائه وأوليائه.

وقد قال لوط:﴿ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴾، أي عشيرة وأصحاب ينصرونني، ﴿ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ أي أنصار نبيه ودينه.

والحواريون أصحاب عيسى عليه السلام، وكانوا اثني عشر رجلا؛ قاله الكلبي وأبو روق.

واختلف في تسميتهم بذلك؛ فقال ابن عباس: سموا بذلك لبياض ثيابهم، وكانوا صيادين.

ابن أبي نجيح وابن أرطأة: كانوا قصارين فسموا بذلك لتبييضهم الثياب.

قال عطاء: أسلمت مريم عيسى إلى أعمال شتى، وآخر ما دفعته إلى الحواريين وكانوا قصارين وصباغين، فأراد معلم عيسى السفر فقال لعيسى: عندي ثياب كثيرة مختلفة الألوان وقد علمتك الصبغة فاصبغها، فطبخ عيسى جبًا واحدًا وأدخل جميع الثياب وقال: كوني بإذن الله على ما أريد منك، فقدم

الحواري والثياب كلها في الجب فلما رآها قال: قد أفسدهًا؛ فأخرج عيسى ثوبا أحمر وأصفر وأخضر إلى غير ذلك مما كان كل ثوب مكتوب عليه صبغه.

فعجب الحواري، وعلم أن ذلك من الله ودعا الناس إليه فآمنوا به؛ فهم الحواريون. قتادة والضحاك: سموا بذلك لأنهم كانوا خاصة الأنبياء، يريدان لنقاء قلوبهم، وقيل: كانوا ملوكا، وذلك أن الملك صنع طعامًا فدعا الناس إليه فكان عيسى على قصعة فكانت لا تنقص، فقال الملك له: من أنت؟ قال: عيسى ابن مريم، قال: إني أترك ملكي هذا وأتبعك، فانطلق بمن اتبعه معه، فهم الحواريون. قال ابن عون: وأصل الحور في اللغة البياض، وحورت الثياب بيضتها، والحُوَّارَى من الطعام ما حور، أي بيض، وأحور أبيض.

والجفنة المحورة: المبيضة بالسنان. والحواري أيضا الناصر؛ قال رسول الله ﷺ «**لكل نبي حواريٌّ وحواريَّ الزبير**».

والحواريات: النساء لبياضهن؛ وقال:

فقل للحواريات يبكين غيرنا ... ولا تبكنا إلا الكلاب النوابح

قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ ﴾ أي يقولون ربنا آمنا. ﴿ بِمَآ أَنزَلْتَ ﴾ يعني في كتابك وما أظهرته من حكمك. ﴿ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ ﴾ يعني عيسى. ﴿ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ يعني أمة محمد ﷺ ؛ عن ابن عباس. والمعنى أثبت أسماءنا مع أسمائهم واجعلنا من جملتهم. وقيل: المعنى فاكتبنا مع الذين شهدوا لأنبيائك بالصدق.

﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ ﴾ يعني كفار بني إسرائيل الذي أحس منهم الكفر، أي قتله، وذلك أن عيسى عليه السلام لما أخرجه قومه وأمه من بين ظهورهم عاد إليهم مع الحواريين وصاح فيهم بالدعوة فهموا بقتله وتواطؤوا

على الفتك به، فذلك مكرهم. ومكر الله: استدراجه لعباده من حيث لا يعلمون؛ عن الفراء وغيره.

قال ابن عباس: كلما أحدثوا خطيئة جددنا لهم نعمة، وقال الزجاج: مكر الله مجازاتهم على مكرهم؛ فسمي الجزاء باسم الابتداء؛ كقوله: ﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ ﴾، ﴿ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ ﴾ وقد تقدم في البقرة.

وأصل المكر في اللغة الاحتيال والخداع. والمكر: خدالة الساق، وامرأة ممكورة الساقين، والمكر ضرب من الثياب، ويقال: بل هو المغرة؛ حكاه ابن فارس. وقيل: ﴿ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ إلقاء شبه عيسى على غيره ورفع عيسى إليه، وذلك أن اليهود لما اجتمعوا على قتل عيسى دخل البيت هاربا منهم فرفعه جبريل من الكوة إلى السماء، فقال ملكهم لرجل منهم خبيث يقال له يهوذا: ادخل عليه فأقتله؛ فدخل الخوخة فلم يجد هناك عيسى وألقى الله عليه شبه عيسى، فلما خرج رأوه على شبه عيسى فأخذوه وقتلوه وصلبوه.

ثم قالوا: وجهه يشبه وجه عيسى وبدنه يشبه بدن صاحبنا؛ فإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟! وإن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟! فوقع بينهم قتال فقتل بعضهم بعضا؛ فذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾، وقيل غير هذا على ما يأتي، ﴿ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ اسم فاعل من مكر يمكر مكرا، وقد عده بعض العلماء في أسماء الله تعالى فيقول إذا دعا به: يا خير الماكرين امكر لي.

وكان عليه السلام يقول في دعائه: «**اللهم امكر لي ولا تمكر علي**».

وقد ذكرناه في الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، والله أعلم.

التوفي والرفع

قوله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٥].

قوله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ العامل في «إذ» مكروا،

أو فعل مضمر.

وقال جماعة من أهل المعاني منهم الضحاك والفراء في قوله تعالى: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ على التقديم والتأخير؛ لأن الواو لا توجب الرتبة، والمعنى: إني رافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء؛ كقوله: ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ والتقدير ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما.

قال الشاعر:

ألا يا نخلة من ذات عرق ... عليك ورحمة الله السلام

أي عليك السلام ورحمة الله، وقال الحسن وابن جريج: معنى متوفيك قابضك ورافعك إلى السماء من غير موت؛ مثل توفيت مالي من فلان أي قبضته.

وقال وهب بن منبه: توفى الله عيسى عليه السلام ثلاث ساعات من نهار ثم رفعه إلى السماء، وهذا فيه بعد؛ فإنه صح في الأخبار عن النبي ﷺ نزوله وقتله الدجال على ما بيناه في كتاب التذكرة، وفي هذا الكتاب حسب ما تقدم، ويأتي، وقال ابن زيد: متوفيك قابضك، ومتوفيك ورافعك واحد و لم يمت بعد.

وروى ابن طلحة عن ابن عباس معنى متوفيك مميتك.

الربيع بن أنس: وهي وفاة نوم؛ قال الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ ﴾ أي ينيمكم لأن النوم أخو الموت؛ كما قال ﷺ لما سئل: أفي الجنة نوم؟ قال: «**لا، النوم أخو الموت والجنة لا موت فيها**»، أخرجه الدارقطني.

والصحيح أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة ولا نوم كما قال الحسن وابن زيد، وهو اختيار الطبري وهو الصحيح عن ابن عباس، وقاله الضحاك.

قال الضحاك: كانت القصة لما أرادوا قتل عيسى اجتمع الحواريون في

غرفة وهم اثنا عشر رجلا فدخل عليهم المسيح من مشكاة الغرفة، فأخبر إبليس جمع اليهود فركب منهم أربعة آلاف رجل فأخذوا باب الغرفة.

فقال المسيح للحواريين: أيكم يخرج ويُقتل ويكون معي في الجنة؟ فقال رجل: أنا يا نبي الله؛ فألقى إليه مدرعة [١] من صوف وعمامة من صوف وناوله عكازه وألقى عليه شبه عيسى، فخرج على اليهود فقتلوه وصلبوه.

وأما المسيح فكساه الله الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب فطار مع الملائكة.

وذكر أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أراد الله تبارك وتعالى أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وهم اثنا عشر رجلا من عين في البيت ورأسه يقطر ماء فقال لهم: أما إن منكم من سيكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي، ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم فقال أنا.

فقال عيسى: اجلس، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال أنا، فقال عيسى: اجلس، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال أنا، فقال نعم أنت ذاك، فألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام، قال: ورفع الله تعالى عيسى من روزنة [٢] كانت في البيت إلى السماء.

قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبيه فقتلوه ثم صلبوه، وكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به؛ فتفرقوا ثلاث فرق: قالت فرقة: كان فينا الله ما شاء ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه إليه، وهؤلاء المسلمون.

---

(١) المدرعة (بالكسر): الدراعة وهي ثوب من كتان.

(٢) الروزنة: الكوة.

ذكر عيسى عليه السلام في القرآن الكريم

١- ﴿ قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين ﴾ [المائدة: ١١٤].

٢- ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

٣- ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين ﴾ [آل عمران: ٤٥].

٤- ﴿ وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا ﴾ [النساء: ١٥٧].

٥- ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلا ﴾ [النساء: ١٧١].

٦- ﴿ قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين ﴾ [المائدة: ١١٤].

٧- ﴿ ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون ﴾ [مريم: ٣٤].

٨- ﴿ وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم

مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف: ٦].

٩- ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف: ١٤].

قصة عيسى عليه السلام (١)

إن حادث ولادة عيسى عليه السلام أعجب ما شهدته البشرية في تاريخها كله، فلا نظير له من قبله ولا من بعده، والبشرية كلها لم تشهد خلق نفسها وهو الحادث العجيب الضخم في تاريخها، لم تشهد خلق الإنسان الأول من غير أب وأم ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الكهف: ٥١]، فشاءت الحكمة الإلهية أن تبرز العجيبة الثانية في مولد عيسى من غير أب، على غير السنة التي جرت منذ وجد الإنسان على هذه الأرض، ليشهدها البشر، ثم تظل في سجل الحياة الإنسانية بارزة فذة تتلفت إليها الأجيال، إن عز عليها أن تتلفت إلى العجيبة الأولى التي لم يشهدها إنسان.

ولم يتكرر حادث عيسى عليه السلام لأن الأصل هو أن تجري السنة التي وضعها الله تعالى، وأن ينفذ الناموس الذي اختاره وهذه الحادثة الواحدة تكفي لتبقى أمام أنظار البشرية معلمًا بارزًا على حرية المشيئة، وعدم احتباسها داخل حدود النواميس ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ .

مع آل عمران: قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٧].

---

(١) قصص القرآن لسعيد يوسف أبو عزيز وكتابنا قصص القرآن.

يذكر الله تعالى أنه ﴿ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ ﴾ عليه السلام والخُلّص من ذريته المتبعين شرعه الملازمين طاعته، ثم خصص فقال: ﴿ وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ فدخل فيهم بنو إسماعيل، ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب وهم ﴿ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ ﴾ والمراد بعمران هذا والد مريم عليها السلام.

ولا خلاف أنها من سلالة داود عليه السلام، وكان أبوها عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه، وكانت أمها هي حنة بنت فاقود بن قبيل من العابدات، وكان زكريا نبي ذلك الزمان زوج أخت مريم أشياع في قول الجمهور(١).

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره: أن أم مريم كانت لا تحبل، فرأت يومًا طائرًا يزق فرخًا له، فاشتهت الولد، فنذرت لله إن حملت لتجعلن ولدها محررًا، أي عتيقًا من شواغل الدنيا، خالصًا لعبادة الله تعالى حبيسًا في بيت المقدس، قالوا: فحاضت من فورها فلما طهرت واقعها بعلها -أي زوجها- فحملت بمريم عليها السلام.

﴿ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰ ﴾ [آل عمران: ٣٥]، أي في خدمة بيت المقدس، وكانوا في ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خدامًا من أولادهم ﴿ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ ﴾ استدل به على تسمية المولود يوم يولد، وكما ثبت في الصحيحين عن أنس في ذهابه بأخيه إلى رسول الله ﷺ فحنك أخاه وسماه عبد الله.

وجاء في حديث الحسن عن سمرة مرفوعًا: «**كل غلام رهين بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويسمى ويحلق رأسه**»، رواه أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي، قولها: ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾، قد استجيب لها في هذا كما تقبل منها نذرها، فروى الإمام أحمد عن أبي

(١) وهذا هو الصحيح لقول النبي ﷺ في رحلة المعراج: «.... **ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة يحيى وعيسى فرحبا بي..**» الحديث رواه مسلم وأحمد.

هريرة أن النبي ﷺ قال: «**ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخًا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها**»، ثم يقول أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم: ﴿ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾، ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ ، ذكر كثير من المفسرين أن أمها حين وضعتها لفتها في خرقتها ثم خرجت بها إلى المسجد فسلمتها إلى العباد الذين هم مقيمون به، وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم، فتنازعوا فيها، والظاهر أنها إنما سلمتها إليهم بعد رضاعها وكفالة مثلها في صغرها، وهذا هو المعقول، ثم لما دفعتها إليهم تنازعوا في أيهم يكفلها، وكان زكريا نبيهم في ذلك الزمان، وقد أراد أن يستبد بها دونهم من أجل زوجته أختها أو خالتها على القولين،فنازعوه في ذلك وطلبوا أن يقترعوا معه، فساعدته المقادير فخرجت قرعته غالبة لهم، قال الله تعالى: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ ،أي بسبب غلبته لهم في القرعة كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤].

قالوا: وذلك أن كلاً منهم ألقى قلمًا معروفًا به، ثم حملوها ووضعوها في موضع وأمروا غلامًا لم يبلغ الحنث فأخرج واحدًا منها، فظهر أنه قلم زكريا عليه السلام، فطلبوا أن يقترعوا مرة ثانية، وأن يكون ذلك بأن يلقوا أقلامهم في النهر، فأيهم جرى قلمه على خلاف جرية الماء فهو الغالب، ففعلوا، فكان قلم زكريا عليه السلام هو الذي جرى على خلاف جريةالماء، وسارت أقلامهم مع الماء، ثم طلبوا منه أن يقترعوا ثالثة، فأيهم جرى قلمه مع الماء ويكون بقية الأقلام قد انعكس سيرها صعدا فهو الغالب، ففعلوا فكان زكريا عليه السلام هو الغالب لهم، فكفلها إذ كان أحق بها شرعًا وقدرًا لوجوه عديدة.

من كرامات مريم عليها السلام

قال تعالى: ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

قال المفسرون اتخذ لها زكريا مكانًا شريفًا من المسجد لا يدخله سواها، فكانت تعبد الله تعالى فيه، وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت، إذا جاءت نوبتها وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها، حتى صارت يضرب بها المثل في عبادتها في بني إسرائيل، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة، حتى إنه كان نبي الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقًا غريبًا، ولا نخوض في صفة الرزق كما خاضت الروايات الكثيرة، فيكفي أن نعرف أنها كانت مباركة يفيض من حولها الخير ويفيض الرزق من كل ما يسمى رزقًا، حتى ليعجب كافلها-وهو نبي-من فيض الرزق، فيسألها: كيف ومن أين هذا كله؟ فلا تزيد على أن تقول في خشوع المؤمن وتواضعه واعترافه بنعمة الله وفضله، وتفويض الأمر عليه كله: ﴿ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ وهي كلمة تصور حال المؤمن مع ربه، واحتفاظه بالسر الذي بينه وبينه، والتواضع في الحديث عن هذا السر، دون مباهاة فعند ذلك وهنالك طمع زكريا في وجود ولد من صلبه وإن كان قد أسن وكبر: ﴿ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [آل عمران: ٣٨]، قال بعضهم: كأنه قال: يا من يرزق مريم الثمر في غير أوانه هب لي ولدًا وإن كان في غير أوانه، فكان من خبره وقضيته ما قدمنا ذكره في قصته.

خير نساء العالمين:

قال تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٤٢ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى

مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢-٤٦].

يذكر تعالى أن الملائكة بشرت مريم عليها السلام باصطفاء الله تعالى لها من بين سائر نساء عالمي زمانها، بأن اختارها لإيجاد ولد منها من غير أب وبشرت بأن يكون نبيًا شريفًا ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ ﴾، أي في صغره يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وكذلك في حال كهولته، فدل على أنه يبلغ الكهولة ويدعو إلى الله تعالى فيها، وأمرت بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع، لتكون أهلاً لهذه الكرامة، ولتقوم بشكر هذه النعمة، فيقال: إنها كانت تقوم في الصلاة حتى تفطرت قدماها رضي الله عنها ورحمها ورحم أمها وأباها.

فقول الملائكة: ﴿ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ ﴾، أي اختارك واجتباك ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ أي من الأخلاق الرذيلة وأعطاك الصفات الجميلة ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، يحتمل أن يكون المراد عالمي زمانها كقوله لموسى: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وكقوله لبني إسرائيل: ﴿ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الدخان: ٣٢]، ومعلوم أن إبراهيم عليه السلام أفضل من موسى، وأن محمدا ﷺ أفضل منهما، وكذلك هذه الأمة أفضل من سائر الأمم قبلها، وأكثر عددًا، وأفضل علمًا، وأزكى عملاً من بني إسرائيل وغيرهم.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] مرادًا به العموم فتكون أفضل نساء الدنيا ممن كان قبلها أو وجد بعدها لأنها إن

(١) نساء العالمين في عصرها.

كانت نبية على قول من يقول بنبوتها ونبوة سارة أم إسحاق ونبوة أم موسى محتجًا بكلام الملائكة والوحي إلى أم موسى كما يزعم ذلك ابن حزم وغيره، فلا يمتنع على هذا أن تكون مريم أفضل من سارة وأم موسى لعموم قوله: ﴿ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، إذ لم يعارضه غيره.والله أعلم.

وأما قول الجمهور كما قد حكاه أبو الحسن الأشعري وغيره من أهل السنة والجماعة من أن النبوة مختصة بالرجال، وليس في النساء نبية فيكون أعلى مقامات مريم عليها السلام أنها صديقة كما قال تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المائدة: ٧٥]، فعلى هذا لا يمتنع أن تكون أفضل الصديقات المشهورات ممن كان قبلها وممن يكون بعدها، والله أعلم.

وقد جاء ذكرها مقرونًا مع آسية بنت مزاحم وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ ورضي الله عنهن وأرضاهن، ففي الصحيحين وغيرهما عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : «**خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد**»، وعن أنس ﷺ قال: قال رسول الله : «**خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد رسول الله ﷺ** »، رواه الترمذي، وقال الألباني: صحيح، صحيح الجامع برقم(٣٣٣١)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «خط لنا رسول الله ﷺ في الأرض أربع خطوط فقال: **أتدرون ما هذا؟** قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله ﷺ : **أفضل نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ، ومريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون**»، رواه أحمد وغيره، وصححه الشيخ الألباني الصحيحة (١٥٠٨).

«وعن أبي سلمة عن عائشة أنها قالت لفاطمة: أرأيت حين كببت على رسول الله ﷺ فبكيت ثم ضحكت؟ قالت: أخبرني أنه ميت من وجعه هذا

فبكيت، ثم أكببت عليه فأخبرني أني أسرع أهله لحوقًا به وأني سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم بنت عمران فضحكت».رواه البغوي، وأصله في الصحيح. وفيه أنها أفضل الأربع المذكورات، وهكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ: «**فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم بنت عمران**»، إسناده حسن وصححه الترمذي و لم يخرجوه، والمقصود: أن هذا يدل على أن مريم وفاطمة أفضل هذه الأربعة، ثم يحتمل الاستثناء أن تكون مريم أفضل من فاطمة ويحتمل أن يكونا على السواء في الفضيلة.

فأما الحديث الذي رواه ابن مردويه عن معاوية بن قرة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام**»، وهكذا الحديث الذي رواه الجماعة إلا أبا داود من طرق، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**».

فإنه حديث صحيح كما ترى اتفق الشيخان على إخراجه، ولفظه يقتضي حصر الكمال في النساء في مريم وآسية، ولعل المراد بذلك في زمانهما فإن كلاً منهما كفلت نبيًا في حال صغره، فآسية كلفت موسى الكليم وآمنت به حين أرسل، وعذبت في سبيل الله عذابًا شديدًا، ومريم كفلت ولدها عيسى عبد الله ورسوله، فلا ينفي كمال غيرها في هذه الأمة كخديجة وفاطمة.

فخديجة خدمت رسول الله ﷺ قبل البعثة خمس عشرة سنة وبعدها أزيد من عشر سنين، وكانت له وزير صدق بنفسها ومالها رضي الله عنها، وأما فاطمة بنت رسول الله فإنها خصت بمزيد فضيلة على أخواتها لأنها أصيبت برسول الله ﷺ وبقية أخواتها متن في حياة النبي ﷺ، وأما عائشة فإنها كانت أحب أزواج رسول الله ﷺ إليه ولم يتزوج بكرًا غيرها، ولا يوجد في سائر

النساء في هذه الأمة، بل ولا في غيرها، أعلم منها وأفهم. وقد غار الله تعالى لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فأنزل الله براءته تعالى لها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فأنزل الله براءتها من فوق سبع سموات، وقد عمرت بعد رسول الله ﷺ قريبًا من خمسين سنة تبلغ عنه القرآن والسنة، وتفتي في المسلمين، وتصلح بين المختلفين.

والمقصود ههنا ذكر ما يتعلق بمريم بنت عمران عليها السلام، فإن الله اصطفاها وطهرها على نساء عالمي زمانها، ويجوز أن يكون تفضيلها على النساء مطلقًا كما قدمنا، وقد ورد في حديث أنها تكون من أزواج النبي ﷺ في الجنة هي وآسية بنت مزاحم(١).

حمل مريم بعيسى عليه السلام

قال الله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ۝١٦ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ۝١٧ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ۝١٩ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ۝٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴾ [مريم: ١٦-٢١].

تقدم أن مريم عليها السلام لما جعلتها أمها محررة تخدم بيت المقدس، وأنه كفلها زوج أختها نبي ذلك الزمان ، زكريا عليه السلام، وأنه اتخذ لها محرابًا وهو المكان الشريف من المسجد لا يدخله أحد عليها سواه، وأنها لما بلغت اجتهدت في العبادة فلم يكن في ذلك الزمان نظيرها في فنون العبادة، وظهر عليها من الأحوال ما غبطها به زكريا عليه السلام، وأنها خاطبتها الملائكة بالبشارة لها باصطفاء الله تعالى لها، وبأنه سيهب لها ولدًا زكيًا يكون

---

(١) لا يصح، وكل الأحاديث التي وردت بشأن زواج النبي ﷺ من مريم وآسية وأخت موسى، ضعفها الألباني ....وقال عنها ابن كثير بعد أن ساقها: وكل من هذه الأحاديث في أسانيدها نظر.

نبيًا كريمًا طاهرًا مكرمًا مؤيدًا بالمعجزات، فتعجبت من وجود ولد من غير والد، لأنها لا زوج لها، ولا هي ممن تتزوج.

فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء، إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، فاستكانت لذلك وأنابت وسلمت لأمر الله، وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها فإن الناس يتكلمون فيها بسببه، لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر، وإنما ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبر ولا تعقل، وكانت إنما تخرج من المسجد في زمن حيضها أو لحاجة ضرورية لابد منها، من استقاء ماء أو تحصيل غذاء، فبينما هي يومًا قد خرجت لبعض شئونها و﴿ ٱنتَبَذَتْ ﴾، أي انفردت وحدها شرقي المسجد الأقصى، إذ بعث الله تعالى إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾، فلما رأته ﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾.

قال أبو العالية: علمت أن التقي ذو نهية، وهذا يرد على قول من زعم أنه كان في بني إسرائيل رجل فاسق مشهور بالفسق اسمه تقي فإن هذا قول باطل بلا دليل وهو من أسخف الأقوال. ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾، أي خاطبها الملك قائلا: إنما أنا رسول ربك لست ببشر ولكني ملك بعثني الله إليك: ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾، أي ولست ذات زوج ولا أنا ممن يفعل الفاحشة. ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾، أي فأجابها الملك عن تعجبها من وجود ولد منها والحالة هذه قائلا ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾، أي وعد أنه سيخلق منك غلامًا ولست ذات بعل(زوج)، ولا ممن تبغين ﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾، أي: وهذا سهل عليه ويسير لديه فإنه على ما يشاء قدير.

﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾، أي : ولنجعل خلقه والحالة هذه دليلاً على كمال قدرتنا على أنواع الخلق فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى وقوله: ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾، أي: يرحم به العباد، بأن يدعوهم إلى الله تعالى في صغره وكبره، في طفولته وكهولته، بأن يفردوا الله بالعبادة وحده لا شريك لهن وينزهوه عن اتخاذ الصاحبة والأولاد،

والشركاء، والنظراء، والأضداد والأنداد،وقوله: تعالى ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ ، يحتمل أن يكون هذا من تمام كلام جبريل عليه السلام معها يعني أن هذا أمر قد قضاه الله وحتمه وقدره وقرره، واختاره ابن جرير و لم يحك سواه.

ويحتمل أن يكون قوله ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾، كناية عن نفخ جبريل فيها كما قال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم: ١٢]، فذكر غير واحد من السلف أن جبريل عليه السلام نفخ في جيب درعها، فنزلت النفخة في فرجها، فحملت من فورها، كما تحمل المرأة عند جماع بعلها، ومن قال: إنه نفخ في فهما، أو أن الذي كان يخاطبها هو الروح الذي ولج فيها من فمها فقوله خلاف ما يفهم من سياقات هذه القصة في محالها من القرآن الكريم، فإن هذا السياق يدل على أن الذي أرسل إليها ملك من الملائكة، وهو جبريل عليه السلام وأنه إنما نفخ فيها، ولم يواجه الملك الفرج بل نفخ في جيبها فنزلت النفخة إلى فرجها فانسلكت فيه كما قال تعالى ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾، فدل على أن النفخة ولجت فيه لا في فمها كما روي عن أبي بن كعب، ولا في صدرها كما رواه السدي بإسناده عن بعض الصحابة.

ولهذا قال تعالى: ﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾، أي حملت ولدها: ﴿ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾، وذلك لأن مريم عليها السلام ضاقت به ذرعًا، وعلمت أن كثيرًا من الناس سيكون منهم كلام في حقها، فذكر غير واحد من السلف منهم وهب بن منبه أنها لما ظهرت عليها مخايل الحمل كان أول من فطن لذلك رجل من عباد بني إسرائيل يقال له: يوسف بن يعقوب النجار، وكان ابن خالها، فجعل يتعجب من ذلك عجبًا شديدًا، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها، وهو مع ذلك يراها حبلى، وليس لها زوج، فعرَّض لها ذات يوم في الكلام، فقال: يا مريم، هل يكون زرع من غير بذر؟ قالت: نعم فمن خلق الزرع الأول ثم قال: فهل يكون شجر من غير ماء ولا مطر؟ قالت: نعم ، فمن خلق الشجر الأول؟ ثم، قال: فهل يكون ولد من غير

ذكر؟ قالت: نعم، إن الله تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، قال لها: فأخبريني خبرك، قالت: إن الله بشرني: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٥، ٤٦].

ويروى مثل هذا عن زكريا عليه السلام، أنه سألها فأجابته بمثل هذا.

وذكر السدي بإسناده عن الصحابة أن مريم دخلت يومًا على أختها فقالت لها أختها: أشعرت أني حبلى؟ فقالت مريم: وشعرت أيضًا أني حبلى؟ فاعتنقتها وقالت لها أم يحيى: إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك، (المراد من السجود ههنا الخضوع والتعظيم)، كالسجود عند المواجهة للسلام، كما كان في شرع من قبلنا، وكما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم وقال أبو القاسم: قال مالك: بلغني أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا ابنا الخالة وكان حملهما معًا، فبلغني أن أم يحيى قالت لمريم: إني أرى ما في بطني يسجد لما في بطنك قال مالك: أرى ذلك بتفضيل عيسى عليه السلام لأن الله تعالى جعله يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص. رواه ابن أبي حاتم.

وروي عن مجاهد قال: قالت مريم: كنت إذا خلوت حدثني وكلمني، وإذا كنت بين الناس سبح في بطني، ثم الظاهر أنها حملت به تسعة أشهر كما تحمل النساء ويطعن لميقات حملهن ووضعهن إذ لو كان خلاف ذلك لذكر، وعن ابن عباس وعكرمة: أنها حملت به ثمانية أشهر، وعن ابن عباس: ما هو إلا أن حملت به فوضعته، قال بعضهم: حملت به تسع ساعات، واستأنسوا لذلك بقوله: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ [مريم: ٢٢، ٢٣].

والصحيح: أن تعقيب كل شيء بحسبه لقوله: ﴿ فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾، وكقوله: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ

أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ومعلوم أن بين كل حالين أربعين يومًا كما ثبت في الحديث المتفق عليه.

قال محمد بن إسحاق: شاع واشتهر في بني إسرائيل أنها حامل فما دخل على آل بيت ما دخل على آل بيت زكريا، قال: واتهمها بعض الزنادقة بيوسف الذي كان يتعبد معها في المسجد، وتوارت عنهم مريم واعتزلتهم ﴿ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ ، بعيدًا عن أهلها.

ولادته عليه السلام

قال تعالى: ﴿ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمًا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٢-٢٦].

ذكر الله جل وعلا في هذه الآيات الكريمة: أن مريم حملت عيسى عليه السلام ﴿ فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ ﴾، أي تنحت به وبعدت معتزلة عن قومها: ﴿ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ ، أي في مكان بعيد. والجمهور على أن المكان المذكور هو بيت لحم وفيه أقوال أخر غير ذلك، وقوله: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ ﴾، أي ألجأها الطلق إلى جذع النخلة، أي جذع نخلة في ذلك المكان، والعرب تقول: جاء فلان، وأجاءه غيره، إذا حمله المجيء، ومنه قول حسان رضي الله عنه:

إذ شددنا شدة صادقة فأجأناكم إلى سفح الجبل

والمخاض: الطلق، وهو وجع الولادة، وسمي مخاضًا من المخض وهو الحركة الشديدة لشدة تحرك الجنين في بطنها إذا أراد الخروج. ﴿ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٣]، وفيه دليل على جواز تمني الموت عند الفتن. وذلك أنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها، بل

يكذبوها حين تأتيهم بغلام على يدها مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات في المسجد المنقطعات إليه المعتكفات فيه، ومن بيت النبوة والديانة، فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الحال أو كانت ﴿ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾، أي: شيئًا حقيرًا من حقه أن يترك وينسى عادة، وفي حدة الألم وغمرة الهول تقع المفاجأة الكبرى.

﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾، يا الله طفل ولد اللحظة يناديها من تحتها[1]، يطمئن قلبها ويصلها بربها، ويرشدها إلى طعامها وشرابها ويدلها على حجتها وبرهانها!

لا تحزني : ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾، فلم ينسك و لم يتركك، بل أجرى لك تحت قدميك جدولاً ساريًا، الأرجح أنه جرى للحظة من ينبوع أو تدفق من مسيل ماء في الجبل وهذه النخلة التي تستندين إليها هزيها فتساقط عليك رطبًا، فهذا طعام وذاك شراب، والطعام الحلو مناسب للنفساء، والرطب والتمر من أجود طعم النفساء. ﴿ فَكُلِى وَٱشْرَبِى ﴾، هنيئًا، ﴿ وَقَرِّى عَيْنًا ﴾، واطمئني قلبًا، فأما إذا واجهت أحدًا فأعلنيه بطريقة ما غير الكلام، أنك نذرت للرحمن صومًا عن حديث الناس، وانقطعت إليه للعبادة، ولا تجيبي أحدًا عن سؤال.

ونحسبها قد دهشت طويلاً، وبهتت طويلاً قبل أن تمد يدها إلى جذع النخلة تهزه ليتساقط عليها رطبًا جنيًا، ثم أفاقت فاطمأنت إلى أن الله لا يتركها، وإلى أن حجتها معها، هذا الطفل الذي ينطق في المهد، فيكشف عن الخارقة التي جاءت به إليها.

---

(١) مال ابن جرير، وصاحب الظلال، وصاحب أضواء البيان، وأبو حيان في البحر إلى أن الذي ناداها من تحتها هو عيسى عليه السلام واستظهر القرطبي أنه جبريل.

وقال بعض العلماء: إن جذع النخلة الذي أمرها أن تهز به كان جذعًا يابسًا، فلما هزته جعله الله نخلة ذات رطب جني، والذي يفهم من سياق القرآن: أن الله أنبت لها ذلك الرطب على سبيل خرق العادة، وأجرى لها ذلك النهر على سبيل خرق العادة، ولم يكن الرطب والنهر موجودين قبل ذلك.

مسألة: أخذ بعض العلماء من قوله تعالى في هذه الآية: ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ الآية، أن السعي والتسبب في تحصيل الرزق أمر مأمور به شرعًا، وأنه لا ينافي التوكل على الله تعالى، وهذا أمر كالمعلوم من الدين بالضرورة، كما أخذ بعض العلماء من الآية أن خير ما تطعمه النفساء الرطب، قالوا: لو كان شيء أحسن للنفساء من الرطب لأطعمه الله مريم وقت نفاسها بعيسى، قاله الربيع بن خيثم وغيره.

عيسى يتكلم في المهد

قال تعالى: ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٢٧-٣٣].

ذكر كثير من السلف ممن ينقل عن أهل الكتاب أنهم لما افتقدوها من بين أظهرهم ذهبوا في طلبها فمروا على محلتها والأنوار حولها، فلما واجهوها وجدوا معها ولدها فقالوا لها: ﴿ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾، أي: أمرًا عظيمًا منكرًا.

وفي هذا الذي قالوه نظر، مع أنه كلام ينقض أوله آخره وذلك لأن ظاهر سياق القرآن العظيم يدل على أنها حملته بنفسها وأتت به قومها وهي تحمله.

قال ابن عباس: وذلك بعدما تعلت من نفاسها بعد أربعين يومًا، والمقصود: أنهم لما رأوها تحمل معها ولدها: ﴿ قَالُواْ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾، والفرية: هي الفعلة المنكرة العظيمة من الفعال والمقال، ثم قالوا لها: ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ ﴾، قيل: شبهوها بعابد من عباد زمانها كانت تساميه العبادة، وكان اسمه هارون، قاله سعيد بن جبير، وقيل: أرادوا بهارون أخا موسى، وشبهوها به في العبادة، وقالوا: ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾، أي: لست من بيت هذه شيمتهم ولا سجيتهم ولا أمك، ولا أبوك. فاتهموها بالفاحشة العظمى ورموها بالداهية الدهياء، فلما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال عظم التوكل على ذي الجلال، ولم يبق إلا الإخلاص والاتكال: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾، أي: خاطبوه وكلموه فإن جوابكم عنده، فعندها: ﴿ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾، أي: كيف تحيلنا في الجواب على طفل صغير لا يعقل الخطاب، وهو مع ذلك رضيع في مهده ولا يميز، وما ذلك منك إلا على سبيل التهكم بنا والاستهزاء، والنقص والازدراء، إذ لا تردين علينا قولا، بل تحيلين في الجواب على من كان في المهد صبيًا، فعندها: ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾.

وهكذا يعلن عيسى عليه السلام عبوديته لله.فليس هو ابنه كما تدعي فرقة، وليس هو إلهًا كما تدعي فرقة، وليس هو ثالث ثلاثة هم إله واحد وهم ثلاثة كما تدعي فرقة، ويعلن أن الله جعله نبيًا لا ولدًا ولا شريكًا، وبارك فيه وأوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته، والبر بوالدته والتواضع مع عشيرته، فله إذن حياة محدودة ذات أمد، وهو يموت ويبعث، وقد قدر الله له السلام والأمان والطمأنينة يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًا، هذا هو الحق في شأن عيسى عليه السلام: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [مريم: ٣٤- ٣٦].

بعد هذا التقرير يعرض القرآن اختلاف الفرق والأحزاب في أمر عيسى فيبدو هذا الخلاف مستنكرًا نابيًا في ظل هذه الحقيقة الناصعة. ﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم: ٣٧]، أي فاختلف أهل ذلك الزمان ومن بعدهم فيه، فمن قائل من اليهود: إنه ولد زانية، واستمروا على كفرهم وعنادهم، وقابلهم آخرون في الكفر، فقالوا: هو الله، وقال آخرون: هو ابن الله، وقال المؤمنون: هو عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وهؤلاء الناجون المثابون والمؤيدون المنصورون، ومن خالفهم في شيء من هذه القيود فهم الكافرون الضالون الجاهلون وقد توعدهم العلي العظيم الحكيم العليم بقوله تعالى: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ .

روى البخاري عن عبادة بن الصامت ﷺ عن النبي ﷺ قال: «**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**»، وفي رواية: «**من أبواب الجنة الثمانية أيها شاء**».

نشأة عيسى عليه السلام وتطور حياته

زعم وهب بن منبه أن عيسى عليه السلام ولد بمصر، وأن مريم سافرت هي ويوسف بن يعقوب النجار، وهذا لا يصح، والصحيح كما تقدم أنه عليه السلام ولد ببيت لحم قريبًا من بيت المقدس، وعن مكحول عن أبي هريرة قال: إن عيسى ابن مريم أول ما أطلق الله لسانه بعد الكلام الذي تكلم به وهو طفل فمجد الله تمجيدًا لم تسمع الآذان بمثله.

وعن ابن عباس: أن عيسى ابن مريم عليه السلام أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلاً حتى بلغ ما يبلغ الغلمان، ثم أنطقه الله تعالى بعد ذلك بالحكمة والبيان فأكثر اليهود فيه وفي أمه من القول، وكانوا يسمونه ابن البغية وذلك قوله تعالى: ﴿ وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ﴾

[النساء: ١٥٦]، قال: فلما بلغ سبع سنين أسلمته أمه في الكتّاب، فجعل لا يعلمه المعلم شيئًا إلا بدره إليه، فعلمه أبا جاد، فقال عيسى ما أبو جاد؟ فقال المعلم: لا أدري، فقال عيسى: كيف تعلمني ما لا تدري فقال المعلم: إذًا فعلمني، فقال له عيسى:فقم من مجلسك، فقام فجلس عيسى مجلسه، فقال: سلني؟ فقال المعلم: فما أبو جاد؟ فقال عيسى: الألف آلاء الله ، والباء: بهاء الله، والجيم: بهجة الله وجماله، فعجب العلم من ذلك فكان أول من فسر أبا جاد (أي الحروف الأبجدية وعددها تسعة وعشرون حرفًا منها تتكون الكلمات).

وعن ابن عباس أيضًا قال: وكان عيسى عليه السلام يرى العجائب في يصباه إلهامًا من الله ففشا ذلك في اليهود وترعرع عيسى، فهمت به بنو إسرائيل فخافت أمه عليه، فأوحى الله إلى أمه أن تنطلق به إلى أرض مصر، فذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

وقد اختلف السلف والمفسرون في المراد بهذه الربوة التي ذكر الله من صفاها أنها ذات قرار ومعين، وهذه صفة غريبة الشكل وهي أنها ربوة وهو المكان المرتفع من الأرض الذي أعلاه مستو يقر عليه وارتفاعه متسع، ومع علوه فيه عيون الماء المعين وهو الجاري السارح على وجه الأرض، فقيل: المراد المكان الذي ولدت فيه المسيح وهو نخلة بيت المقدس، ولهذا قال: ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ [مريم: ٢٤]، وهو النهر الصغير في قول جمهور السلف، وعن ابن عباس بإسناد جيد أنها أنهار دمشق، وقيل ذلك بمصر كما زعمه من زعمه من أهل الكتاب ومن تلقاه عنهم، وقيل: هي الرملة، والله أعلم.

وقال إسحاق بن بشر: قال لنا إدريس عن جده وهب بن منبه: إن عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنة أمره الله أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت إيليا قال: فقدم عليه يوسف ابن خال أمه فحملهما على حمار حتى جاء بهما إلى

إيليا وأقام بها حتى أحدث الله له الإنجيل وعلمه التوراة، وأعطاه إحياء الموتى وإبراء الأسقام والعلم بالغيوب مما يدخرون في بيوتهم، وتحدث الناس بقدومه، وفزعوا لما كان يأتي به من العجائب فجعلوا يعجبون منه فدعاهم إلى الله تعالى ففشا فيهم أمره.

بيان نزول الكتب الأربعة ومواقيتها

عن واثلة بن الأسقع ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أنزلت صحف إبراهيم عليه السلام في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الفرقان لأربع وعشرين خلت من رمضان**»، وذكر ابن جرير في تاريخه أنه أنزل عليه وهو ابن ثلاثين سنة، ومكث حتى رفع إلى السماء وهو ابن ثلاثين سنة.

معجزاته عليه السلام

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: ١١٠، ١١١].

إنها المواجهة بما كان من نعم الله على عيسى ابن مريم وأمه. من تأييده بروح القدس في مهده، وهو يكلم الناس في غير موعد الكلام ، ويبرئ أمه من الشبهة التي أثارتها ولادته على غير مثال. ثم وهو يكلمهم في الكهولة يدعوهم إلى الله، وروح القدس جبريل عليه السلام يؤيده هنا وهناك، ومن

تعليمه الكتاب والحكمة، وقد جاء فوجدها في بني إسرائيل، والإنجيل الذي آتاه إياه مصدقا لما بين يديه من التوراة، ثم من إيتائه خارق المعجزات التي لا يقدر عليها بشر إلا بإذن الله، فإذا هو يصور من الطين كهيئة الطير بإذن الله، فينفخ فيها فتكون طيرًا بإذن الله لا ندري كيف لأننا لا ندري اليوم كيف خلق الله الحياة، وكيف يبث الحياة في الأحياء، وإذا هو يبرئ المولود أعمى بإذن الله حيث لا يعرف الطب كيف يرد إليه البصر ولكن الله الذي يهب البصر أصلا قادر على أن يفتح عينيه للنور ويبرئ الأبرص بإذن الله، لا بدواء والدواء وسيلة لتحقيق إذن الشفاء، وصاحب الإذن قادر على تغيير الوسيلة، وعلى تحقيق الغاية بلا وسيلة، وإذا هو يحيي الموتى بإذن الله وواهب الحياة أول مرة قادر على رجعها حين يشاء ثم يذكره بنعمة الله عليه في حمايته من بني إسرائيل إذا جاءهم بهذه البينات كلها، فكذبوه وزعموا أن معجزاته هذه الخارقة سحر مبين، وبذلك أنهم لم يستطيعوا إنكار وقوعها، وقد شهدها الألوف، ولم يريدوا التسليم بدلالتها عنادًا وكبرًا، وحمايتها منهم فلم يقتلوه، كما أرادوا ولم يصلبوه، بل توفاه الله ورفعه إليه، كذلك يذكره بنعمة الله عليه في إلهام الحواريين أن يؤمنوا بالله وبرسوله، فإذا هم ملبون مستسلمون، يشهدونه على إيمانهم وإسلامهم أنفسهم كاملة لله ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾، إنها النعم التي آتاها الله عيسى عليه السلام، لتكون له شهادة وبينة، فإذا كثرة من أتباعه تتخذ منها مادة للزيغ وتصوغ منها، وحولها الأضاليل، فها هو ذا عيسى يواجه بها على مشهد من الملأ الأعلى، ومن الناس جميعًا، ومنهم قومه الغالون فيه، ها هو ذا يواجه بها ليسمع قومه ويروا، وليكون الخزي أوجع وأفضح على مشهد من العالمين!.

أنصار الله، وأنصار الشيطان

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ۝ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٢- ٥٤].

والمقصود: أن عيسى عليه السلام لما أقام عليهم الحجج والبراهين استمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم وطغيانهم، فوفق الله من بينهم طائفة صالحة فكانوا أنصارًا وأعونًا قاموا بمتابعته ونصرته ومناصحته، وذلك حين هم به بنو إسرائيل ووشوا به إلى بعض ملوك ذلك الزمان، فعزموا على قتله وصلبه فأنقذه الله منهم ورفعه إليه من بين أظهرهم، وألقى شبهه على أحد أصحابه فأخذوه وقتلوه وصلبوه، وهم يعتقدونه عيسى، وهم في ذلك غالطون، وللحق مكابرون.

البشارة بخاتم النبيين

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف: ٦].

فعيسى عليه السلام هو خاتم أنبياء بني إسرائيل وقد قام فيهم خطيبًا فبشرهم بخاتم الأنبياء الآتي بعده ونوه باسمه، وذكر لهم صفته ليعرفوه ويتابعوه إذا شاهدوه إقامة للحجة عليهم، وإحسانًا من الله تعالى إليهم، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وعن أبي أمامة ﷺ قال: «قلت للنبي الله ما كان أول بدء أمرك؟ قال: **دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نورًا أضاءت منها قصور الشام**»(١).

خبر المائدة

قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة: ١١٢- ١١٥].

يكشف لنا هذا الحوار عن طبيعة قوم عيسى المستخلصين منهم وهم الحواريون، فإذا بينهم وبين أصحاب رسولنا ﷺ فرق بعيد، إنهم الحواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به وبرسوله عيسى، فآمنوا وأشهدوا عيسى على إسلامهم، لقد آمنت قلوبهم واطمأنت منذ أن خالطتها بشاشة الإيمان، ولقد صدقوا رسولهم فلم يعودوا يطلبون على صدقهم بعد ذلك البرهان.

ولقد شهدوا له بلا معجزة إلا هذا القرآن، هذا هو الفارق الكبير بين حواريّي عيسى عليه السلام، وحواريّي محمد ﷺ، ذلك مستوى وهذا مستوى، وهؤلاء مسلمون وأولئك مسلمون، وهؤلاء مقبولون عند الله وهؤلاء مقبولون ولكن تبقى المستويات متباعدة، كما أرادها الله ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾.

---

(١) إسناده حسن: رواه في المسند (٢٢١٦٢)، وقال المحقق: إسناده حسن.

لقد كان الحواريون وهم تلاميذ المسيح وأقرب أصحابه إليه وأعرفهم به يعرفون أنه بشر، ابن مريم، وينادونه بما يعرفونه عنه حق المعرفة وكانوا يعرفون أنه ليس ربًا وإنما هو عبد مربوب لله، وأنه ليس ابن الله، وإنما هو ابن مريم ومن عبيد الله، وكانوا يعرفون كذلك أن ربه هو الذي يصنع تلك المعجزات الخوارق على يديه، وليس هو الذي يصنعها من عند نفسه بقدرته الخاصة، لذلك حين طلبوا إليه، أن تنزل عليه مائدة من السماء لم يطلبوها منه، فهم يعرفون أنه بذاته لا يقدر على هذه الخارقة، وإنما سألوه: ﴿ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾، واختلفت التأويلات في قولهم: ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾، كيف سألوه بهذه الصيغة بعد إيمانهم بالله وإشهاد عيسى عليه السلام على إسلامهم له، وقيل: إن معنى يستطيع ليس يقدر ولكن المقصود هو لازم الاستطاعة وهو أن ينزلها عليهم، وقيل: إن معناها: هل يستجيب لك إذا طلبت، قرئت «هل تستطيعُ رَبَّكَ»، بمعنى هل تملك أنت أن تدعو ربك لينزل علينا مائدة من السماء.

وعلى أية حال فقد رد عليهم عيسى عليه السلام ﴿ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، أي: اتقوا معاصيه وكثرة السؤال، فإنكم لا تدرون ما يحل بكم عند اقتراح الآيات، إذ كان الله عز وجل إنما يفعل الأصلح لعباده ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، أي: إن كنتم مؤمنين به وبما جئت به، فقد جاءكم من الآيات ما فيه غنى، ولكن الحواريين كرروا الطلب، معلنين عن علته وأسبابه وما يرجون من ورائه، ﴿ قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾، فهم يريدون أن يأكلوا من هذا الطعام الفريد الذي لا نظير له عند أهل الأرض[1]، وتطمئن قلوبهم برؤية هذه الخارقة وهي تتحقق أمام أعينهم، ويستيقنوا أن عيسى عليه السلام

(١) قال الإمام القرطبي: والمقطوع به أنها نزلت وكان عليها طعام يؤكل، والله أعلم بتعيينه.

قد صدقهم، ثم يكونوا شهودًا لدى بقية قومهم على وقوع هذه المعجزة، وكلها أسباب كما قلنا تصور مستوى معينًا دون مستوى أصحاب محمد ﷺ فهؤلاء طراز آخر بالموازنة مع هذا الطراز! عندئذ اتجه عيسى عليه السلام إلى ربه يدعوه ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾، وفي دعاء عيسى عليه السلام كما يكرر السياق القرآني هذه النسبة، أدب العبد المجتبى مع إلهه ومعرفته بربه، فهو يناديه: يا الله يا ربنا، إنني أدعوك أن تنزل علينا مائدة من السماء، تعمنا بالخير والفرحة كالعيد، فتكون لنا عيدًا لأولنا وآخرنا، وأن هذا من رزقك فارزقنا وأنت خير الرازقين، فهو إذن يعرف أنه عبد، وأن الله ربه، وهذا الاعتراف يعرض على مشهد من العالمين، في مواجهة قومه، يوم المشهد العظيم.

واستجاب الله دعاء عبده الصالح عيسى ابن مريم، ولكن بالجد اللائق بجلاله سبحانه وتعالى، لقد طلبوا خارقة، واستجاب الله، على أن يعذب من يكفر منهم بعد هذه الخارقة عذابًا شديدًا بالغًا في شدته لا يعذبه أحدًا من العالمين.

﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، فهذا هو الجد اللائق بجلال الله، حتى لا يصبح طلب الخوارق تسلية ولهوًا، وحتى لا يمضي الذين يكفرون بعد البرهان المفحم دون جزاء رادع! قد مضت سنة الله من قبل بهلاك من يكذبون بالرسل بعد المعجزة فأما هذا فإن النص يحتمل أن يكون هذا العذاب في الدنيا، أو يكون في الآخرة.

تنبيه: اختلف العلماء في المائدة:أنزلت أم لا؟وجمهور العلماء سلفًا وخلفًا على نزولها، وهذا ظاهر القرآن، فقد وعد الله، ووعده محقق لا محالة وقد أحيطت المائدة بأخبار كثيرة، أغلب الظن أنها من الإسرائيليات.

ذكر منشأ عيسى ابن مريم عليهما السلام
ومرباه في صغره وصباه
وبيان بدء الوحي إليه من الله تعالى

قد تقدم أنه ولد ببيت لحم قريبًا من بيت المقدس، وزعم وهب بن منبه أنه لّما ولد بمصر سافرت هي ويوسف بن يعقوب النجار وهي راكبة على حمار ليس بينهما وبين الإكاف شيء، وهذا لا يصح والحديث الذي تقدم ذكره دليل على أن مولده كان ببيت لحم، كما ذكرناه ومهما عارضه باطل.

وذكر وهب بن منبه أنه لما ولد خرت الأصنام يومئذ في مشارق الأرض ومغاربها، وأن الشياطين حارت في سبب ذلك حتى كشف لهم إبليس الكبير أمر عيسى فوجدوه في حجر أمه والملائكة محدقة به، وأنه ظهر نجم عظيم في السماء وأن ملك الفرس أشفق من ظهوره فسأل الكهنة عن ذلك فقالوا: هذا لمولد عظيم في الأرض، فبعث رسله ومعهم ذهب ومر ولبان هدية إلى عيسى، فلما قدموا الشام سألهم ملكها عما أقدمهم فذكروا له ذلك، فسأل عن ذلك الوقت فإذا قد ولد فيه عيسى ابن مريم ببيت المقدس واشتهر أمره بسبب كلامه في المهد فأرسلهم بما معهم وأرسل معهم من يعرفه له ليتوصل إلى قتله إذا انصرفوا عنه، فلما وصلوا إلى مريم بالهدايا ورجعوا قيل لها إن رسل ملك الشام إنما جاءوا ليقتلوا ولدك، فاحتملته فذهبت به إلى مصر، فأقامت بها حتى بلغ عمره اثنتي عشرة سنة.

وظهرت عليه كرامات ومعجزات في حال صغره، فذكر منها أن الدهقان الذي نزلوا عنده افتقد مالاً من داره وكانت داره لا يسكنها إلا الفقراء والضعفاء والمحاويج فلم يدر من أخذها، وعز ذلك على مريم عليها السلام وشق على الناس وعلى رب المنزل وأعياهم أمرهم، فلما رأى عيسى

عليه السلام ذلك عمد إلى رجل أعمى وآخر مقعد من جملة من هو منقطع إليه، فقال للأعمى: أحمل هذا حين أخذتما هذا المال من تلك الكوة من الدار، فلما قال ذلك صدقاه فيما قال وأتيا بالمال فعظم عيسى في أعين الناس وهو صغير جدًا.

وروي أن ابن الدهقان عمل ضيافة للناس بسبب طهور أولاده، فلما اجتمع الناس وأطعمهم ثم أراد أن يسقيهم شرابًا يعني خمرًا، كما كانوا يصنعون في ذلك الزمان لم يجد في جراره شيئًا فشق ذلك عليه، فلما رأى عيسى ذلك منه قام فجعل يمر على تلك الجرار ويمر يده على أفواهها فلا يفعل بجرة منها ذلك إلا امتلأت شرابا من خيار الشراب، فتعجب الناس من ذلك جدًا وعظموه وعرضوا عليه وعلى أمه مالاً جزيلاً فلم يقبلاه وارتحلا قاصدين بيت المقدس. والله أعلم.

وقال إسحاق بن بشر: أنبأنا عثمان بن ساج وغيره، عن موسى بن وردان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، وعن مكحول عن أبي هريرة قال: إن عيسى ابن مريم أول ما أطلق الله لسانه بعد الكلام الذي تكلم به وهو طفل، فمجد الله تمجيدًا لم تسمع الآذان بمثله لم يدع شمسًا ولا قمرًا ولا جبلاً ولا نهرًا ولا عينًا إلا ذكره في تمجيده فقال: اللهم أنت القريب في علوك، المتعالي في دنوك، الرفيع على كل شيء من خلقك، أنت الذي خلقت سبعًا في الهواء بكلماتك مستويات طباقا أجبن وهن دخان من فرقك فأتين طائعات لأمرك، فيهن ملائكتك يسبحون قدسك لتقديسك وجعلت فيهن نورًا على سواد الظلام وضياء من ضوء الشمس بالنهار، وجعلت فيهن مصابيح يهتدي بهن في الظلمات الحيران، فتباركت اللهم في مفطور سمواتك، وفيما دحوت من أرضك ودحوتها على الماء فسمكتها على تيار الموج الغامر، فأذللتها إذلال الصاغر، فذل لطاعتك صعبها واستحيا لأمرك أمرها وخضعت لعزتك أمواجها، ففجرت فيها بعد البحور الأنهار ومن بعد الأنهار الجداول الصغار

ومن بعد الجداول ينابيع العيون الغزار، ثم أخرجت منها الأنهار والأشجار والثمار ثم جعلت على ظهرها الجبال فوتدتها أوتادًا على ظهر الماء، فأطاعت أطوادها وجلمودها.

فتباركت الله! فمن يبلغ بنعمته نعتك أم من يبلغ بصفته صفتك؟ تنشر السحاب وتفك الرقاب وتقضي الحق وأنت خير الفاصلين، لا إله إلا أنت سبحانك سترت السموات عن الناس، لا إله إلا أنت إنما يخشاك من عبادك الأكياس، نشهد أنك لست بإله حادث، ولا رب يبيد ذكره، ولا كان معك شركاء فندعوهم ونذرك، ولا أعانك على خلقنا أحد فنشك فيك، نشهد أنك أحد صمد لم تلد ولم تولد ولم لكن لك كفوًا أحد.

وقال إسحاق بن بشير: عن جويبر ومقاتل، عن الضحاك، عن ابن عباس، أن عيسى ابن مريم أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلاً حتى بلغ ما يبلغ الغلمان، ثم أنطقه الله بعد ذلك الحكمة والبيان فأكثر اليهود فيه وفي أمه من القول، وكانوا يسمونه ابن البغية وذلك قوله تعالى: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٦].

خبر المائدة

قال الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة: ١١٢-١١٥].

وقد ذكرنا في التفسير الآثار الواردة في نزول المائدة عن ابن عباس وسلمان الفارسي وعمار بن ياسر وغيرهم من السلف.

ومضمون ذلك: أن عيسى عليه السلام أمر الحواريين بصيام ثلاثين يومًا فلما أتموها سألوا من عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم، ليأكلوا منها وتطمئن بذلك قلوبهم أن الله قد تقبل صيامهم وأجابهم إلى طلبتهم، وتكون لهم عيدًا يفطرون عليها يوم فطرهم وتكون كافية لأولهم وآخرهم لغنيهم وفقيرهم، فوعظهم عيسى عليه السلام في ذلك وخاف عليهم ألا يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حق شروطها فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عز وجل.

فلما لم يقلعوا عن ذلك قام إلى مصلاه ولبس مسحًا من شعر وصف بين قدميه وأطرق رأسه وأسبل عينيه بالبكاء وتضرع إلى الله في الدعاء والسؤال أن يجابوا إلى ما طلبوا.

فأنزل الله المائدة من السماء والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين، وجعلت تدنو قليلاً قليلاً، وكلما دنت سأل عيسى ربه عز وجل أن يجعلها رحمة لا نقمة وأن يجعلها بركة وسلامة، فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدي عيسى عليه السلام وهي مغطاة بمنديل فقام عيسى عنها وهو يقول: بسم الله خير الرازقين، فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة ويقال:وخل ويقال: ورمان وثمار، ولها رائحة عظيمة جدًا، قال الله كوني فكانت.

ثم أمرهم بالأكل منها فقالوا: لا نأكل حتى تأكل، فقال:إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها، فأبوا أن يأكلوا منها ابتداء، فأمر الفقراء والمحاويج والمرضى والزمنى وكانوا قريبًا من الألف وثلاثمائة فأكلوا منها فبرأ كل من به عاهة أو آفة أو مرض مزمن، فندم الناس على ترك الأكل منها لما رأوا من إصلاح حال أولئك، ثم قيل إنها كانت تنزل كل يوم مرة فيأكل الناس منها، يأكل آخرهم كما يأكل أولهم حتى قيل إنها كان يأكل منها نحو سبعة آلاف.

ثم كانت تنزل يومًا بعد يوم، كما كانت ناقة صالح يشربون لبنها يومًا بعد يوم، ثم أمر الله عيسى أن يقصرها على الفقراء والمحاويج دون الأغنياء، فشق ذلك على كثير من الناس وتكلم منافقوهم في ذلك، فرفعت بالكلية ومسخ الذين تكلموا في ذلك خنازير.

وقد روى ابن أبي حاتم وابن جرير جميعًا، حدثنا الحسن بن قزعة الباهلي، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة عن خلاس، عن عمار بن ياسر، عن النبي ﷺ قال: «**نزلت المائدة من السماء خبز ولحم وأمروا ألا يخونوا ولا يدخروا ولا يرفعوا لغد، فخانوا وادخروا ورفعوا، فمسخوا قردة وخنازير**».

ثم رواه ابن جرير عن بندار، عن ابن أبي عدي، عن سعيد ، عن قتادة، عن خلاس، عن عمار موقوفًا، وهذا أصح، وكذا رواه من طريق سماك، عن رجل من بني عجل، عن عمار موقوفًا، وهو الصواب والله أعلم.

وخلاس عن عمار منقطع، فلو صح هذا الحديث مرفوعًا لكان فيصلاً في هذه القصة، فإن العلماء اختلفوا في المائدة: هل نزلت أم لا؟ فالجمهور أنها نزلت كما دلت عليه هذه الآثار كما هو المفهوم من ظاهر سياق القرآن ولاسيما قوله: ﴿ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡ ﴾ [المائدة: ١١٥]، كما قرره ابن جرير والله أعلم.

وقد روى ابن جرير بإسناد صحيح إلى مجاهد وإلى الحسن بن أبي الحسن البصري، أنهما قالا: لم تنزل وأنهم أبوا نزولها حين قال: ﴿ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة: ١١٥]،

ولهذا قيل إن النصارى لا يعرفون خبر المائدة وليس مذكورًا في كتبهم، ومع أن خبرهم مما تتوافر الدواعي على نقله، والله أعلم.

وقد تقصينا الكلام على ذلك في التفسير فليكتب من هناك، ومن أراد مراجعته فلينظره من ثم ولله الحمد والمنة.

قال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا رجل سقط اسمه، حدثنا حجاج بن محمد حدثنا أبو هلال بن محمد بن سليمان، عن بكر بن عبد الله المزني قال: فقد الحواريون نبيهم عيسى فقيل لهم توجه نحو البحر، فانطلقوا يطلبونه فلما انتهوا إلى البحر إذا هو يمشي على الماء يرفعه الموج مرة ويضعه أخرى، وعليه كساء مرتد بنصفه ومؤتزر بنصفه، حتى انتهى إليهم فقال له بعضهم -قال أبو هلال ظننت أنه من أفاضلهم-: ألا أجيء إليك يا نبي الله؟ قال: بلى. قال: فوضع إحدى رجليه على الماء ثم ذهب ليضع الأخرى فقال: أوه غرقت يا نبي الله، فقال: أرني يدك يا قصير الإيمان، لو أن لابن آدم من اليقين قدر شعيرة مشى على الماء.

ورواه أبو سعيد بن الأعرابي، عن إبراهيم بن أبي الجحيم، عن سليمان ابن حرب، عن أبي هلال عن بكر بنحوه.

ثم قال ابن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن سفيان، حدثنا إبراهيم بن الأشعث، عن الفضيل بن عياض، قال: قيل لعيسى ابن مريم: يا عيسى بأي شيء تمشي على الماء؟ قال: بالإيمان واليقين، قالوا: فإنا آمنا كما آمنت وأيقنا كما أيقنت. قال: فامشوا إذًا، قال: فمشوا معه في الموج فغرقوا فقال لهم عيسى: ما لكم؟ فقالوا: خفنا الموج، قال: ألا خفتم رب الموج! قال: فأخرجهم. ثم ضرب بيده إلى الأرض فقبض بها ثم بسطها. فإذا في إحدى يديه ذهب وفي الأخرى مدر أو حصى فقال: أيهما أحل في قلوبكم؟ قالوا: هذا الذهب، قال: فإنها عندي سواء!

وقدمنا في قصة يحيى بن زكريا عن بعض السلف أن عيسى عليه السلام كان يلبس الشعر ويأكل من ورق الشجر ولا يأوي إلى منزل ولا أهل ولا

مال ولا يدخر شيئًا لغد، قال بعضهم: كان يأكل من غزل أمه، صلوات الله وسلامه عليه.

وروى ابن عساكر عن الشعبي أنه قال: كان عيسى عليه السلام إذا ذكر عنده الساعة صاح ويقول: لا ينبغي لابن مريم أن يذكر عنده الساعة ويسكت.

وعن عبد الملك بن سعيد بن أبجر أن عيسى كان إذا سمع الموعظة صرخ صراخ الثكلى: اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو؛ وأصبح الأمر بيد غيري، وأصبحت مرهَنًا بعملي، فلا فقير أفقر مني! اللهم لا تشمت بي عدوي ولا تَسُؤْ بي صديقي، ولا تجعل مصيبتي في ديني ولا تسلط علي من لا يرحمني.

قال الفضيل بن عياض عن يونس بن عبيد، كان عيسى يقول لا يصيب أحد حقيقة الإيمان حتى لا يبالي من أكل الدنيا!

قال الفضيل: وكان عيسى يقول: فكرت في الخلق فوجدت من لا يخلق أغبط عندي ممن خلق!

وقال إسحاق بن بشر، عن هشام بن حسان، عن الحسن، قال: إن عيسى رأس الزاهدين يوم القيامة، قال: وإن الفرارين بذنوبهم يحشرون يوم القيامة مع عيسى.

قال: وبينما عيسى يومًا نائم على حجر قد توسده وقد وجد لذة النوم إذ مر به إبليس فقال: يا عيسى ألست تزعم أنك لا تريد شيئًا من عرض الدنيا؟ فهذا الحجر من عرض الدنيا، قال: فقام عيسى فأخذ فرمى به إليه وقال: هذا لك مع الدنيا!

وقال معتمر بن سليمان: خرج عيسى على أصحابه وعليه جبة صوف وكساء وتبان حافيًا باكيًا شعثًا مصفر اللون من الجوع يابس الشفتين من العطش فقال: السلام عليكم يا بني إسرائيل، أنا الذي أنزلت الدنيا منزلتها بإذن الله ولا عجب ولا فخر، أتدرون أين بيتي؟ قالوا: أين بيتك يا روح الله؟

قال: بيتي المساجد، وطيبي الماء، وإدامي الجوع، وسراجي القمر بالليل، وصلاتي في الشتاء مشارق الشمس، وريحاني بقول الأرض، ولباسي الصوف، وشعاري خوف رب العزة،وجلسائي الزمنى والمساكين، أصبح وليس لي شيء وأمسي وليس لي شيء وأنا طيب النفس غير مكترث فمن أغنى مني وأربح؟! رواه ابن عساكر.

وروي في ترجمة محمد بن الوليد بن أبان بن حبان أبي الحسن العقيلي المصري، حدثنا هانئ بن المتوكل الإسكندراني، عن حيوة بن شريح، حدثني الوليد بن أبي الوليد، عن شفي بن ماتع، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ قال: **«أوحى الله تعالى إلى عيسى: أن يا عيسى انتقل من مكان إلى مكان لئلا تعرف فتؤذى، فوعزتي وجلالي لأزوجنك ألف حوراء ولأولمن عليك أربعمائة عام»**.

وهذا حديث غريب رفعه، وقد يكون موقوفًا من رواية شفي بن ماتع، عن كعب الأحبار أو غيره من الإسرائيليين والله أعلم.

وقال عبد الله بن المبارك: عن سفيان بن عيينة، عن خلف بن حوشب، قال: قال عيسى للحواريين: كما ترك لكم الملوك الحكمة فكذلك فاتركوا لهم الدنيا.

وقال قتادة: قال عيسى عليه السلام: سلوني فإني لين القلب وإني صغير عند نفسي.

وقال إسماعيل بن عياش، عن عبد الله بن دينار ،عن ابن عمر، قال: قال عيسى للحواريين: كلوا خبز الشعير واشربوا الماء القراح، واخرجوا من الدنيا سالمين آمنين، بحق ما أقول لكم إن حلاوة الدنيا مرارة الآخرة، وإن مرارة الدنيا حلاوة الآخرة ، وإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين، بحق ما أقول لكم إن شرّكم عالم يؤثر هواه على علمه يود أن الناس كلهم مثله، وروى نحوه أبو هريرة.

قال أبو مصعب عن مالك إنه بلغه أن عيسى كان يقول: يا بني إسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البرير وخبز الشعير، وإياكم وخبز البر فإنكم لن تقوموا بشكره.

وقال ابن وهب عن سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد قال: كان عيسى يقول اعبروا الدنيا ولا تعمروها، وكان يقول: حب الدنيا رأس كل خطيئة، والنظر يزرع في القلب الشهوة.

وحكى وهيب بن الورد مثله وزاد: ورب شهوة أورثت أهلها حزنًا طويلاً.

وعن عيسى عليه السلام: يا ابن آدم الضعيف اتق الله حيثما كنت، وكن في الدنيا ضيفًا، واتخذ المساجد بيتًا، وعلم عينك البكاء وجسدك الصبر وقلبك التفكير، ولا تهتم برزق غد فإنها خطيئة.

وعنه عليه السلام أنه قال: كما أنه لا يستطيع أحدكم أن يتخذ على موج البحر دارًا فلا يتخذ الدنيا قرارًا.

وفي هذا يقول سابق بن البربري:

لكم بيوت بمستن السيوف وهل يـــبنى على الماء بيت أسه مدر!

وقال سفيان الثوري: قال عيسى ابن مريم: لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة في قلب مؤمن كما لا يستقيم الماء والنار في إناء.

وقال إبراهيم الحربي عن داود بن رشيد عن أبي عبد الله الصوفي، قال: قال عيسى: طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر، كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا حتى يقتله.

ومن قول عيسى عليه السلام: إن الشيطان مع الدنيا ومكره مع الماء وتزينه مع الهوى، واستمكانه عند الشهوات.

وقال الأعمش عن خيثمة: كان عيسى يضع الطعام لأصحابه ويقوم عليهم ويقول: هكذا فاصنعوا بالقرى.

وبه قالت امرأة لعيسى عليه السلام: طوبى لحجر حملك ولثدي أرضعك فقال: طوبى لمن قرأ كتاب الله واتبعه.

وعنه: طوبى لمن بكى من ذكر خطيئته وحفظ لسانه ووسعه بيته.

وعنه: طوبى لعين نامت و لم تحدث نفسها بالمعصية وانتبهت إلى غير إثم.

وعن مالك بن دينار قال: مر عيسى وأصحابه بجيفة فقالوا: ما أنتن ريحها، فقال: ما أبيض أسنانها. لينهاهم عن الغيبة.

وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: يحدثنا الحسين بن عبد الرحمن، عن زكريا ابن عدي قال: قال عيسى ابن مريم: يا معشر الحواريين ارضوا بدنيّ الدنيا مع سلامة الدين كما رضي أهل الدنيا بدنيّ الدين مع سلامة الدنيا.

قال زكريا: وفي ذلك يقول الشاعر:

أرى رجــالاً بأدنى الدين قد قنعوا ... ولا أراهم رضوا في العيش بالدون

فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما ... اســتغنى الملوك بدنياهم عن الدين

وقال أبو مصعب عن مالك قال: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: لا تكثروا الحديث بغير ذكر الله فتقسو قلوبكم فإن القلب القاسي بعيد عن الله ولكن لا تعلموا، ولا تنظروا في ذنوب العباد كأنكم أرباب وانظروا فيها كأنكم عبيد، فإنما الناس رجلان معافى ومبتلى فارحموا أهل البلاء واشكروا الله على العافية.

وقال الثوري: سمعت أبي يقول عن إبراهيم التيمي، قال: قال عيسى لأصحابه: بحق أقول لكم: من طلب الفردوس فخبز الشعير والنوم في المزابل مع الكلاب كثير، وقال مالك بن دينار قال عيسى: إن أكل الشعير مع الرماد والنوم على المزابل مع الكلاب لقليل في طلب الفردوس.

وقال عبد الله بن المبارك: أنبأنا سفيان، عن منصور، عن سالم عن ابن الجعد، قال: قال عيسى: اعملوا لله ولا تعملوا لبطونكم، انظروا إلى هذا الطير تغدو وتروح لا تحصد ولا تحرث والله يرزقها فإن قلتم نحن أعظم بطونًا من الطير فانظروا إلى هذه الأباقر من الوحوش والحمر فإنها تغدو وتروح لا تحرث ولا تحصد والله يرزقها اتقوا فضول الدنيا فإن فضول الدنيا عند الله رجز.

وقال صفوان بن عمرو: عن شريح بن عبد الله، عن يزيد بن ميسرة، قال: قال الحواريون للمسيح: يا مسيح الله انظر إلى مسجد الله ما أحسنه، قال: آمين آمين بحق ما أقول لكم لا يترك الله من هذا المسجد حجرًا قائمًا إلا أهلكه بذنوب أهله، إن الله لا يصنع بالذهب ولا الفضة ولا بهذه الأحجار التي تعجبكم شيئًا إن أحب إلى الله منها القلوب الصالحة وبها يعمر الله الأرض، وبها يخرب الله الأرض إذا كانت على غير ذلك.

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخه: أخبرنا أبو منصور بن محمد الصوفي، أخبرتنا عائشة بنت الحسن بن إبراهيم الوركانية،قالت: حدثنا أبو محمد عبد الله بن عمر بن عبد الله بن الهيثم إملاء، حدثنا الوليد بن أبان إملاء، حدثنا أحمد بن جعفر الرازي، حدثنا سهيل بن إبراهيم الحنظلي، حدثنا عبد الوهاب بن عبد العزيز، عن المعتمر، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال:«**مر عيسى عليه السلام على مدينة خربة، فأعجبه البنيان، فقال: أي رب مر هذه المدينة أن تجيبني، فأوحى الله إلى المدينة: أيتها المدينة الخربة جاوبي عيسى، قال فنادت المدينة: عيسى حبيبي وما تريد مني؟ قال: وما فعل أشجارك وما فعل أنهارك وما فعل قصورك وأين سكانك؟ قالت: حبيبي جاء وعد ربك الحق فيبست أشجاري ونشفت أنهاري وخربت قصوري ومات سكاني، قال: فأين أموالهم؟ فقالت: جمعوها من الحلال والحرام موضوعة في بطني، لله ميراث السموات والأرض، قال: فنادى عيسى عليه السلام: تعجبت من ثلاث أناس: طالب الدنيا والموت يطلبه، وباني القصور والقبر منزله، ومن يضحك ملء فيه والنار أمامه! ابن آدم لا بالكثير تشبع، ولا بالقليل تقنع، تجمع مالك لمن لا يحمدك، وتقدم على رب لا يعذرك إنما أنت عبد بطنك وشهوتك، وإنما تملأ بطنك إذا دخلت قبرك، وأنت يا ابن آدم ترى حشد مالك في ميزان غيرك**».

هذا حديث غريب وفيه موعظة حسنة فكتبناه لذلك.

وقال سفيان الثوري عن أبيه، عن إبراهيم التيمي، قال عيسى عليه السلام: يا معشر الحواريين اجعلوا كنوزكم في السماء فإن قلب الرجل حيث كنزه.

وقال ثور بن يزيد بن عبد العزيز بن ظبيان قال: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: من تعلم وعلم وعمل دعي عظيمًا في ملكوت السماء.

وقال أبو كريب: روي أن عيسى عليه السلام قال: لا خير في علم لا يعبر معك الوادي ويعبر بك النادي.

وروى ابن عساكر بإسناد غريب عن ابن عباس مرفوعًا أن عيسى قام في بني إسرائيل فقال: يا معشر الحواريين لا تحدثوا بالحكم غير أهلها فتظلموها ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، والأمور ثلاثة: أمر تبين رشده فاتبعوه وأمر تبين غيه فاجتنبوه، وأمر اختلف عليكم فيه فردوا علمه إلى الله عز وجل.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن رجل، عن عكرمة قال: قال عيسى: لا تطرحوا اللؤلؤ إلى الخنزير فإن الخنزير لا يصنع باللؤلؤ شيئًا، ولا تعطوا الحكمة من لا يريدها، فإن الحكمة خير من اللؤلؤ ومن لا يريدها شر من الخنزير!

وكذا حكى وهب وغيره عنه أنه قال لأصحابه: أنتم ملح الأرض فإذا فسدتم فلا دواء لكم، وإن فيكم خصلتين من الجهل: الضحك من غير عجب والصبحة من غير سهر.

وعنه أنه قيل له: من أشد الناس فتنة؟ قال: زلة العالم فإن العالم إذا زل يزل بزلته عالم كثير.

وعنه أنه قال: يا علماء السوء جعلتم الدنيا على رءوسكم والآخرة تحت أقدامكم، قولكم شفاء وعملكم داء مثلكم مثل شجرة الدفلى تعجب من رآها وتقتل من أكلها.

وقال وهب: قال عيسى: يا علماء السوء جلستم على أبواب الجنة فلا تدخلونها ولا تدعون المساكين يدخلونها، إن شر الناس عند الله عالم يطلب الدنيا بعلمه.

وقال مكحول: التقى يحيى وعيسى، فصافحه عيسى وهو يضحك فقال له يحيى: يا ابن خالة ما لي أراك ضاحكًا كأنك قد أمنت؟! فقال له عيسى: ما لي أراك عابسًا كأنك قد يئست! فأوحى الله إليهما: إن أحبكما إليّ أبشّكما بصاحبه.

وقال وهب بن منبه: وقف عيسى هو وأصحابه على قبر وصاحبه يدلى فيه، فجعلوا يذكرون القبر وضيقه فقال: قد كنتم فيما هو أضيق منه في أرحام أمهاتكم، فإذا أحب الله أن يوسع وسع.

وقال أبو عمر الضرير: بلغني أن عيسى كان إذا ذكر الموت يقطر جلده دمًا، والآثار في مثل هذا كثيرة جدًا، وقد أورد الحافظ ابن عساكر منها طرقًا صالحة اقتصرنا منها على هذا القدر، والله الموفق للصواب.

ذكر رفع عيسى عليه السلام إلى السماء في حفظ الرب وبيان كذب اليهود والنصارى في دعوى الصلب

قال الله تعالى: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [آل عمران: ٥٤، ٥٥].

وقال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٥٥- ١٥٩].

فأخبر تعالى أنه رفعه إلى السماء بعدما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به، وخلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به إلى بعض الملوك الكفرة في ذلك الزمان.

وقال الحسن البصري ومحمد بن إسحاق: كان اسمه داود بن نورا فأمر بقتله وصلبه فحصروه في دار بيت المقدس، وذلك عشية الجمعة ليلة السبت، فلما حان وقت دخولهم ألقي شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده ورفع عيسى من روزنة من ذلك البيت إلى السماء، وأهل البيت ينظرون، ودخل الشرط فوجدوا ذلك الشاب الذي ألقي عليه شبهه فأخذوه ظانين أنه عيسى فصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه إهانة له، وسلم اليهود عامة النصارى

الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى أنه صلب وضلوا بسبب ذلك ضلالاً مبينًا كثيرًا فاحشًا بعيدًا.

وأخبر تعالى بقوله: ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ﴾ [النساء: ١٥٩]، أي بعد نزوله إلى الأرض في آخر الزمان قبل قيام الساعة، فإنه ينزل ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام، كما بينا ذلك بما ورد فيه من الأحاديث عند تفسير هذه الآية الكريمة من سورة النساء، كما أوردنا ذلك مستقصى في كتاب الفتن والملاحم عند أخبار المسيح الدجال، فذكرنا ما ورد في نزول المسيح المهدي عليه السلام من ذي الجلال لقتل المسيح الدجال الكذاب الداعي إلى الضلال.

وهذا ذكر ما ورد في الآثار في صفة رفعه إلى السماء

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً منهم من الحواريين، يعني فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماء فقال:إن منكم من يكفر بي اثني عشرة مرة بعد أن آمن بي، ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني فيكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سنًا فقال له: اجلس، ثم أعاد عليهم فقام شاب فقال: أنا، فقال: أنت هو ذاك، فألقي عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روزنة في البيت إلى السماء.

قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه فكفر به بعضهم اثني عشرة مرة بعد أن آمن به وافترقوا ثلاث فرق، فقالت طائفة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه هؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث الله محمدًا ﷺ .

قال ابن عباس: وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾ [الصف: ١٤].

وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس على شرط مسلم،ورواه النسائي عن أبي كريب، عن أبي معاوية به نحوه، ورواه ابن جرير عن مسلم بن جنادة عن أبي معاوية، وهكذا ذكر غير واحد من السلف، وممن ذكر ذلك مطولاً محمد ابن إسحاق بن يسار، قال: وجعل عيسى عليه السلام يدعو الله عز وجل أن يؤخر أجله، يعني ليبلغ الرسالة ويكمل الدعوة ويكثر الناس الدخول في دين الله قيل: وكان عنده من الحواريين اثنا عشر رجلاً: بطرس ويعقوب بن زبدا ويحنس أخو يعقوب،وأندراوس، وفليبس، وابرثلما، ومتى، وتوماس، و يعقوب بن حلقيا، وتداوس، وفتاتيا، ويودس كريايوطا، وهذا هو الذي دل اليهود على عيسى.

قال ابن إسحاق: وكان فيهم رجل آخر اسمه سرجس كتمته النصارى وهو الذي ألقي شبه المسيح عليه فصلب عنه، قال: وبعض النصارى يزعم أن الذي صلب عن المسيح وألقي عليه شبهه هو يودس بن كريايوطا والله أعلم.

وقال الضحاك عن ابن عباس: استخلف عيسى شمعون وقتلت اليهود يودس الذي ألقي عليه الشبه.

وقال أحمد بن مروان: حدثنا محمد بن الجهم، قال: سمعت الفراء يقول في قوله: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٤]، قال: إن عيسى غاب عن خالته زمانًا فأتاها، فقام رأس الجالوت اليهودي فضرب على عيسى حتى اجتمعوا على باب داره فكسروا الباب ودخل رأس جالوت ليأخذ عيسى فطمس الله عينيه عن عيسى، ثم خرج إلى أصحابه فقال لم أره، ومعه سيف مسلول، فقالوا: أنت عيسى وألقى الله شبه عيسى عليه، فأخذوه فقتلوه وصلبوه، فقال جل ذكره:﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ [النساء: ١٥٧].

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب القمي، عن هارون بن عنترة، عن وهب بن منبه، قال: أتي عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في

بيت فأحاطوا بهم، فلما دخلوا عليهم صورهم الله كلهم على صورة عيسى فقالوا لهم: سحرتمونا لتبرزن إلينا عيسى أو لنقتلنكم جميعًا، فقال عيسى لأصحابه من يشتري منكم اليوم نفسه بالجنة فقال رجل: أنا، فخرج إليهم فقال: أنا عيسى، وقد صوره الله على صورة عيسى، فأخذوه فقتلوه وصلبوه فمن ثم شبه لهم وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى، فظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى، ورفع الله عيسى من يومه ذلك.

وقال ابن جرير: وحدثنا المثنى، حدثنا إسحاق، حدثنا إسماعيل بن عبد الكريم، حدثني عبد الصمد بن معقل، أنه سمع وهبًا يقول: إن عيسى ابن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا جزع من الموت وشق عليه، فدعا الحواريين وصنع لهم طعامًا فقال: احضروني الليلة فإن لي إليكم حاجة، فلما اجتمعوا إليه من الليل عشاهم وقام يخدمهم، فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده ويمسح أيديهم بثيابه، فتعاظموا ذلك وتكارهوه فقال: من رد علي شيئًا الليلة مما أصنع فليس مني ولا أنا منه، فأقروه حتى إذا فرغ من ذلك قال: أما ما صنعت بكم الليلة مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدي فليكن لكم بي أسوة، فإنكم ترون أني خيركم فلا يتعاظم بعضكم لبعض نفسه، كما بذلت نفسي لكم، وأما حاجتي التي استعنتكم عليها فتدعون الله لي وتجتهدون في الدعاء أن يؤخر أجلي.

فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء، فجعل يوقظهم ويقول: سبحان الله أما تصبرون لي ليلة واحدة تعينونني فيها؟ فقالوا: والله ما ندري، ما لنا، والله لقد كنا نسمر فنكثر السمر وما نطيق الليلة سمرًا، وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه فقال: يذهب بالراعي وتتفرق الغنم! وجعل يأتي بكلام نحو هذا ينعي به نفسه، ثم قال: الحق ليكفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات، وليبيعني أحدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمني.

فخرجوا وتفرقوا، وكانت اليهود تطلبه فأخذوا شمعون أحد الحواريين فقالوا: هذا من أصحابه، فجحد وقال: ما أنا بصاحبه، فتركوه، ثم أخذه آخرون فجحد كذلك، ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه.

فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود، فقال: ما تجعلون لي إن دللتكم على المسيح؟ فجعلوا له ثلاثين درهمًا فأخذها ودلهم عليه، وكان شبه عليهم قبل ذلك فأخذوه واستوثقوا منه وربطوه بالحبل وجعلوا يقودونه ويقولون: أنت كنت تحيي الموتى وتنتهر الشيطان وتبرئ المجنون، أفلا تنجي نفسك من هذا الحبل؟! ويبصقون عليه ويلقون عليه الشوك حتى أتوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها فرفعه الله إليه وصلبوا ما شبهه لهم فمكث سبعًا.

ثم إن أمه والمرأة التي كان يداويها عيسى فأبرأها الله من الجنون جاءتا تبكيان حيث كان المصلوب فجاءهم عيسى فقال: علام تبكيان؟ قالتا عليك، فقال: إني قد رفعني الله إليه ولم يصبني إلا خير، وإن هذا شيء شبه لهم، فأمر الحواريين أن يلقوني إلى مكان كذا وكذا، فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر وفقد الذي كان باعه ودل عليه اليهود، فسأل عنه أصحابه فقالوا إنه ندم على ما صنع فاختنق وقتل نفسه، فقال: لو تاب لتاب الله عليه، ثم سألهم عن غلام كان يتبعهم يقال له يحيى فقال: هو معكم فانطلقوا فإنه سيصبح كل إنسان منكم يحدث بلغة قوم فلينذرهم وليدعهم.

وهذا إسناد غريب عجيب، وهو أصح مما ذكره النصارى لعنهم الله من أن المسيح جاء إلى مريم وهي جالسة تبكي عند جزعة فأراها مكان المسامير من جسده وأخبرها أن روحه رفعت وأن جسده صلب.

وهذا بهت وكذب واختلاق وتحريف وتبديل وزيادة باطلة في الإنجيل على خلاف الحق ومقتضى الدليل.

وحكى الحافظ ابن عساكر من طريق يحيى بن حبيب، فيما بلغه، أن مريم سألت من بيت الملك بعد ما صلب المصلوب بسبعة أيام، وهي تحسب أنه ابنها، وأن ينزل جسده، فأجابهم إلى ذلك ودفن هنالك، فقالت مريم لأم يحيى: ألا

تذهبين بنا نزور قبر المسيح؟ فذهبتا فلما دنتا من القبر قالت مريم لأم يحيى: ألا تستترين؟ قالت: وممن أستتر؟ فقالت من هذا الرجل الذي هو عند القبر. فقالت أم يحيى: إني لا أرى أحدًا فرجت مريم أن يكون جبريل، وكانت قد بعد عهدها به، فاستوقفت أم يحيى وذهبت نحو القبر فلما دنت من القبر قال لها جبريل، وعرفته: يا مريم أين تريدين؟ فقالت: أزور قبر المسيح فأسلم عليه وأحدث عهدًا به، فقال: يا مريم إن هذا ليس المسيح، إن الله قد رفع المسيح وطهره من الذين كفروا، ولكن هذا الفتى الذي ألقي شبهه عليه وصلب وقتل مكانه، وعلامة ذلك أن أهله قد فقدوه فلا يدرون ما فعل به فهم يبكون عليه، فإذا كان يوم كذا وكذا فأت غيضة كذا وكذا فإنك تلقين المسيح.

قال: فرجعت إلى أختها وصعد جبريل فأخبرتها عن جبريل وما قال لها من أم الغيضة، فلما كان ذلك اليوم ذهبت فوجدت عيسى في الغيضة فلما رآها أسرع عليه وأكب عليها فقبل رأسها وجعل يدعو لها كما كان يفعل، وقال يا أمه إن القوم لم يقتلوني ولكن الله رفعني إليه وأذن لي في لقائك والموت يأتيك قريبًا فاصبري واذكري الله كثيرًا، ثم صعد عيسى فلم تلقه إلا تلك المرة حتى ماتت.

قال: وبلغني أن مريم بقيت بعد عيسى خمس سنين وماتت ولها ثلاث وخمسون سنة، رضي الله عنها وأرضاها.

وقال الحسن البصري: كان عمر عيسى عليه السلام يوم رفع أربعًا وثلاثين سنة، وفي الحديث: «**إن أهل الجنة يدخلونها جردًا مردًا مكحلين أبناء ثلاث وثلاثين**»، وفي الحديث الآخر: «**على ميلاد عيسى وحسن يوسف**»، وكذا قال حماد بن سلمة عن علي بن يزيد، عن سعيد بن المسيب، أنه قال: رفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة.

فأما الحديث الذي رواه الحاكم في مستدركه ويعقوب بن سفيان الفسوي في تاريخه، عن سعيد بن أبي مريم، عن نافع بن يزيد، عن عمارة بن غزية، عن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، أن أمه فاطمة بنت الحسين

حدثته أن عائشة كانت تقول: «أخبرتني فاطمة أن رسول الله ﷺ أخبرها: **أنه لم يكن نبي كان بعده نبي إلا عاش الذي بعده نصف عمر الذي كان قبله، وأنه أخبرني أن عيسى ابن مريم عاش عشرين ومائة سنة فلا أراني إلا ذاهب على رأس ستين**»، هذا لفظ الفسوي، فهو حديث غريب.

قال الحافظ ابن عساكر: والصحيح أن عيسى لم يبلغ هذا العمر، وإنما أراد به مدة مقامه في أمته، كما روى سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار عن يحيي بن جعدة، قال: قالت فاطمة: «قال لي رسول الله ﷺ: **إن عيسى ابن مريم مكث في بني إسرائيل أربعين سنة**»، وهذا منقطع.

وقال جرير والثوري عن الأعمش، عن إبراهيم: مكث عيسى في قومه أربعين عامًا.

ويروى عن أمير المؤمنين علي أن عيسى عليه السلام رفع ليلة الثاني والعشرين من رمضان وتلك الليلة في مثلها توفي علي بعد طعنه بخمسة أيام، وقد روى الضحاك عن ابن عباس أن عيسى لما رفع إلى السماء جاءته سحابة فدنت منه حتى جلس عليها وجاءته مريم فودعته وبكت ثم رفع وهي تنظر وألقى إليها عيسى برداء له، وقال: هذا علامة ما بيني وبينك يوم القيامة وألقى عمامته على شمعون، وجعلت أمه تودعه بإصبعها تشير بها إليه حتى غاب عنها، وكانت لا تفارقه سفرًا ولا حضرًا وكانت كما قال بعض الشعراء:

وكنت أرى كالموت من بين ساعة فكـــيف ببين كان موعده الحشر

وذكر إسحاق بن بشر، عن مجاهد بن جبير أن اليهود لما صلبوا ذلك الرجل شبه لهم وهم يحسبونه المسيح وسلم لهم أكثر النصارى بجهلهم ذلك، وتسلطوا على أصحابه بالقتل والضرب والحبس فبلغ أمرهم إلى صاحب الروم وهو ملك دمشق في ذلك الزمان، فقيل له إن اليهود تسلطوا على أصحاب رجل كان يذكر لهم أنه رسول الله يحيي الموتى ويبرئ الأكمه

والأبرص ويفعل العجائب، فعدل عليه فقتلوه وأهانوا أصحابه وحبسوهم فبعث فجئ بهم وفيهم يحيى بن زكريا وشمعون وجماعة، فسألهم عن أمر المسيح فأخبروه عنه، فبايعهم في دينهم وأعلى كلمتهم وظهر الحق على اليهود وعلت كلمة النصارى عليهم، وبعث إلى المصلوب فوضع عن جذعه وجيء بالجذع الذي صلب عليه ذلك الرجل فعظمه فمن ثم عظمت النصارى الصليب، ومن ههنا دخل دين النصرانية في الروم.

وفي هذا نظر من وجوه:

أحدها: أن يحيى بن زكريا نبي لا يقر على أن المصلوب عيسى، فإنه معصوم يعلم ما وقع على جهة الحق.

الثاني: أن الروم لم يدخلوا في دين المسيح إلا بعد ثلاثمائة سنة، وذلك في زمان قسطنطين بن قسطن باني المدينة المنسوبة إليه على ما سنذكره.

الثالث: أن اليهود ما صلبوا ذلك الرجل ثم ألقوه بخشبته جعلوا مكانه مطرحًا للقمامة والنجاسة وجيف الميتات والقاذورات، فلم يزل كذلك حتى كان في زمان قسطنطين المذكور فعمدت أمه هيلانة الحرانية الفندقانية فاستخرجته من هنالك معتقدة أنه المسيح، ووجدوا الخشبة التي صلب عليها المصلوب، فذكروا أنه ما مسها ذو عاهة إلا عوفي، فالله أعلم أكان هذا أم لا، وهل كان هذا لأن ذلك الرجل الذي بذل نفسه كان رجلاً صالحًا أو كان هذا محنة وفتنة لأمة النصارى في ذلك اليوم، حتى عظموا تلك الخشبة وغشوها بالذهب واللآلئ، ومن هذا اتخذوا الصلبانات وتبركوا بشكلها وقبلوها، وأمرت أم الملك هيلانة فأزيلت تلك القمامة وبني مكانها كنيسة هائلة مزخرفة بأنواع الزينة، فهي هذه المشهورة اليوم ببلدة بيت المقدس التي يقال لها القمامة باعتبار ما كان عندها، ويسمونها القيامة يعنون التي يقوم جسد المسيح منها، ثم أمرت هيلانة بأن توضع قمامة البلد وكناسته وقاذوراته على الصخرة التي هي قبلة اليهود فلم تزل كذلك حتى فتح عمر بن الخطاب

بيت المقدس، فكنس عنها القمامة بردائه وطهرها من الأخباث والأنجاس، ولم يضع المسجد وراءها ولكن أمامها حيث صلى رسول الله ﷺ ليلة الإسراء بالأنبياء وهو المسجد الأقصى.

بيان بناء بيت لحم والقيامة

وبنى الملك قسطنطين بيت لحم على محل مولد المسيح، وبنت أمه هيلانة القمامة، يعني على قبر المصلوب وهم يسلمون لليهود أنه المسيح.

قد كفر هؤلاء وهؤلاء، ووضعوا القوانين والأحكام، ومنها مخالف للعقيدة التي هي التوراة، وأحلوا أشياء هي حرام بنص التوراة ومن ذلك الخنزير، وصلوا إلى المشرق ولم يكن المسيح صلى إلا إلى صخرة بيت المقدس، وكذلك جميع الأنبياء بعد موسى، ومحمد خاتم النبيين صلى إليها بعد هجرته إلى المدينة ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا ثم حول إلى الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل.

صوروا الكنائس ولم تكن مصورة قبل ذلك، ووضعوا العقيدة التي يحفظها أطفالهم ونساؤهم ورجالهم التي يسمونها بالأمانة، وهي في الحقيقة أكبر الكفر والخيانة.

وجميع الملكية والنسطورية وأصحاب نسطورس أهل المجمع الثاني، واليعقوبية أصحاب يعقوب البراذعي أصحاب المجمع الثالث، يعتقدون هذه العقيدة ويختلفون في تفسيرها.

براءة مريم عليها السلام

يذكر القرآن الكريم السيدة مريم البتول الصديقة أم عيسى عليه السلام من أيام الحمل بها وقبل ولادتها، أيام كانت جنينًا في بطن أمها، زوجة عمران الصالحة، ثم ظروف ولادتها، تربيتها في سورة آل عمران فيقول تبارك وتعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ [آل عمران: ٣٥ - ٣٧].

هذه هي الأحوال التي أحاطت بمولد السيدة مريم العذراء الطاهرة، فأمها وهي حامل بها نذرت أن يكون ما في بطنها محررًا خالصًا لخدمت بيت الله وسدانته والقيام بشئونه، واستمرت امرأة عمران الطيبة الصالحة مصممة على الوفاء بنذرها وتترقب ساعة وضع الجنين المبارك، فلما وضعت وكان نذرها على فرض أن المولود ذكر، كما يبدو من إشارات النصوص القرآنية وعلى أساس أن من يقومون بمهمة خدمة المعبد عادة هم الرجال، فلما وضعتها أنثى، جددت العزم على الوفاء بالنذر على الرغم من أنها وجدت ما تسوغه النفس للتحلل من النذر وأخذت تناجي ربها وكأنها تعتذر عن أن ما وضعته وكانت قد وهبته لخدمة المعبد أثناء الحمل به أنثى: ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ [آل عمران: ٣٦]، ومع ذلك فقد صممت وأصرت على الوفاء بنذرها.

يقول الأمام الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه محاضرات في النصرانية: فكان في هذا الإصرار عبادة أخرى إذ وجدت في النفس داعيات التردد والرجوع والتحلل من الوفاء، فكان كفها هذه الداعيات والقضاء عليها، عبادة أخرى، وكان من بركة هذه العبادة أن يكون كافلها ومربيها والذي يرعاها هو نبي الله زكريا عليه السلام، وذلك بعد مناقشة بين النساك

والعابدين الصالحين للقيام بهذه المهمة: ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٤٤].

وانصرفت الفتاة الناشئة منذ صباها إلى النسك والعبادة في رعاية النبي زكريا، يوجهها إلى العبادة الصحيحة، وتنزيه القلب من كل أدران الشر والإثم، ويربيها تربية تستلهم جوهرها النقي من تعاليم السماء مباشرة: وفي لحظة من اللحظات شعرت مريم العابدة الناسكة أن روحها أصبحت أكثر صفاء ونقاء، وأعلى سموًا، فتزداد تواضعًا وخشوعًا، وتلجأ بكيانها كله إلى الشكر والتسبيح لله تبارك وتعالى، وهي ترى الرزق يأتي إليها من حيث لا تقدر ولا تحسب، من غير جهد ولا عنت، حتى أثار ذلك عجب نبي الله زكريا عليه السلام الذي يكفلها: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

هكذا الإجابة تأتي في إسرار وبدون بوح بالتفاصيل تأدبًا مع الله وتقديسًا لقدرته وتقديرًا لنعمته عليها وخشوعًا لإرادته تبارك وتعالى، وكان هذا من ثمار التنشئة الطاهرة التي تكونت مريم البتول في ظلها، بريئة، قديسة، لا يجد الشيطان إلى نفسها سبيلاً، ومقدمة لأمر جليل وشأن عظيم واصطفاها الله تبارك وتعالى له، واجتباها لأجله، دون العالمين، وبلغ من ارتفاع قدرها وطهر سريرتها، وصفاء نفسها ، ونقاء قلبها أن كانت الملائكة تخاطبها ، وهي الأرواح الطاهرة باجتباء الله لها، ولذلك كان التقاء الأرواح وخطاب الملائكة لها سهلاً وطريقه ممهدًا: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢].

بل كانت الملائكة تعلمها وتربيها وتشرح لها كيفية العبادة: ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٣].

وقد كان هذا الاصطفاء، وهذا التأهيل والإعداد هو اختيار من الله تبارك وتعالى لها لأن تكون أمًا لمن يولد من غير نطفة آدمية، وقد أراد الله

تبارك وتعالى لمريم، أن تحمل آية الله الكبرى المشهورة، تحيط بها القرائن، التي تقطع ريب المرتاب، وتقطع ألسنة كل أفاك، وتنير السبيل أمام المؤمنين، لأن حمل مريم الطاهرة من غير أن يمسسها بشر وهي الناسكة العابدة التي تعكف على التقوى، تحت ظل نبي من أنبياء الله تعالى، يجعل المؤمن يؤمن بآية الله الكبرى في هذا الكون، ولا جعل شيئًا يقف أمام مريد الهداية، من ريبة في الأم أو تشكك، فحياتها كلها تنفي الريبة، وتبعدها عن موطن الشبهة، وتشهد لها بالبراءة.

في القرآن الكريم سورة اسمها مريم يدور السياق فيها حول محور التوحيد، وتتناول ضمن ما تتناول من القصص، قصة مريم البتول، وابنها عيسى ابن مريم، فتفصل في قضية بنوته التي أكثر فيها الجدل، واختلفت فيها أحزاب اليهود والنصارى، وإذا نحن تجاوزنا معجزة خلق الإنسان الأول وإنشائه على هذه الصورة، فإن معجزة ولادة عيسى ابن مريم عليه السلام يكون أعجب ما شهدته البشرية في تاريخها كله، فهو حادث فذ لا نظير له من قبله ولا من بعده.

إن البشرية لم تشهد خلق نفسها، وهو الحادث العظيم الهائل الضخم في تاريخها، فلم تشهد خلق الإنسان الأول من غير أب ولا أم، ثم شاءت الحكمة الإلهية أن تكون المعجزة الثانية في مولد عيسى من غير أب، ليشهدها البشر، ثم تظل في سجل الحياة الإنسانية واضحة فذة تسترجعها الأجيال إذا عز عليها أن تسترجع المعجزة الأولى،وهي خلق آدم من غير أب ولا أم ، والتي لم يشهدها إنسان، ومصدر الإعجاز والعجب في هذا الحادث العظيم يأتي من أن سنة الله تعالى في أسباب امتداد الحياة قد جرت على التناسل بين ذكر وأنثى، وذلك في الإنسان، وفي جميع خلق الله تعالى من الفصائل والأنواع المختلفة بلا استثناء، حتى المخلوقات التي لا توجد فيها ذكر وأنثى متميزان، فإن الفرد الواحد منها تتجمع فيه خلايا التذكير والتأنيث.

قد جرت هذه السنة أحقابًا طويلة، حتى استقرت في تصور البشر أن هذه هي الطريقة الوحيدة في التناسل واستمرار الخلق، ونسوا الحادث الأول، خلق آدم من غير أب وأم، فأراد الله تعالى أن يضرب لهم مثل عيسى ابن مريم عليه السلام ليذكرهم بالقدرة الإلهية المطلقة، والإرادة الإلهية، التي لا تحدها النواميس التي تضعها وتختارها، ولم تتكرر حادثة خلق عيسى عليه السلام من غير أب، لأن الأصل هو أن تجري السنة التي وضعها الله للتناسل من ذكر وأنثى، وهذه الحادثة الواحدة تكفي لتبقى أمام أنظار الناس دليلاً واضحًا على إرادة الله تعالى المطلقة: ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [مريم: ٢١]، ويلتمس العلماء تلك الآية الدالة في ولادة عيسى عليه السلام من غير أب في أمرين:

الأمر الأول: أن ولادة عيسى عليه السلام من غير أب تعلن قدرة الله سبحانه وتعالى، وأنه الفاعل المختار المريد، وأنه سبحانه لا يتقيد في تكوينه للأشياء بقانون الأسباب والمسببات التي نرى العالم يسير عليها في نظامه الذي أبدعه وخلقه الله تعالى، فالأسباب الجارية لا تقيد إرادة الله لأنه سبحانه وتعالى هو خالقها وهو مبدعها ومزيدها، وأن الأشياء لم تصدر عن الله –جلت قدرته– كما يصدر الشيء عن علته، والمسبب عن مسببه من غير أن يكون للعلة إرادة في معلولها، بل كانت بفعله سبحانه وتعالى وبإرادته التي لا يقيدها شيء مهما يكن شأنه.

وخلق عيسى عليه السلام من غير أب هو بلا ريب إعلان لهذه الإرادة الإلهية، بين قوم غلبت عليه الأسباب المادية، وفي عصر ساد فيه نوع من الفلسفة، أساسها أن خلق الكون كان من مصدره الأول، أي لا ينشأ بالإرادة الإلهية بل بالأسباب المادية، فكان عيسى ابن مريم عليه السلام آية الله على أنه سبحانه لا يتقيد بالأسباب الكونية، وأن العالم كله بإرادته، ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٤٣].

والأمر الثاني: أن ولادة عيسى ابن مريم عليه السلام من غير أب إعلان لعالم الروح بين قوم أنكروها، حتى لقد زعموا أن الإنسان جسم بلا روح

فيه، وأنه ليس إلا تلك الأعضاء والعناصر التي يتكون منها، فلقد قيل عن اليهود-وهم القوم الذين أرسل إليهم عيسى عليه السلام- أهم كانوا لا يعرفون الإنسان إلا جسمًا عضويًا، ولا يقرون أنه جسم وروح، فقد قال المؤرخ رينان في سبب الحقد الذي تغلغل في النفس اليهودية: لو كان الشعب الإسرائيلي يعرف التعاليم اليونانية التي كان من مقتضاها اعتبار الإنسان عنصرين مستقلين، أحدهما الروح والآخر الجسد، وإنما تعذبت الروح في هذه الحياة لأنها تستريح في الحياة الثانية لسري عنه شيء كثير من عذاب النفس واضطراب الفكر بسبب ذله وخضوعه مع ما كان يراه في نفسه من الاختيار الأدبي والديني عن الشعوب التي كانت تذله.

فيقرر رينان في هذا أن اليهود ما كانوا يقولون مثل اليونان: إن الإنسان جسم وروح، ولقد يؤيد هذا ما جاء في التوراة التي بأيديهم في تفسير النفس بأنها الدم فقد جاء فيها: لا تأكلوا دم جسم ما لأن نفس كل جسم هي دمه.

وعلى هذا؛ لم تكن اليهود يعرفون الروح على أنها شيء غير الجسم، فلما جاء عيسى من غير أب، وكان إيجاده بروح من خلق الله كما قال سبحانه: ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلۡنَٰهَا وَٱبۡنَهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩١].

كان ذلك الإيجاد الذي لم يكن العامل فيه سوى ملك من الأرواح نفخ في جيب مريم، فكان الإنسان من غير بذرة الإنسان ونطفته، كان ذلك إعلانًا لعالم الروح بين قوم أنكروها، ولم يعرفوها، وكان ميلاد عيسى عليه السلام من غير أب قارعة قرعت حسهم ليدركوا الروح، وكان آية معلمة لمن لم يعرف الإنسان إلا أنه جسم لا روح فيه، وهذه آية الله تعالى في عيسى وأمه عليهما السلام.

ولكن نظرا لغربة الحادث وضخامته، فقد عز على فرق من الناس، بدءًا من بني إسرائيل الذين عاصروا الحادث وعايشوه وعرفوا تفاصيله، عز عليهم

أن يتصوروه على طبيعته، وأن يدركوا الحكمة من ورائه، فبعض الفرق كذبت واتهمت مريم القديسة العذراء في شرفها وعفتها وتصوغ حولها قصص الانحراف وعلى النقيض من ذلك جعلت بعض الفرق تضفي على عيسى ابن مريم عليه السلام صفات الألوهية ، وتصوغ حول مولده الخرافات والأساطير، فتشوه عقيدة التوحيد.

هي مريم ابنة عمران، الفتاة العذراء، القديسة، البتول، وهبتها أمها وكانت مريم لم تزل جنينًا في بطنها لخدمة المعبد، ولا يعرف أحد عنها إلا الطهر والعفة، حتى إن الناس من حولها لينسبوها إلى هارون، كبير سدنة المعبد الإسرائيلي المتطهرين، ولا يعرف عن أسرتها إلا الطيبة والصلاح من قديم، وتمر الأيام بمريم وهي تقوم على خدمة المعبد، حتى أصبحت الملائكة تصافحها وتخاطبها، وتعلمها وتربيها لتتحمل المسئولية العظيمة التي ستلقى على عاتقها، وهي لا تدري عنها شيئًا، ولكنه الإعداد الإلهي، والتأهيل الرباني: ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣]، ومن قبل كانت الآيات تجري على يديها وأمام عينيها وهي في المحراب، فتكتم سرها حتى عن النبي زكريا الذي كان يكفلها ويقوم على رعايتها وتربيتها: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

لقد عرفت مريم الطريق إلى الله، باختيار الله لها وتطهيره سبحانه لها ثم بتعليم الملائكة وتربيتهم لها، وعرفت مريم بالحس الإيماني الذي يستقر في أعماقها أن شيئًا عظيمًا يوشك أن يقع، وأن هذا الحدث له علاقة بها، علاقة قوية يزداد الشعور بها كل يوم، وأحبت أن تخلو إلى نفسها، وأن تتوارى عن أعين أهلها، والاحتجاب عن أنظار الناس، والصلاة في جوف الليل، ومناجاة

ربها، وبينما هي في خلوتها مطمئنة إلى انفرادها بنفسها، إذ تفاجأ مريم مفاجأة عنيفة، تسمع في البداية وقع أقدام تستقر على الأرض، ثم وقع الأقدام تسير على الحصى من حولها، ثم يظهر رجل مكتمل سوي، فامتلأت خوفًا ورعبًا، وارتعشت ونكست رأسها، ﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم: ١٧].

انتفضت مريم انتفاضة العذراء المذعورة عندما تفاجأ برجل في خلوتها، وأخذت مريم تستعيذ بالله وتلجأ إليه سبحانه، وتستنجد وتستثير مشاعر التقوى في نفس الرجل، والخوف من الله، والتحرج من رقابته في هذا المكان الخالي؛ إنها لم تعرف الرجل، فقد أدركت من النظرة الأولى أن وجهه غريب لم تره من قبل في البلدة، وأقرأها السلام بصوت ليس فيه وحشة، ولكنها لازالت مرعوبة، فلم تأنس إلى صوته، فقد طغى ما بداخلها من آثار صدمة المفاجأة، فبادرته بالاستعاذة وليس برد السلام، قالت مريم: ﴿ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ١٨].

استعاذت بالرحمن ليدركها برحمته في هذه الأزمة الغريبة والفريدة في نوعها التي تواجهها، وذكرت الرجل الذي يقف أمامها بالتقوى، لأن الإنسان التقي يستيقظ وجدانه عند ذكر الرحمن، ويرجع عن نوازع الشهوة ووسوسة الشيطان، فابتسم الرجل ابتسامة نقية لا تخفي وراءها أي أثر للخبث أو المداهنة أو الرغبة أو الخداع..وقال: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ [مريم: ١٩].

استمعت العذراء الطيبة البريئة الصالحة لهذا الرد، وأصابها الخوف والهلع والفزع، واحتواها رداء من الخجل والحياء، واستجمعت شجاعتها، واستعانت بالله تبارك تعالى، ورفعت رأسها، فإذا بالروح الأمين لا يزال يقف أمامها في صورته البشرية، وتذكرت آخر ما سمعته منه:﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ .

لقد سبق لمريم أن استأنست بالملائكة، وتحدثوا إليها في المحراب، قالوا لها: إن الله تعالى قد اصطفاها وطهرها واصطفاها على نساء العالمين، وقالوا

لها ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٣]، فكانت هذه اللقاءات وهذا الكلام مع الملائكة وهذا الاستئناس بهم بمثابة تجارب تسبق الحدث العظيم فتتعرف من خلالها على عالم الملائكة النوراني وأطيافهم التي تهبط في القلب وتتحدث إليه بما أراد الله تعالى أن يوحي به.

إن مريم على يقين من قدرة الله المطلقة، لكنها لم تعرف الملائكة على هذه الصورة، صورة الرجل السوي، ولذلك فإنها لم تثق بعد تمامًا بأنه رسول ربها، خاصة وهي تقف موقف الأنثى المهددة في عرضها، فقد تكون حيلة من هذا الرجل ليستغل طيبتها ويفتك بها، فاستجمعت شجاعتها، وبادرته بسؤال صريح، سؤال لا يقل صراحة عن الكلام الذي عبر به عن مهمته التي جاء من أجلها: كيف؟ كيف تنجب غلامًا وهي لا تزال عذراء، لم تتزوج، لم يمسسها بشر، كيف تنجب بغير زواج؟!!: ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مريم: ٢٠].

ويبدو سؤال مريم أنها لم تكن تتصور وسيلة أخرى لأن يهبها غلامًا إلا الوسيلة المعهودة بين الذكر والأنثى، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لتصورها البشري الذي ما زال يسيطر عليها بسبب هول المباغتة ، ولم يخفف من روعها أن يقول لها: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ [مريم: ١٩]، ولا أنه مرسل ليهب لها غلامًا طاهرًا نقيًا غير مدنس المولد، ولا مدنس السيرة ليطمئن قلبها.

قال الروح الأمين: ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٢١].

فهذا الأمر الخارق الذي لا تتصورين وقوعه، هين على الله تبارك وتعالى، سواء جرى ذلك الأمر حسب السنة المعهودة، وهي أيضًا خارقة أو جرى بغير السنة المعهودة التي لا يصدقها البشر بسبب ضعف إيمانهم وعدم إدراكهم لإرادة الله وقدرته المطلقة.

واطمأن قلبها بهذا الحديث، فالروح الأمين يخبرها بأن ربها يخبرها بأن هذا الأمر هين عليه، وأنه أراد أن يجعل هذا الحادث العجيب آية للناس ورحمة منه تبارك وتعالى، وعلامة على وجوده وقدرته وحرية إرادته، رحمة لبني إسرائيل أولاً، وللبشرية جميعًا، بإبراز هذا الحادث الذي يقودهم إلى معرفة الله وعبادته وابتغاء رضاه.

واستقبلت مريم كلمات الروح الأمين، وتأملت فيها بقلبها ووجدانها وعقلها، وقالت في نفسها، إن هذا هو أمر الله وأنا على يقين بأنه تبارك وتعالى على كل شيء قدير، وكل شيء ينفذ ويكون إذا أراد الله سبحانه، فأي غرابة في أن ألد بغير أن يمسسني بشر، لقد خلق الله تبارك وتعالى آدم عليه السلام من غير أب أو أم، فلم يكن هناك ذكر أو أنثى قبل خلق آدم، وخلق الله حواء من آدم فهي قد خلقت من ذكر بغير أنثى والله تبارك وتعالى قادر على خلق ابني بغير أب.

قال الروح الأمين جبريل عليه السلام فيما تحدثت به إلى مريم: ((إن الله يبشرك بكلمة .... وكهلاً ومن الصالحين))[آل عمران: ٤٥].

واستمعت مريم إلى هذه البشرى في دهشة، إنها تعلم أنه ذكر، وتعرف اسمه وأنه سيكون وجيهًا عند الله وعند الناس، وتعرف أحداثًا قادمة سوف تحدث من المولود الذي لم ير النور بعد، فهو سيكلم الناس وهو طفل في المهد وهو كبير.

وكان حديث الروح الأمين إليها على هذا النحو، وذكر أوصاف الوليد لها، ليبث السكينة والطمأنينة في قلبها، وينزع من هذا القلب الرقيق وحشة المجهول ووقع الحادث وآثاره ونتائجه، ويجعلها قريبة من تطورات الأحداث، بل وعلى علم سابق بها، فيثبت قلبها ولا يتزعزع إيمانها، وتطمئن إلى قدر الله وينشرح صدرها لقضائه وتشعر أنها في عين الله ورعايته، وأنها موضع اختياره تبارك وتعالى وتكريمه.

تذكرت مريم نعمة الله عليها ، فانشغل قلبها بالشكر والتسبيح والاستغفار واستلهام الرجوع إلى الله واللجوء إليه، ولكنها أخذت تتأمل في الجنين الذي تعرف اسمه وصفته قبل أن تحمله، ثم تتذكر أمها، امرأة عمران حينما حملت بها ووهبت ما في بطنها لخدمة المعبد على أساس أن المولود سيكون ذكرًا، ثم تفاجأ بعد الولادة أنه أنثى ، فلم تكن تعرف نوعه وهي تحمله مثل أي أنثى تحمل في بطنها جنينًا، فتقول: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [آل عمران: ٣٦].

ثم تشكر مريم ربها سبحانه وتعالى على أنه أكرمها بأن جعل أمها تستمر في الوفاء بنذرها لخدمة المعبد على الرغم من أنها أنثى، تحمد الله تبارك تعالى على أنه أكرمها بالعلم الذي حجبه عن كل أنثى تحمل في بطنها جنينًا فلا تعرف أي شيء عنه أو عن نوعه.

وشعرت بسلام عميق فقد نزع منها الشعور بالغربة إزاء المجهول، ليست وحدها، لم تعد وحدها منذ أن انصرف عنها الروح الأمين، أحست أن في داخلها نورًا، جنينًا، سيصبح عندما يكبر كلمة الله وروحًا منه، سيصبح رسولاً نبيًا فشعرت نحوه بحب خاص، لم تشعر به نحو أي شيء من قبل، وظلت تأنس إليه وتأتنس به، مرت به فترة الحمل به خفيفة، فقد كان حملها به نعمة أخرى من نعم الله عليها.

وجاء موعد الوضع الشهر التاسع، ويقول بعض العلماء: إن الفاء في الفعل: ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ ﴾ [مريم: ٢٣]، تفيد التعقيب السريع، بمعنى أن مريم لم تحمل بعيسى تسعة أشهر، وإنما ولدته مباشرة كمعجزة.

خرجت مريم العذراء ذات يوم وهي حائرة، إنها تحس برغبة شديدة في أن تعتزل الناس وتخلو إلى نفسها، ولم يكن هذا الشعور جديدًا عليها، فكثيراً ما كانت تعتزل الناس تتعبد وتقنت لله وتركع وتسجد، ولكن هذه المرة

تشعر أن شيئًا قد يحدث لها، أخذت تبتعد حتى وصلت إلى مكان بعيد يمتلئ بالأشجار والنخيل، فجلست تستريح في ظل نخلة مثمرة، وفجأة بدأت تشعر بألم، وراح الألم يتزايد، ويعاودها في فترات متقاربة،وبدأت تواجه الآلام الجسدية إلى جانب ما أصابها من آلام نفسية، كانت هذه الآلام هي آلام المخاض، وزاد من آلامها أنها سوف تواجه قومها في لحظة وشيكة، ويفتضح أمرها مع وليدها، وقد لا يصدقون أنه ولد بغير أب، وقد اضطرها شدة الألم إلى أن تستند إلى جذع النخلة التي كانت تجلس في ظلها، بينما لا تزال الأفكار تتدافع إلى ذهنها كما تتدافع الآلام إلى جسدها، كيف يستقبل الناس طفلها؟ وماذا يقولون عنها؟ إنهم يعرفون أنها عذراء، فكيف تلد وهي عذراء؟ وتصورت نظرات الشك وكلمات الفضول وتعليقات الناس، فزادت آلامها الجسدية والنفسية، وهي وحيدة تواجه ذلك كله، تعاني حيرة العذراء في أول مخاض، ولا علم لها بشيء من ذلك ولا معين لها من البشر: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٢، ٢٣].

وفي غمرة الألم والهول، تقع المفاجأة الكبرى، ويأتيها العزاء على قدر ما أصابها، فتسمع من وليدها الذي خرج إلى الدنيا منذ لحظات، يناديها بكلمات تمسح آلام النفس، وتعالج آلام الجسد من أثر الولادة، وترسم لها خطة مواجهة القادم المجهول فيدلها على حجتها وبرهانها ويثبت لها صدق البشرى التي بشرها بها الروح الأمين قبل أن تحمل فيطمئن قلبها: ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ [مريم: ٢٤ - ٢٦].

لا تحزني يا مريم، فإن الله معك، لم ينسك ولم يتركك، ثم بدأ عيسى ابن مريم عليه السلام الوليد يعدد لأمه أسباب رحمة الله تعالى بها في ترتيب وسياق معجز حسب الموقف الذي تعيشه الأم، وأولويات حاجاتها: ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ

تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ [مريم: ٢٤]، فأجرى هذا الجدول العذب الرقراق تحت قدميك ساريًا، أجراه في لحظة من ينبوع يتدفق صافيًا، وهذه النخلة التي تستندين إليها، هزيها هزًا خفيفًا حسب ما تسمح به قوتك، تتساقط عليك ثمارها الغزيرة من الرطب، فهذا شرابك وطعامك، الطعام وهو التمر من أفضل وأنسب الطعام بالنسبة للنفساء، حيث أثبتت الأبحاث الطبية أن التمر له تأثير فعال على الرحم فيجعله ينقبض ويعود لحجمه ووضعه بعد الولادة مباشرة، وهو غذاء كامل، فكلي يا أمي واشربي هنيئًا ﴿ وَقَرِّي عَيْنًا ﴾ [مريم: ٢٦]، واطمئني قلبا.

وبعد ذلك تأتي الحاجة النفسية في سلسلة الحاجات فيقول عيسى ابن مريم لأمه بعد دعوتها للاطمئنان: أما إذا واجهت أحدًا من الناس فأعلنيه- بطريقة غير الكلام- أنك نذرت صومًا للرحمن صومًا عن الحديث إليهم وانقطعت تمامًا إلى الله تبارك وتعالى للعبادة، ولا تجيبي أحدًا عن أي سؤال.

ولا بد أن تكون مريم قد أصابتها الدهشة طويلاً بسبب الحديث الذي سمعته من طفلها، على الرغم من أنها كانت قد بشرت من قبل بأن ابنها: ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ﴾ [آل عمران: ٤٦]، ثم مدت يدها إلى جذع النخلة تهزه ليساقط عليها رطبًا جنيًا، ثم أفاقت، فاطمأنت إلى أن الله تبارك وتعالى لا يتركها، وأن حجتها وبرهانها معها، هذا الطفل الذي ينطق في المهد ويكلم الناس، فيكشف لهم عن الخارقة التي جاءت بها إليهم.

ونحسب أن مريم قد زالت عنها الدهشة التي أصابتها من كلام ابنها، بحيث لا تتكرر إذا ما تكلم مرة ثانية أمامها مع الناس بعد التجربة الأولى، ولعل حكمة الله تبارك وتعالى قد شاءت أن يتحدث عيسى عليه السلام إلى أمه أولاً، بعيدًا عن الناس، حتى تمر بالتجربة، وتدهش وتتعجب وتفرغ تمامًا من الانفعالات التي تحدث أمام الخارقة-فلا تتكرر هذه الانفعالات أمام الناس بل تكون مريم هادئة متماسكة موقنة ثابتة، تنفذ ما أوصاها به في حديثه إليها، فيتأكد دورها في وقوع المعجزة، حتى لو كان ذلك بالصمت والصوم

والانقطاع للعبادة، دون تردد أو ضعف أو اهتزاز لما يدور حولها، بل هي قوة اليقين وعمق الإيمان وطمأنينة الطهارة والبراءة، ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ﴾ [مريم: ٢٧].

وما أن وقع البصر عليها وهي تحمل طفلاً حديث الولادة، حتى علت الدهشة الوجوه، وانعقدت الألسنة بعض الوقت، وفغرت الأفواه، وزاد الالتفات إليها، وطالت المتابعة، والملاحقة، ثم بدأ الغمز واللمز.

لقد كان المجتمع الصغير الذي تعيش فيه يعرفها جيدًا، ويعرف نذر أمها، وكيف وهبتها لخدمة المعبد على الرغم من أنها أنثى، ولأول مرة يرون أنثى تخدم المعبد، والجميع يشهد لها بالتقوى والصلاح والطهر، إنها ابنتهم العذراء، العابدة الناسكة، يرونها أمامهم تحمل طفلاً لم يعلموا عنه من قبل شيئًا، هكذا بدون مقدمات، ﴿ قَالُواْ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ [مريم: ٢٧، ٢٨].

وخرجت الكلمات من أفواههم كالسهام القاتلة، إنهم يرمون العذراء الطاهرة بالبغاء، هكذا مباشرة دون روية أو استماع أو سؤال أو تحقق في الأمر، الكلمات الجارحة ترميها بالبغاء وتوبخها وتقرعها بأنها من بيت طيب وأهلها من الصالحين، ثم يسخرون منها، ويقولون لها: إن أمك لم تكن بغيًا، فكيف صرت أنت كذلك!!؟ ﴿ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ ﴾ [مريم: ٢٨]، النبي الذي تولى المعبد هو وذريته من بعده، وأنت تنتسبين إليه بعبادتك وخدمتك للهيكل، وراحت الاتهامات تسقط عليها من كل جانب، وهي شامخة مرفوعة الرأس على ثقة ويقين من أن الله تبارك وتعالى مبرئها، فيزداد وجهها إشراقًا، وتزداد تعلقًا بالطفل المبارك بين يديها، فلما كثرت الأسئلة وزاد الاستنكار وانطلقت السخرية من هنا وهناك، نظرت إليهم في تحدي الواثق من براءته، وأشارت إلى عيسى دون أن تتكلم، وبذلك أعلمتهم أنها صائمة عن الكلام وأنها منقطعة لعبادة الرحمن –كعادتها– وذلك تنفيذًا لوصية الطفل العجيب.

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ [مريم: ٢٩]، وعلت الدهشة الوجوه في استنكار واضح، وساورهم غيظ شديد، لقد فهموا أنها صائمة عن الكلام، ولكن لم يفهموا كيف تطلب منهم أن يسألوا الطفل الوليد، وقالوا لأنفسهم: لا بد أن هذه الفتاة تسخر منا، تواجهنا ونحن نعلم أنها عذراء بهذا الطفل الذي تحمله، ثم تتبجح فتسخر منا عندما نستنكر فعلتها فتقاطعنا وتترفع عن الحديث إلينا بحجة أنها صائمة وعابدة وناسكة، ثم تشير إلى البريء لنسأله عن فعلتها، ولنعرف منه سرها، إنها بلا شك تهزأ وتتحدى صبرنا الذي طال عليها، ثم قال الكهنة ورؤساء اليهود لها في استنكار وغيظ واضح: ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ [مريم: ٢٩]، ولكن هذه هي الخارقة العجيبة تحدث مرة أخرى، الخارقة التي حدثت أمامها وتعاملت معها، فلم تعد تدهش لها أو تتعجب، وظلت تتابع ابنها الوليد يكلم الناس وهو في المهد، وتلاحظ الدهشة على الوجوه تتطلع إليهم في استعلاء المؤمنة وبراءة الطاهرة، وعزة الموقنة، وتواضع العابدة الخاشعة المتبتلة القديسة الصالحة.

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣٠-٣٣].

وجاءت براءة مريم بمعجزة من المعجزات التي وهبها الله تعالى لعيسى عليه السلام وهي معجزة الكلام في المهد، ولكن لم يكد عيسى عليه السلام الطفل الوليد ينتهي من كلامه حتى كانت وجوه الأحبار وكهنة اليهود شاحبة وواجمة، إن الذين يرونه أمامهم خارقة إلهية ومعجزة كبرى، طفل يتكلم في المهد جاء بغير أب فلا بد أن يكون له شأن عظيم لا بد أنه سيأتي برسالة تهدم سلطانهم وتهدد مواقفهم التي اتخذوها على رءوس قومهم بسبب احتكارهم لتعاليم الشريعة، يتصرفون فيها على هواهم، لا يراجعهم أحد ولا

يحاسبهم رقيب، وقد طال العهد منذ ترك لهم موسى التوراة، ولم يعد الناس يتذكرون ما كانت عليه التوراة، ولا بد أن هذا الوليد المعجزة سيفسد عليهم تدابيرهم ويهدم سلطانهم.

وبدأ رؤساء اليهود يحيكون المؤامرات، وهم أعلم الناس بها، وأقدرهم عليها، وأكثرهم خبرة بدروبها، فهم المشهورون بقتل الأنبياء والتطاول عليهم واتهامهم بأبشع الاتهامات.

يقول الإمام ابن القيم في كتابه(هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى) في فصل بعنوان: أخبار اليهود والنصارى عن عيسى ونسبه لا يوثق بها: ثم إن اليهود عندهم من الاختلاف في أمره ما يدل على عدم تيقنهم بشيء من أخباره، فمنهم من يقول إنه كان رجلاً منهم ويعرفون أباه وأمه وينسبونه لزانية!! وحاشاه وحاشا أمه الصديقة الطاهرة البتول التي لم يقرعها فحل قط، قاتلهم الله أنى يؤفكون، ويسمون أباه: الزاني –البنديرا الرومي– وأمه مريم الماشطة، ويزعمون أن زوجها يوسف بن يهودا وجد البنديرا عندها على فراشها وشعر بذلك فهجرها وأنكر ابنها، ومن اليهود من رغب عن هذا القول، قال إنما أبوه يوسف بن يهودا الذي كان زوجًا لمريم، وطوائف من اليهود يقولون غير هذا، ويقولون إنه كان يلاعب الصبيان بالكرة، فوقعت منهم بين جماعة من مشايخ اليهود، فضعف الصبيان عن استخراجها من بينهم حياء من المشايخ، فقوى عيسى وتخطى رقابهم وأخذها، فقالوا له: ما نظنك إلا زنيمًا، ومن اختلاف اليهود في أمره أنهم يسمون أباه–بزعمهم– الذي خطب مريم يوسف بن يهودا النجار، وبعضهم يقول إنما هو يوسف الحداد.

وفي موقع آخر من الكتاب حول تواطؤ اليهود، يقول ابن القيم: فهؤلاء اليهود تواطئوا وتواصوا بكتمان نبوة المسيح، وجحدوا البشارة به، واشتهر ذلك بين طوائفهم في الأرض مشارقها ومغاربها، وكذلك تواطئوا

على أنه كان طبيبًا ساحرًا ابن زانية، مع رؤيتهم الآيات الباهرات التي أرسل بها، وعلمهم أنه أبعد خلق الله عما رمي به، وشاع ما تواطئوا عليه وملئوا به كتبهم شرقًا وغربًا، وكذلك تواطئوا على أن لوطًا عليه السلام نكح ابنتيه وأولدهما أولادًا وشاع ذلك فيهم جميعهم، وتواطئوا على أن الله سبحانه وتعالى ندم وبكى على الطوفان وعض أنامله، وصارع يعقوب فصرعه يعقوب وأنه سبحانه وتعالى، راقد عنهم، وأنهم يسألونه أن ينتبه من رقدته، وشاع ذلك في جميعهم.

لقد أعلن عيسى ابن مريم عليه السلام، أمام أمه وأمام الناس، وهو طفل صغير في المهد، أنه عبد الله فليس هو ابن الله كما تدعي إحدى الفرق، وليس هو إله كما تدعي فرقة أخرى، وليس هو ثالث ثلاثة كما تدعي فرقة ثالثة، ويعلن أن الله تبارك وتعالى جعله نبيًا، لا ولدًا ولا شريكًا، وبارك فيه، وأوصاه بالصلاة والزكاة مدة حياته، والبر بوالدته والتواضع مع عشيرته، فهو بشر له حياة محدودة، وهو يموت ويبعث وقد قدر الله تعالى له السلام والأمان والطمأنينة يوم ولد، ويوم يموت، ويوم يبعث حيًا.

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴾ [مريم: ٣٤-٣٦].

تلك هي حقيقة عيسى ابن مريم، لا ما يقوله عنه المؤلهون له، أو المتهمون لأمه في مولده، تلك هي حقيقته، وذلك واقع نشأته، هو الحق الذي فيه تمترون ويساوركم فيه الشك، وينتهي كلام عيسى ابن مريم بإعلان ربوبية الله له وللناس، ودعوته إلى عبادة الله الواحد بلا شريك.

وقد كان كلام عيسى عليه السلام في المهد بهذه الصورة المعجزة تبرئة لأمه الصديقة، وتوضيحًا لحادث ميلاده.

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي في شأن معجزة ميلاد السيد المسيح عليه السلام ضمن تفسيره لسورة مريم، من منشورات المختار الإسلامي،

وعلاقتها ببني إسرائيل: هذه هي الآية التي جعلها الله في عيسى عليه السلام لبني إسرائيل، فلقد أراد تعالى أن يقيم عليهم الحجة قبل أن ينزل بهم عقابه، فدبر لذلك تدبيرًا واختار فتاة زاهدة عابدة من بني هارون، انقطعت للعبادة في بيت المقدس، وكان يكفلها زكريا، ثم جعلها تبارك وتعالى تحبل وهي بكر، حتى إذا جاءت قومها تحمل ولدها، هاجوا وماجوا، وانصب اهتمامهم جميعًا على هذه النقطة، فلما اجتمع منهم على مريم خلق كثير نتيجة تدبير الله الذي دبره، أنطق الله هذا الطفل الوليد، حتى إذا شب وحباه الله بالنبوة، كان في القوم ألوف يشهدون أنهم رأوا في شخصه آية محيرة، معجزة كبرى من معجزات الله تبارك وتعالى، فإذا رفضوا نبوته، ولم يتبعوه، بل اتهموه وجعلوه مجرمًا، واتهموا أمه وحاولوا صلبه، أنزل بهم عقابًا لم ينزله بقوم غيرهم قط، ليكونوا عبرة لمن يعتبر.

وهكذا لا يبقى هناك مجال للأوهام والأساطير، أو للاختلاف في أمره حيث يبدو هذا الاختلاف مستنكرًا في ظل الحقيقة الناصعة.

﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡ ﴾ [مريم: ٣٧]، فقد جمع الأمبراطور الروماني قسطنطين مجمعًا من الأساقفة، بلغ عدد أعضائه ألفين ومائة وسبعين أسقفًا، فاختلفوا في عيسى عليه السلام اختلافًا شديدًا، فقال بعضهم، هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا وأمات من أمات ثم صعد إلى السماء.

وقال بعضهم: هو ابن الله، وقال بعضهم:هو أحد الأقانيم الثلاثة: الأب والابن والروح القدس، وقال بعضهم: هو ثالث ثلاثة ، الله إله، وهو إله وأمه إله، وقال بعضهم: هو عبد الله ورسوله، وروحه وكلمته.

وقال آخرون أقوالاً أخرى، ولم يجتمع على رأي واحد أكثر من ثلاث مائة وثمانية، اتفقوا على رأي، فمال إليه الإمبراطور، ونصر أصحابه، وطرد الآخرين، وشرد المعارضين، وبخاصة الموحدين.

ثم يأتي إنذار الكافرين الذين ينحرفون عن الإيمان بوحدانية الله، ينذرهم بمشهد يوم عظيم تشهده جموع أكبر وترى ما يحل بالكافرين

المنحرفين، بعدما رأوا وشاهدوا في حياهم ثم بلغ الأجيال من بعدهم آية الله الكبرى-ميلاد عيسى ابن مريم بغير أب- وكلام عيسى ابن مريم للناس في المهد، يعرفهم بحقيقته، ويبرئ أمه من تهمة البغاء التي رماها بها اليهود، فجاءت براءتها.

أما اليهود قتلة الأنبياء فقد عرفوا الحقيقة وعلى الرغم من ذلك أصروا على اتهام السيدة مريم الصديقة الطاهرة المبرأة من السماء بمعجزة هائلة وبينة ناصعة، وذلك بسبب أحقاد يضمروها في أنفسهم ومصالح شخصية لرؤسائهم من الكهنة، فقد شعر كهنة اليهود بالخطر بعد ميلاد عيسى عليه السلام، فعلموا أنه نبي يأتي ليدعو الناس إلى العقيدة الصحيحة بعد أن تحولت التوراة على أيديهم إلى نصوص حرفية جامدة يحيط بها سياج من التقاليد الشكلية الجوفاء ومجموعة كبيرة مبتدعة من الحيل التي تمكنهم من التخلص من أحكام الشريعة في الوقت المناسب.

انزعج الكهنة لميلاد عيسى عليه السلام، وتكتموا قصة ميلاده، وكلامه في المهد، واتهموا أمه، السيدة مريم العذراء القديسة ببهتان عظيم، اتهموها بالبغاء على الرغم من أنهم عاينوا بأنفسهم معجزة كلام ابنها وهو في المهد: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١١٠].

ويحكي إنجيل متى عن استياء عيسى عليه السلام من تكذيب جيل اليهود الذي بعث فيهم للمعجزات التي أجراها الله تعالى على يديه الفصل الحادي عشر، ويوبخ المدن التي جرت فيها وأمام أهلها أكثر معجزاته: الويل

لك يا بيت صيدا الويل لك يا كورازين، لأنه لو جرت في صور وصيدون المعجزات التي جرت فيكما لتابتا من قديم متشحتين بالمسوح والرماد، ولكني أقول لكما إنه ستكون لصور وصيدون في يوم الدينونة حالة أكثر احتمالاً مما لكما، وأنت يا كفر ناحوم، أتحسبين أنك ترتفعين إلى السماء، إنك سيهبط بك إلى الجحيم لأنه لو جرت في سدوم المعجزات التي جرت فيك لظلت قائمة إلى اليوم، ولكني أقول لك إنه ستكون لأرض سدوم يوم الدينونة حالة أكثر احتمالاً مما لك.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة: ٧٥].

يقول بعض العلماء: لقد سمي المسيح بسبب مسحه الأرض وسياحته فيها وفراره بدينه من فتن ذلك الزمان لشدة تكذيب اليهود له وافترائهم عليه وعلى أمه الصديقة عليهما السلام، ويقول النبي محمد ﷺ : «**الأنبياء إخوة دينهم واحد وأمهاتهم شتى وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم، فليس بيني وبينه نبي**».

تم الكتاب والحمد لله وحده
وصلى الله على سيّدنا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم



فهرس المحتويات

الفصل الثالث

ذِكْرُ مريم عليها السلام

AL-FATḤ AL-ᵓANᶜAM

FĪ BARĀᵓAT ᶜĀᵓIŠAH WA MARYAM

(The purity of Aïsha and Mary)

Edited by

Aš-Šayẖ ᶜAli Aḥmad ᶜAbdul- ᶜĀl Al-Ṭahṭāwi

DAR AL-KOTOB AL-ILMIYAH
Beirut-Lebanon